الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامـــعة الحــــاج لخـــــضر
بــــاتنة



كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية والإسلامية
قسم التاريخ وعلم الآثار

عادات وتقاليد المجتمع الأندلسي خلال عهد الدولة الأمويــة

(138-422هـ/ 756-1031م)

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط

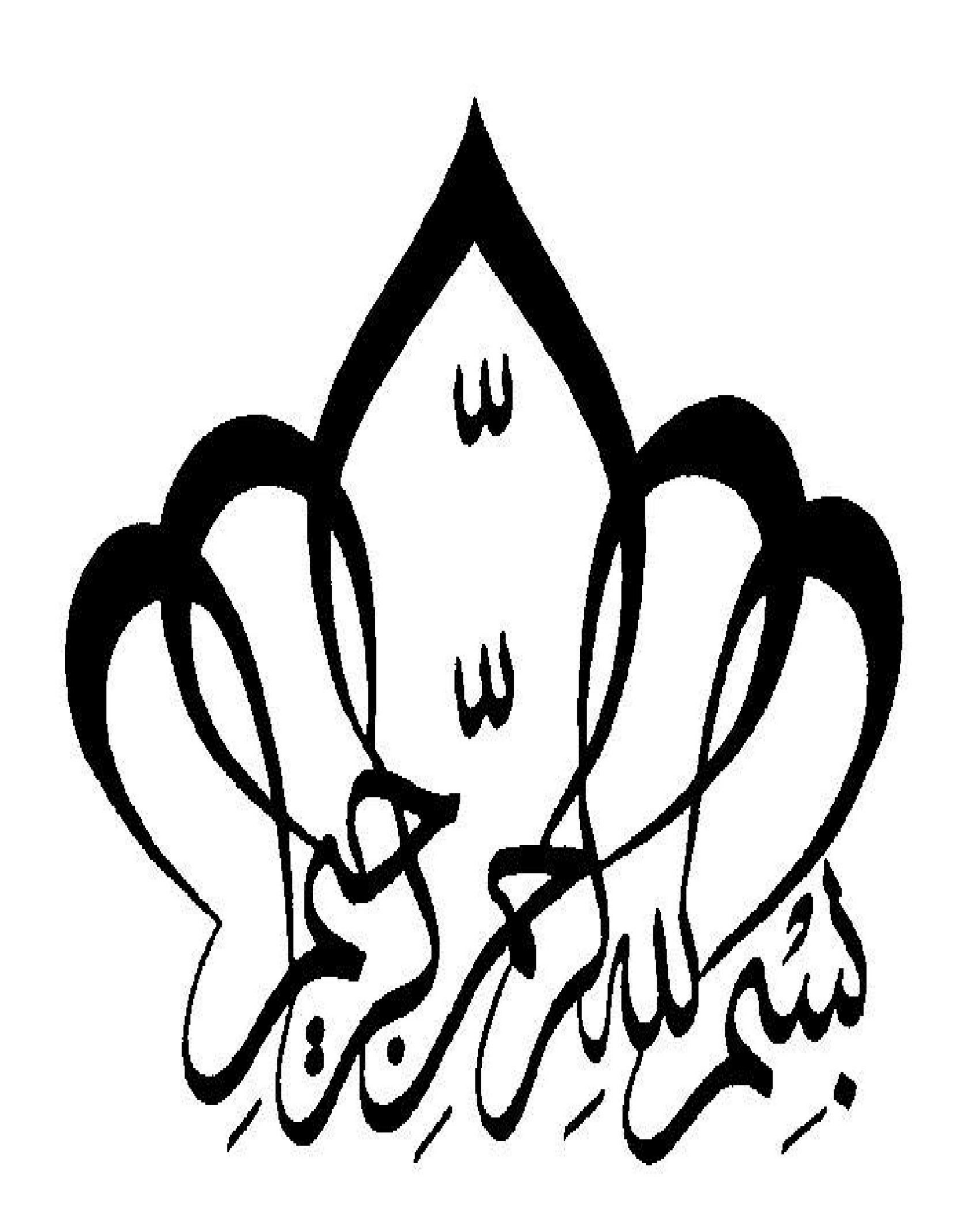
إعداد الطالبة:
نجـاة هــاشمي

إشراف الأستاذ الدكتور:
مسعود مزهودي

أعضاء لجنة المنـاقشة:

الاسم واللقب	الصفة	الرتبة	الجامعة
د/ مسعود شباحي	رئيسا	أستاذ محاضر أ	باتنة
د/ مسعود مزهودي	مشرفا ومقررا	أستاذ التعليم العالي	باتنة
د/ رشيد باقة	عضوا مناقشا	أستاذ التعليم العالي	باتنة
د/ جمعة بن زروال	عضوا مناقشا	أستاذة محاضرة أ	باتنة

السنة الجامعية: 1436 - 1437هـ / 2015 –2016م


بسم الله الرحمن الرحيم

وصل الإسلام شبه الجزيرة الإيبيرية فجدد فيها الحياة، ونفض عنها ركام التخلف والانحطاط، لتصبح بتغلغله فيها أندلس الرقي والحضارة، وجوهرة العالم التي بلغت ذروة المجد في عهد الخلافة الأموية خاصة، ولكن سنن الوجود التي تقتضي النقصان بعد تمام الكمال سرت عليها، فانحدرت إلى الدرك الأسفل بعد التشرذم والانقسام الذي سلبها رونق القوة وأبهة الرقي، متحولة مع مرور الوقت وتعاقب الدول إلى فردوس أرضي مفقود تخفق في المهج الآمال بعودته.

وبما أن التاريخ هو الأقدر على فتح نوافذ الزمن فإنه المطية الموصلة بين العصور، التي يمكننا من خلالها التنقل إلى رحاب الماضي، والتعرف أكثر على الأندلس العميقة المنعكسة في أرواح ساكنيها وتفاصيل يومياتهم وعاداتهم وتقاليدهم، الأندلس التي لا تُختزل في فرد هو محور الأحداث ومحركها، أو في فصول السياسة والحروب التي تحدثت عنها المصادر والمراجع طويلا، لذا كان هذا البحث الموسوم بـ "**عادات وتقاليد المجتمع الأندلسي خلال العهد الأموي (138-422هـ / 756-1031م)**" الذي نسلط الضوء من خلاله على عادات وتقاليد المجتمع الأندلسي بكل أثينياته وانتماءاته؛ ذلك المجتمع المفصول جغرافيا عن العالم الإسلامي، النائم بحكم الموقع في أحضان أوروبا، ومع هذا فإن قوة الروابط تشده إلى حيث ينتمي دينيا وحضاريا، وتكسر من وحشة غربته جسور تواصل ممدودة لا تنقطع.

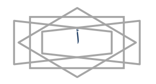
والعادات والتقاليد هي سنن ومتواضعات اجتماعية تنشأ بصفة تلقائية داخل الجماعة البشرية، وهي مجموعة من الأفعال والسلوكات المتوارثة عبر الأجيال، تميز المجتمعات عن غيرها.

أما زمنيا فإن الحقبة محل الدراسة هي عهد الدولة الأموية التي تبدأ سنة 132هـ/750م مع عبد الرحمن الداخل صاحب الفضل في بعثها مغربا بعدما أفل نجمها مشرقا تحت ضربات العباسيين، فهو لم يكتف بالنجاة بحياته والهرب ليعيش مستكينا على هامش الأحداث، بل صار حاكما لدولة أبائه وأجداده التي أقامها مجددا في الأندلس، تلك الدولة التي عرفت منعرجا حاسما في تاريخها على يد عبد الرحمن الثالث، الملقب بالناصر بعد إعلانه سنة 315هـ/929م التحول إلى خلافة تتنازع السلطة على العالم الإسلامي مع الخلافتين العباسية والفاطمية، واستمر وجودها إلى غاية 422هـ/1031م أين تمّ إلغاؤها بعدما صار بقاؤها كمؤسسة فاعلة شبه مستحيل، لتدخل الأندلس طورا جديدا مغايرا عما سبق، أصبحت فيه الدولة الموحدة متقطعة الأوصال مقسمة إلى اثنين وعشرين دويلة.

وقد وقع الاختيار على هذا الموضوع لتضافر عدة أسباب ذاتيه وموضوعية تتجلى في:

- إن الأندلس بكل فتنتها وسحرها، وصخب الحياة فيها، ومنارات العلم المنتصبة تهدي الحيارى في لُجج الجهل وظلام العقل الدامس، تجذب الأفئدة طوعا إليها، فتسكنها أعماقها محبوبة أزلية، لها من الود خالصه، ومنتهى الأماني نظرة ترمم الروح وتلملم شعثها، ووصلا يختصر مسافات الشوق ويرسم بلون الفرح وجه الحنين.

لها قدرة مذهلة على الإغراء، تقع في حبها متى عرفتها، فهي تجذبك إليها بخيط سحري يبدو رقيقا لكنه متين يوحدك معها إلى الأبد.



فقد عرفتها من خلال دراساتي الجامعية وفي كل يوم يمر أجدني أغرق في هواها وأزداد بها هياما وعشقا، لذا يطيب الحديث عنها؛ فكأنه في عذوبته قطاف ندي، ولأني أحببتها فقد اخترتها محورا تدور في فلكه دراساتي.

وبما أن النواحي الاجتماعية أقل دراسة مقارنة بالجوانب السياسية والعسكرية المطروقة جدا، فإن هناك ما يمكن أن يقال فيها، زد على أنها أكثر تشويقا وإثارة، إذ تجعلك تعيش الأندلس واقعا من خلال تتبعك لتفاصيل سكانها اليومية، فأنت ترافقهم في الأسواق، وتلج بيوتهم لتتحلق معهم حول الموائد متلذذا بصنوف الطعام التي يعدونها، وتغير مِثلهم الأزياء حسب المناسبات والفصول، وتتزين بحليهم، وترش من عطورهم وتتبخر مثلهم بالند، بل تجد نفسك مدعوا إلى احتفالاتهم لتقاسمهم بهجتها، إنك تتوغل عميقا في دقائق يومياتهم، فهي دراسة بنكهة المشاركة تجعلك بطريقة ما جزءا من الموضوع، ببساطة إنك تضيف عمرا لعمرك.

- تقديم إضافة في مجال الدراسات الأندلسية، خاصة في جانبها الاجتماعي الذي مازال يحتاج للغوص في أعماقه، وكشف النقاب عن الكثير من خفاياه.

- التعرف على عادات وتقاليد المجتمع الأندلسي يساعد على تفسير الكثير من الظواهر الاجتماعية في حياتنا؛ لأن الأندلسيين كان لهم حضور وتأثير لافت في بلادنا التي آوتهم وهم الناجون بدينهم من إرهاب محاكم التفتيش الإسبانية.

- إثبات أن تعايش الأديان وحوار الحضارات حقيقة جسدها الإسلام في الأندلس، وليس مجرد شعارات فارغة يلوكها المتشدقون في عصرنا، الذين يلصقون بالإسلام كل نقيصة، ويصفونه بالتعصب والإرهاب، ناسبين لأنفسهم رحابة الصدر والقدرة على تقبل الآخر.

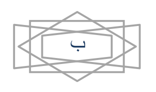
والملاحظ من خلال ما تمّ الاطلاع عليه أن الدراسات الاجتماعية حول الأندلس عموما قليلة، ولا ترد العادات والتقاليد إلا كعنصر فيها، بشكل يمتاز غالبا بالاختصار، مثل ما نجده عند يوسف دويدار في كتابه المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، فلا توجد دراسة متخصصة بعادات وتقاليد الأندلسيين سواء في العهد الأموي أو غيره.

وتتمحور إشكالية الموضوع الرئيسية حول تحديد معالم عادات وتقاليد المجتمع الأندلسي إبان العصر الأموي، ويمكن تحديدها من خلال التساؤلات التالية:

- ماهي التأثيرات التي أحدثها الإسلام على الحركية الاجتماعية في شبه الجزيرة الإيبيرية

- ماهي أبرز العادات والتقاليد الجلية في تفاصيل الحياة اليومية للسكان؟ وقبلا ماهي العوامل التي ساهمت في بلورتها؟

- انطلاقا من عادات المجتمع وتقاليده.كيف ترتسم ملامح شخصيته؟ وإلى أي مدى استطاع أن يكون مستقلا بكينونته مع مراعاة خصوصية الموقع والتطورات التاريخية؟



- كيف كان التركيب العرقي والطبقي للمجتمع إبان هذه الحقبة، وماهي طبيعة العلاقات التي تربط بينهم؟
- ما وضعية أهل الذمة في هذا المجتمع، وما المكانة التي احتلوها فيه؟
- ما مدى تمسك الأفراد بالآداب الإسلامية في سلوكاتهم وتصرفاتهم؟

قصد الإحاطة بالموضوع وسعيا لحل هذه الإشكاليات والتساؤلات، تمّ اعتماد خطة بحث ممنهجة تقوم على مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة كانت موزعة كالتالي:

مقدمة: تمّ فيها الإحاطة بالموضوع.

الفصل الأول: يحمل عنوان "بنية المجتمع الأندلسي" وتم فيه تحديد التركيب العرقي والبناء الطبقي لهذا المجتمع، ثم التعريج على مكانة أهل الذمة وكيف حفظ لهم الإسلام حقوقهم وبوأهم مكانة لم ينالوها في غيره من العصور وهو خليط من الأجناس التي بدأت تنصهر وتتقارب فيما بينها تدريجيا مكونة مجتمعا مترابطا.

في هذا المجتمع ظهرت طبقية فرضتها طبيعة الحياة والتفاوت الاقتصادي والاجتماعي، طبقية تراتيبية غير تحاجزية لأن التحرك فيها صعودا ونزولا وارد ومتاح، كما أن العلاقات فيما بينها ثرية ومتنوعة، كان فيها للفقهاء مكانة محفوظة كونهم لسان الدين وحماته، وبصفتهم ممثلين للرقابة.

لنعرج على التسامح الذي أينعت غراسه في تربة خصبة سقاها الإسلام من مزونه، جنى أهل الذمة ثمارها في كل النواحي.

الفصل الثاني: معنون بـ"عادات الحياة اليومية" تمّ فيه التطرق لأهم وأبرز عادات وتقاليد المجتمع من حيث المأكل والملبس وطرائق العلاج المتبنات من طرف المواطنين، زد على ذلك التقاليد الجنائزية، وطقوسهم في هذا الجانب.

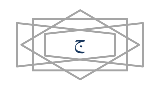
بعدها عاداتهم الشاذة، لأن أهل الأندلس لم يكونوا مثاليين، فهم ككل البشر بمركب النقص فيهم يجمعون بين ازدواجية الخير والشر.

الفصل الثالث: عنوانه "تسلية الأندلسيين وأعيادهم" دار الحديث فيه حول طرق التسلية والترفيه، أهم الأعياد المحتفل بها سواء كانت دينية أو موسمية، إضافة إلى المناسبات الخاصة منها بالأسرة والرسمية كذلك.

خاتمة: وهي عبارة عن محصلة لأهم النتائج المتوصل إليها.

أما المنهج المتبع، المنهج الوصفي لمّا يتعلق الأمر بشرح ظاهرة أو وضعية معينة، فهو الأنسب لرسم تصور صحيح حول مختلف الظواهر الاجتماعية المرصودة، للوقوف عليها عن كثب، كما أنه يساعد على تجسيدها ليسهل فهمها واستيعابها.

إلى جانبه هناك المنهج التحليلي والاستقصائي القائم على الجمع والاستنباط، مع توظيف للمقارنة متى استوجب الأمر ذلك، كما أن للسرد نصيبه خاصة عندما تدمج في صلب الموضوع قصص وحكايات أوردها مؤلفون عاشوا تلك الحقبة.



وككل بحث جاد فإن طريقه لا تكون سالكة ممهدة، بل نواجه فيها العقبات والصعوبات، لعل أهمها:

– صعوبة الحصول على عدد من المصادر والمراجع التي يظل اسمها يتردد صداه في الذهن وتلاحقها أحلامنا كطيف جميل، لكن للأسف لا تطالها أيدينا لتمسك عليها بقوة متفحصة مبحرة بين دفتيها.

– التداخل والتشابك والتقاطع بين الظواهر الاجتماعية المختلفة، مما يصعب الفصل بينها، وبالتالي تصنيفها وتأطيرها.

– لا ترِد العادات والتقاليد غالبا إلا عرضا في بطون المصادر؛ أو كجزء من دراسة اجتماعية بين صفحات المراجع، لذا فإن رصدها صعب، وتتبعها أشبه بتقفي الأثر، فمن كتب الفقه والنوازل والسير والتراجم والأمثال إلى دواوين الشعر وغيرها، كل ذلك لاستخلاص معلومة واحدة أو التأكد منها.

ومع ذلك تبقى لها متعتها الخاصة لأنها تتيح لك اكتشاف ذلك الخيط الرفيع الذي لا يزال يربط حاضرنا بالماضي، إذ تتجلى في واقعنا الكثير من العادات والتقاليد التي كانت ممارسة في المجتمع الأندلسي حتى وإن طالها مع الزمن بعض التعديل والتغيير.

وفي الختام أتقدم بجزيل الشكر للأستاذ الفاضل الدكتور مسعود مزهودي على توجيهاته ونصائحه، و إلى الأستاذ الكريم عبد المالك زرواق الذي تولى التدقيق اللغوي، ولكل من مدّ لي يد المساعدة بكتاب أو نصيحة أو دعم يقوي الثقة في النجاح، ويشحذ الهمم كلما اعتراها الوهن.

المصادر والمراجع: عرض وتحليل

أولا: المصـــادر:

أ- كتب التاريخ العام:

1- ابن حيان الأندلسي (ت.469هـ/1076م): يعد المقتبس في أخبار بلد الأندلس موسوعة شاملة للتاريخ الأندلسي، يورد فيها المؤلف الأحداث مرتبة حسب السنوات، ولكن للأسف لم يصلنا منها سوى الجزء الخاص بسنوات حكم عبد الرحمن الأوسط والحكم المستنصر، ومع أنه بعيد إلى حد ما عن رصد أخبار العامة إلا أن ما فيه من معلومات تفيد في استنتاج الكثير من العادات المتصلة بالطبقة الحاكمة خاصة.

2- ابن عذارى المراكشي: عاش بين منتصف القرن السابع وأوائل القرن الثامن الهجريين، كان حيا خلال سنة 712هـ، كتابه البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، وهو أجزاء ثلاث، تحدث فيها عن الأندلس سياسيا من الفتح حتى عهد المرابطين، وقد كان الجزء الثاني أكثر استعمالا، نظرا للمعلومات التي أوردها حول الدولة الأموية، فهو يخصص لكل حاكم حيزا من الدراسة، يتناول فيها إلى جانب اسمه وصفاته ومدة حكمه أهم الأحداث التي شهدها عهده، والإنجازات التي قام بها ، وبعض القصص والأخبار التي وقعت له على سبيل الإجمال، وفيه عدد من الإشارات الاجتماعية التي قطفت أزاهيرها منه.

3- ابن الخطيب لسان الدين (ت.776هـ/1376م): لكتابه الإحاطة في أخبار غرناطة أهمية كبيرة بما يتضمنه من وصف للمدينة في جوانب شتى، وبما أنها أندلسية فإن ما يقال عنها يمكن إسقاطه وتعميمه على كامل الأندلس.

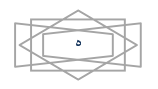
3- المقري (ت.1041هـ/1632م): إن كتابه نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب موسوعة أندلسية مميزة، لا يمكن لأي دارس للتاريخ الأندلسي أن يتجاهلها؛ نظرا لزخمها المعرفي، وهو من عشرة أجزاء، ألفها وهو في المشرق، ليُعرف بموطنه ورجالات العلم فيه، استعملنا جزءها الأول أكثر من غيره.

4- مجهول: لمصنَف أخبار مجموعة -رغم عدم معرفة الكاتب- أهمية معتبرة، يتحدث عن الأندلس من الفتح حتى عصر عبد الرحمن الناصر، وكأغلب المصادر التي تتخذ من الجانب السياسي مجالا لها فإن ما يجيء ولو عرضا من أخبار يساعدنا كي نصل إلى إكمال اللوحة الأندلسية.

5- مجهول: كتاب الطبيخ يلاحظ من متنه أن المؤلف طباخ في إحدى القصور الموحدية، ورغم أنه خاص بعهد الموحدين إلا أننا استفدنا منه كثيرا عند الحديث عن الأطعمة والأشربة، فهو يورد الوصفات بشكل مفصل، يسر لنا تحديد الكثير من خصائص المطبخ الأندلسي، لأن الحركة الاجتماعية بطيئة التغير.

ب: كتب السير والتراجم:

1- الخشني مُحَمَّد بن حارث (ت.361هـ/971م): يترجم في كتابه أخبار الفقهاء والمحدثين لعدد من فقهاء الأندلس وقضاتها، وقد اعتمدنا عليه في حديثنا حول الفقهاء ضمن التصنيف الاجتماعي للطبقات.



2- النباهي المالقي (ت.463هـ/ 1070م) تولى منصب القضاء، ومؤلفه تاريخ قضاة الأندلس قريب الشبه من كتاب الخشني، وكان له الدور والأهمية نفسها.

3- الحميدي (ت.488هـ/ 1095م): جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس مصدر من جزأين، ترجم فيه للعديد من الشخصيات الأندلسية منها من استفاض في الحديث عنها، ومنها من ذكر نزرا قليلا من المعلومات حولها، ومع هذا فهو كتاب قيم يعرفنا بعدد لا بأس به من رجالات الأندلس الأجلاء ونسائها، وإن كان من ترجم لهن فيه قليل، كما يورد في خضم الترجمة بعض المعلومات عن الأوضاع الاجتماعية.

وما ينتقد فيه هذا الكتاب عدم ضبط الإطار الزمني الذي عاشت فيه بعض الشخصيات، وهو ما يعيق الاستفادة مما ورد فيه من أخبار نظرا لجهل الزمن.

4- ابن بشكوال خلف بن عبد الملك (ت.578هـ/1183م): يتضمن كتاب الصلة ترجمة 1541 من علماء الأندلس والطارئين عليها.

5- ابن سعيد المغربي (ت.685هـ/1286م): كتابه المغرب في حلى المغرب إرث عائلي تعاقب على تأليفه خمسة من أسرته، كان هو آخرهم، ضاع منه الكثير وبقي جزآن، إضافة إلى التراجم التي يوردها، وله إشارات اجتماعية هامة.

ج: كتب الجغرافيا:

1- الحميري محمد بن عبد المنعم (ت.727هـ/1326م)كتاب صفة جزيرة الأندلس منتخب من الروض المعطار في خبر الأقطار، وهو موسوعة جغرافية شاملة، استفدنا منه في التعرف على خصائصها وبيئتها، وبالتالي تبيين أثرها في السكان.

2- ابن حوقل أبو القاسم النصيبي (ت.388هـ/998م): يدون في كتابه صورة الأرض مشاهداته عن الأندلس التي زارها، ومعلوماته قيمة وبالغة الأهمية فهو تجاوز الطرح الجغرافي ليتطرق لذكر ملمح عن السكان وصفاتهم، لكن ما يؤخذ عنه أن رحلته كانت لها مآرب سياسية تتجلى من خلال تقديمه معلومات ينقصها الحياد.

3- العذري أحمد بن عمر (ت.478هـ/1085م) يعرف في كتابه نصوص عن الأندلس بهذا البلد وكجل المصادر يمكن من خلاله استنباط إشارات اجتماعية، تفيد خاصة عند الحديث عن المستوى المعيشي للسكان.

4- ياقوت الحموي (ت.626هـ/1228م) مؤلفه موسوم بمعجم البلدان، يرتب فيه الأقطار ترتيبا أبجديا، وهو سهل الاستعمال، يساعد في التعريف بالمدن الأندلسية.

د:كتب النوازل والفقه والحسبة:

1- ابن سهل أبا الأصبغ عيسى (ت.486هـ/1093م): الأحكام الكبرى وهو كتاب من جزأين عبارة عن نوازل عالج فيها الكثير من القضايا الطارئة على حياة الأندلسيين، فهو أكثر المصادر قربا من الحياة

الاجتماعية، مع أن صبغته الفقهية الطاغية تجعل الاستفادة من كل الوارد فيه عملا شاقا جدا، وتلك طبيعة النوازل.

2- أبو بكر الطرطوشي (ت.530هـ/1135م)، يعتبر كتاب الحوادث والبدع من أهم المصادر لرصد العادات والتقاليد، فمن خلال الانتقادات الموجهة بصفته الفقيه المقوم للاعوجاج يمكن الوقوف على الكثير من الحقائق التي تعري المجتمع، وتكشف تناقضاته.

ولأن كتب الحسبة تصور المجتمع كما يجب أن يكون، فإن الانطلاق من هذا المبدأ يجعلنا نتعرف على ما هو كائن، فهي بهذا من المصادر الأساسية لمعالجة الظواهر الاجتماعية، ومن بين الكتب المعتمدة المتخصصة في هذا المجال كتاب ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة والمحتسب ، وهي لابن عبدون وابن عبد الرؤوف والجرسيفي، جمعها وحققها ليفي بروفنسال، إلى جانبها هناك آداب الحسبة للسقطي الذي يصب في المجال نفسه.

د: كتب الأدب والمعاجم:

1- يحي الغزال (250هـ/864م) يعطينا في ديوانه صورا متلاحقة متعددة الجوانب عن مجتمعه، وإلى جانبه هناك ديوان وابن عبد ربه (ت328هـ/939م) وابن شُهيد أبو عامر (ت.425هـ/1043م): اللذان يصدق عليهما الكلام نفسه، واتصالهم بالسلطة يعطينا صورة مقربة وصادقة عن حياة الخاصة.

2- أبو عبد الله مُحَّد بن الكتاني الطبيب (ت.420هـ/1029م) باستنطاق الأشعار الواردة في كتاب التشبيهات في الشعر الأندلسي نجمع زادا معرفيا هائلا يعيننا على إكمال الدرب صوب الهدف، كما يفتح لنا تنوع أغراضه أفاقا تخرج بنا من جمالية النظم إلى ثراء المعنى.

3- ابن حزم (ت.456هـ/1064م): طوق الحمامة في الألفة والألاف، إلى جانب تحليله للنفس البشرية ونوازعها، فهو في هذا الكتاب يتقصى خطى الحب في المجتمع الأندلسي، لينقل لنا نماذج عدة تقربنا من عمق المجتمع، لأنه في حكاياته يتنقل بين مختلف الفئات، أضف إلى أن تجربته مع النساء ومعرفته بهن تزيد من ثراء معلوماته وقيمتها.

4- ابن سيدة (ت.458هـ/1066م): كتابه المخصص الذي نسق مادته ونظمها بطريقة مبتكرة تجعله من أهم كتب المعاجم، خاصة وأن بعدنا عن اللغة في منابعها الأصيلة جعل الكثير من الكلمات محتاجة للشرح والتفسير، ليكون إدراكنا لمعناها صحيحا غير مشوه، ويدانيه في الأهمية لسان العرب لابن منظور.

ثانيا: المـــراجع:

1- يوسف دويدار، المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، يتحدث المؤلف في كتابه عن بنية المجتمع وخصائصه، وأبرز عاداته وتقاليده، إلا أن العمق ينقصه، فكأنه يعطيك وميضا خافتا عليك إذكاؤه من غيره من التصنيفات.

2- خلاف مُحَّد عبد الوهاب، قرطبة في القرن الخامس الهجري، مرجع قيم جدا، يعالج الكثير من القضايا الاجتماعية، التي يعطي ملمحا عنها في القرن الرابع قبل التفصيل في القرن الخامس محل الدراسة.

3- مسعود كواتي: اليهود في المغرب والأندلس، يلعب هذا الكتاب دورا أساسيا عند الحديث عن اليهود بصفتهم أهل ذمة، فهو يبين مكانتهم وأسلوب حياتهم، ودورهم في المجتمع.
4- إبراهيم خليل الكبيسي: تبرز أهمة كتابه دور الفقهاء في الحياة السياسية والاجتماعية بالأندلس في عهد الإمارة والخلافة عند التطرق إلى الفقهاء ضمن الحديث عن طبقات المجتمع، فهو يرصد أوضاعهم وطرق تأثيرهم في بيئتهم التي منحتهم مكانة رفيعة.
5- رينهرت دوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، الكتاب مميز في بابه، فهو يذكر بالشرح أسماء الملابس المرتبة هجائيا، مقدما معلومات عن أصلها وتسميتها، وشكلها والمواد الداخلة في صناعتها، لذا فهو مرجع لا غنى عنه في هذا الباب.
إلى جانبه هناك: صالح أحمد العلي: المنسوجات والألبسة العربية في العهود الإسلامية الأولى، ملابس الرجال في الأندلس لسحر السيد عبد العزيز سالم.
6- ديفيد وينز: فنون الطبخ في الأندلس، ترد هذه الدراسة ضمن مجلة المعهد المصري، يتطرق خلالها المؤلف للمطبخ الأندلسي من حيث وسائله وصنوف الطعام المعدة فيه، والنشاطات العائلة الممارسة، وللكتاب أهمية كبرى لأن موضوعه لم يرد كثيرا في المصادر أو المراجع.
7- آدم ميتز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، كتاب من جزأين، تطرق فيه المؤلف إلى الكثير من القضايا في مختلف مناحي الحياة، ورغم اهتمام الكاتب بالمشرق من خلال حديثه إلّا أنه جعل للأندلس حيزا.

إلى جانب المعلومات التي تقدمها المراجع وجب التنويه إلى دور آخر لها من خلال إحالتنا على كتب أخرى توسع من مداركنا، وتبدد غيوم الحيرة المتلبدة في سماء البحث.



الفصل الأول: بنيــــة المجتمع الأندلسي

أولا: التـــركيب العرقي.

ثانيا: البنــــاء الطبقي.

ثالثا: قيم التسامح الديني وتأثيراته الاجتماعية.

استكمالا لرسالة الإسلام العالمية اجتازت جيوش الفتح بحر الزقاق صوب شبه الجزيرة الإيبيرية سنة 92هـ/711م، لترفع فيها راية الإسلام عاليا، وتتحول مع مرور الوقت إلى الأندلس[1] بكل ما تزخر به هذه الكلمة من معاني و دلالات وتغيرات جذرية مست مناحي الحياة جميعها.

1- التركيب العرقــي:

وفدت على الأندلس أجناس مختلفة تفاعلت مع السكان الأصليين، فزادت في تنوعها العرقي والديني، إذ شكل المجتمع فسيفساء مُكوَنَة من عناصر متجاورة أكثر منها منصهرة مدة من الزمن؛ ثم بدأت البيئة تعمل عملها شيئا فشيئا في تشكيل ملامحه المميزة، التي أخذت في الظهور والاكتمال بمرور الوقت إذ زاد التقارب والتمازج بين السكان، ليصبح لدينا مجتمع أندلسي يتكون من الإيثينيات التالية:

أ- العرب:

دخلوا الأندلس في شكل موجات من الجنود عرفت بالطوالع، كان أولها طالعة موسى بن نصير[2] في رمضان 93هـ/712م، وقد اختلفت المصادر في عدد جندها، إذ يشير ابن عذارى إلى أنهم عشرة آلاف[3] بينما يقول صاحب كتاب أخبار مجموعة أنهم ثمانية عشر ألفا[4].

ويُرجح عبد الله عنان أن قوام الجيش ثمانية عشر ألفا، عشرة آلاف من العرب، وثمانية آلاف من البربر[5].

ولم يكن عرب هذه الطالعة أوائل الداخلين إلى الأندلس، إذ سبقهم عدد قليل في جيش طارق بن زياد[6].

أما الطالعة الثانية فجاءت مع الحُر بن عبد الرحمن الثقفي في ذي الحجة97 هـ/716م، وكان معه أربعمائة من وجوه إفريقية[7].

ولأن أغلب هاتين الطالعتين يمنية فقد اندمجوا فيما بينهم وتسموا بالبلديين، لأنهم اعتبروا أنفسهم بحكم السبق أهل البلد وأصحابه، كما أن رسوخ قدمهم في الحضارة سهل اتصالهم بالسكان الأصليين، مما زاد في

---

[1]- ينظر الخريطة ص124.

[2]- هو أبو عبد الرحمن موسى بن نصير(19-98هـ) اللخمي بالولاء، من التابعين روى عن تميم الداري ﷺ، كان عاقلا كريما شجاعا، لم يهزم له جيش قط، عين واليا على إفريقية مدة 16سنة، ومنها تطلع إلى فتح الأندلس، التي دخلها سنة 93هـ بعد طارق بن زياد، وهو ابن ستين سنة، توفي في طريقه للحج مع الخليفة سليمان بن عبد الملك عن عمر يناهز79سنة. (أبو العباس شمس الدين أحمد بن مُحَمَّد بن أبي بكر بن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، د.ط، بيروت، 1977، ج5، ص ص 318-329. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق:ج.س.كولان وليفي بروفنسال، الدار العربية للكتاب، ط4 القاهرة، 1983، ج2، ص19،18.)

[3]- ابن عذارى المراكشي: المصدر نفسه، ص13.

[4]- مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها -رحمهم الله- والحرب الواقعة بها بينهم، تحقيق : إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، ودار الكتاب اللبناني، ط1، القاهرة، بيروت، 1981، ص24.

[5]- مُحَمَّد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ، مكتبة الخانجي، ط4، القاهرة، 1997، ج1، ص5.

[6]- مجهول: المصدر السابق، ص17.

[7]- ابن عذارى: المصدر السابق، ص25.

إحساسهم بالانتماء إلى الأندلس.

وفي ركاب جيش بلج بن بشر القشري ولجت الطالعة الثالثة في ذي القعدة 123هـ/741م، وكان معه عشرة ألاف من عرب الشام الذين دخلوا الأندلس لاجئين فارين بحياتهم من بطش البربر في بلاد المغرب بعد حصار مرير[1].

بمجيء بلج والقيسية تبدأ فصول الصراع القبلي الذي انتقل من المشرق مع الداخلين إلى الأندلس، فكأنه جمر تحت رماد ينتظر ما يؤججه، وتجلى ذلك منذ الوهلة الأولى لدخولهم، إذ قال البلديون لأهل الشام:"بلدنا يضيق بنا فاخرجوا عنا"[2]، وقد اتخذت هذه الصراعات أشكالا عدة فهي تارة بين اليمنية والقيسية، وأخرى بين البلدية والشامية، وأحيانا بين العرب والبربر، ومهما اختلف أطرافها تبقى نتائجها في كل الحالات وبالا على الأندلس.

وآخر الطوالع هي طالعة أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي، الذي حط رحاله في الأندلس مع ثلاثين رجلا سنة 125هـ/743م، وهي الطالعة الثانية من الشاميين[3].

لم يقتصر دخول العرب على هذه الطوالع فقط، بل توافدوا عليها فرادى وجماعات خاصة في عهد الدولة الأموية التي شجعتهم على المجيء، ومع ذلك فإن عددهم كان ضئيلا مقارنة بالداخلين زمن الإمارة لذا اعتمدوا في بقائهم على تناسلهم، وهو ما أثر في عراقة النسب العربي وصفائه لأن العرب تزوجوا من إسبانيات تجري في عروقهن دماء مختلف الأجناس[4] من إيبيريين ولاتين ويونان وقوط[5] وغيرها.

---

[1]- أوقد البربر نار الثورة في بلاد المغرب فوجه الخليفة هشام بن عبد الملك (105-125هـ/724-743م) جيشا أمّر عليه كلثوم بن عياض القشري لإخمادها، وجعل بلجًا وليا للعهد بعده، وكان ذلك سنة122هـ، وقد دارت بين الطرفين معارك سجال انتهت بقتل كلثوم بن عياض في معركة بقدورة، وفرار بلج ومن بقي معه إلى سبته، التي تحصنوا فيها قرابة السنة حتى أوشكوا على الهلاك، فاستنجدوا بوالي الأندلس عبد الملك بن قطن الفهري، الذي تماطل في مساعدتهم لأحقاد قبلية دفينة، ولكن تحت وطأة ثورة البربر في الأندلس المتزامنة مع نظيرتها في المغرب أُرغم على الخضوع لطلب بلج، فأدخله وجنده الأندلس سنة 123هـ/741م بشروط تمّ نقضها، وبعد هزيمة البربر في وادي سليط حدث ماكان يخشاه ابن قطن إذ انقلب بلج وأصحابه عليه وقتلوه، ولكن الدوائر دارت عليه هو الآخر وقتل. (ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص ص30-33. مجهول: المصدر السابق، ص ص42-45.)

[2]- ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، ودار الكتاب اللبناني، ط2، القاهرة، بيروت 1989، ص42.

[3]- المصدر نفسه، ص45.

[4]- غوستاف لبون: حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، دار العالم العربي، ط1، القاهرة، 2009، ص ص267-269.

[5]- هم قبائل جرمانية، ينقسمون إلى قسمين قوط شرقيون ostrogoths وقوط غربيون visiogoths، كانوا يقيمون في سهول روسيا الجنوبية الغربية، ثم زحفوا من مواطنهم الأصلية هربا من قبائل المغول القادمة من شرق وسط آسيا ، والشرق الأقصى .

سار القوط الشرقيون غربا نحو الأدرياتيك ، وأسسوا له مملكة في إيطاليا، انهارت في عهد الإمبراطور جوستينيان سنة 537م .

أما القوط الغربيون فقد اتجهوا جنوبا إلى نهر الدانوب، وقطعوه سنة 374م، ليدخلوا حدود الإمبراطورية الرومانية الشرقية في عهد الإمبراطور فلنتنيان الأول (364 -374م) الذي سالمهم نظرا لكثرتهم وقوتهم ، لكن القوط كسروا جو المسالمة؛ بدخولهم في حروب مع الإمبراطورية

وهناك خلاف بين المؤرخين حول أماكن استقرار العرب[1]، فمنهم من يرى أنهم استأثروا بأخصب الأراضي وأغناها دون البربر؛ الذين أرغموا على استيطان المناطق الشمالية الجدباء الجافة، ويذهب هذا المذهب أغلب المستشرقين، فهاهي دوروثي لودر تقول: "أمر[موسى] طارقا وقواته أن يتخذوا مقرهم في المناطق الجبلية والهضاب القاحلة في الوسط والشمال–حيث الحدود التي يهددها الأعداء– واحتفظ موسى لنفسه بالجزء الجنوبي من إسبانيا، وهو الإقليم الذي كان مفضلا من المسلمين على الدوام."[2]

وفي السياق نفس يقول كولان عن البربر: "دفعهم إلى الأراضي الجبلية المهاجرون العرب الذين تألفت منهم الأرستقراطية، لكي ينعموا وحدهم دون سواهم بحق التحكم في أخصب البقاع بالأرض الأندلسية."[3]

ويُفند الفريق الآخر هذه الادعاءات، إذ يرى أن عنصري الفتح استقروا في المناطق التي توافق مزاجهم وينفي حسين مؤنس اختصاص العرب أنفسهم بأغنى الأراضي، لأنهم انتشروا في كامل الأندلس خاصة في المناطق التي عرفوها وساروا فيها على طول خطوط الفتح الأولى مع موسى بن نصير[4]، وقد كانت هناك مناطق استقر فيها البربر إلى جانب العرب، وتوزعوا في الشرق والغرب والجنوب، حتى إن الجزيرة الخضراء كادت تقتصر عليهم[5]، وفي هذا المعنى يقول المقري: " كان البربر كلما مرَّ قوم منهم بموضع استحسنوه حطوا به ونزلوه قاطنين"[6]، وهذا ما يرجح الرأي الثاني خاصة وأن البربر كانوا أسبق دخولا من العرب، وأعرف منهم بالمنطقة، وأعدادهم تزايدت بشكل لافت نظرا لقرب المسافة، فما منعهم من الاستقرار حيث شاءوا وهم الأكثر عددا والأسبق دخولا؟!

كما أن القوة والسلطة لم تنقصهم، فهم الذين اختاروا ثاني ولاة الأندلس أيوب بن حبيب اللخمي (97هـ /716م).

=ولم يركنوا للسلم إلا بعد ما اعتلى دوسيوس عرش الإمبراطورية (379- 395م) والذي أقطعهم ممتلكات داخل البلقان ، لم ترض طموحهم فاكتسحوا مقدونيا، إلا أنهم هزموا وطردوا منها، فتوجهوا غربا صوب إيطاليا، ودخلوا روما نفسها سنة 410م، وكان زعيمهم آنذاك إيليريك ولما خلفه ابنه أطاوولف إخترق جبال البرانس وولج إسبانيا، التي أسس فيها المملكة القوطية، وقد عمرت حوالي ثلاثة قرون (415-700م). (جوزيف نسيم يوسف، تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، دار المعرفة الجامعية، د.ط، مصر، د.ت، ص74-75)

[1]- ينظر: الملحق 3و4، ص ص126-129.

[2]- دوروثي لودر: إسبانيا شعبها وأرضها، ترجمة: طارق فودة، مكتبة النهضة المصرية، د.ط، القاهرة، 1965، ص46.

[3]- ج.س.كولان: الأندلس، ترجمة: إبراهيم خورشيد، عبد الحميد يونس، حسن عثمان، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ط1، القاهرة، بيروت، 1980، ص89.

[4]- ينظر: الخريطة ص 125.

[5]- سامية مصطفى مسعد: التكوين العنصري للشعب الأندلسي وأثره على سقوط الأندلس (93-422هـ)، عين للدراسات الإنسانية والبحوث الاجتماعية، د.ط، القاهرة، 2004، ص17.

[6]- المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: مريم قاسم الطويل ويوسف علي الطويل، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، د.ط، الجزائر، 2011، مج1، ص365.

لم يتجرد العرب الوافدون من أحقادهم، بل حملوها معهم إلى الأندلس التي حولوها إلى حلبة للصراعات العصبية القبلية، وقد كان لها أسوأ الأثر على استقرار الأوضاع واستتبابها، فما إن تخمد فتنة حتى تنشب أخرى، دون أن يُحسم الصراع لطرف على حساب الآخر.

وقد اتُخذت العديد من الإجراءات للحد من شدتها، كالجهود التي بذلها الوالي أبو الخطار (125-128هـ/743-746م) بتفريقه لجند الشام في ربوع الأندلس بعدما ضاقت بهم قرطبة، وأنزلهم في الكور التي تشابه بلدانهم القادمين منها[1].

وواصل الخليفة عبد الرحمن الناصر (300-350هـ/912-961م) تفتيت العصبية باعتماده على الصقالبة كجيش دائم مرابط في العاصمة قرطبة[2]، وسار المنصور بن أبي عامر(366-392هـ/976-1002م) في النهج نفسه إذ عمل على التخلص من النظام القبلي في الجيش، وذلك من خلال توزيع الأجناد من عرب وبربر و صقالبة[3] على فرق الجيش، بحيث تحتوي كل فرقة على جند من هذه العناصر، كما وزع جند القبيلة الواحدة على مختلف الفرق، فصار الولاء للقائد بدل القبيلة، ليقضي بذلك على نظام الجيوش القبلية[4]، وهو ما أوهن العصبية وأضعفها.

ب- البربر:

كان الجيش الفاتح بقيادة طارق بن زياد يتألف من إثني عشر ألف جندي جُلهم من البربر، وقد تواصلت هجراتهم صوب الأندلس بعد ذلك لاعتبارات عدة أهمها:

- قرب العُدوة المغربية من الأندلس، فلا يفصل بينهما إلا مضيق جبل طارق الذي تصل أقصر مسافة بين ضفتيه إلى أربعة عشر كيلومترا (14كلم).
- متاخمة الأندلس لأرض النصارى، مما جعلها فضاء خصبا للجهاد؛ الذي كانت نفوس البربر تهفوا إليه.
- غنى الأندلس بالخيرات و الثروات التي رأى فيها البعض مجالا لتحسين أوضاعهم المعيشية.

ووتيرة الهجرة لم تسر على خط واحد، بل كانت ترتفع وتنخفض حسب الظروف، إذ نجد أنها تراجعت عند نشوب الثورة بين العرب والبربر في عهد عبد الملك بن قطن الفهري سنة 123هـ /741م، بل غادروا مواطن استقرارهم وعادوا أدراجهم، وكان ذلك وبالا على المسلمين في الأندلس، لأن إخلاء البربر للمناطق الشمالية سمح للعدو باحتلالها، حتى يقال أن الإمارة الإسبانية تضاعف حجمها خمس مرات بعد فرار

[1]- أنزل أبو الخطار أهل دمشق بالبيرة، وأهل الأردن برية، وأهل فلسطين بشذونة، وأهل حمص باشبيلية، وأهل قنسرين بجيان، وأهل مصر بباجة، وقطيعا منهم بتدمير، وكان إنزالهم على أموال أهل الذمة، فلهم الثلث وللدولة الثلثين. (ابن القوطية: المصدر السابق، ص44.)

[2]- رجب مجيد عبد العليم: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف، دار الكتاب المصري، ودار الكتاب اللبناني، د.ط، القاهرة، بيروت، د.ت، ص169.

[3]- ج.س. كولان: المرجع السابق، ص89.

[4]- رجب مجيد عبد العليم: المرجع السابق، ص174.

البربر إلى المغرب ناجين بأنفسهم[1]، لتُستأنف الهجرة من جديد بعد ذلك، وتبلغ أوجها خلال القرن 4هـ/10م، عندما تمّت الاستعانة بهم كأجناد في الجيش خاصة في عهد الحاجب المنصور بن أبي عامر[2].

وقد استقر البربر[3] في المناطق المشابهة لموطنهم الأصلي والمتفقة مع مزاجهم، إذ كانوا يرغبون عن سُكنى المدن والقرى، ويميلون إلى سُكنى الجبال والصحاري لأنهم أصحاب إبل وماشية[4]، مع العلم أن هـذا الاستقرار لم يكن متوازنا ولا نهائيا، إذ تفاوت من مكان إلى آخر، كما خضع لتطورات التاريخ الأندلسي وأحداثه المتعاقبة[5]، وقد كان أغلب البربر الوافدين من قبيلة زناتة، ثم تبعتها صنهاجة أيام ضعف الدولة الأموية[6].

امتاز البربر باندماجهم السريع في المجتمع نظرا لقربهم من السكان الأصليين في المزاج والطبع، كما أنه لم تكن لهم لغة بقوة وعراقة اللغة العربية، ولا عصبية بحدة عصبية العرب تعوقهم عن الامتزاج العفوي بالآخر، وهو ما جعلهم يلعبون دورا محوريا في نشر الإسلام بين السكان الأصليين[7]، بل إنهم اتحدوا مع العرب الأوائل من طالعتي موسى والحر بن عبد الرحمن مشكلين ما عُرف بالبلديين، فتعربوا وعزفوا عن استعمال لهجاتهم الأصلية.

غير أن البربر الذين استقدمهم المنصور بن أبي عامر كجنود هدفهم الربح المادي، فقد ظلوا متمسكين بخصوصيتهم من حيث الزي واللغة[8]، مما جعلهم منبوذين من السكان، وصاروا بعد وفاة ابنه عبد الملك خطرا على الأندلسيين وبؤرة تموج بالاضطرابات[9]، وهذا ما يفسر تخريبهم لقرطبة، إلى أن أعاد لهم المستعين هيبتهم، وقسم عليهم الأندلس لكي يؤسسوا فيها إمارات مستقلة كبني زيري في غرناطة[10] وبني حمود في

---

[1]- سامية مسعد: المرجع السابق، ص5.

[2]- عبادة عبد الرحمن رضا كحيلة: العقد الثمين في تاريخ المسلمين، دار الكتاب الحديث، د.ط، الكويت، 1996، ص343.

[3]- ينظر: الملحق رقم 5 ص130.

[4]- ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص7.

[5]- عبادة بن عبد الرحمن رضا كحيلة: الخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، القاهرة، 1995، ص37.

[6]- أحمد شحلان: مكونات المجتمع الأندلسي ومكانة أهل الذمة فيه، مجلة التاريخ العربي، جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، العدد1، 1996، ص231.

[7]- حسين مؤنس، فجر الأندلس دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية (711-756م)، دار المناهل، ط1، بيروت، 2002، ص429-430.

[8]- عصمت عبد اللطيف دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني (510هـ-546هـ/ 1116م-1151م) تاريخ سياسي وحضاري، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1988، ص260.

[9]- كولان: المرجع السابق، ص129.

[10]- تعني الرمانة بلسان عجم الأندلس، أقدم مدن كورة ألبيرة، تمتاز بجمالها وحصانتها، يقطعها نهر حداره، بينها وبين قرطبة ثلاثة وثلاثون فرسخا. (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي: معجم البلدان، دار صادر، د.ط، بيروت، 1977، مج4، ص195.)

مالقة[1]...وغيرهم.

فالبربر الأوائل اندمجوا في المجتمع وانصهروا فيه، أما المتأخرون منهم والذين كانوا في الأساس جنودا فقد ظلوا متقوقعين على أنفسهم رافضين الذوبان في قالب المجتمع الأندلسي.

ج– المولدون:

هم نتاج تزاوج المسلمين الداخلين إلى الأندلس من عرب وبربر مع الإسبانيات، نظرا لأسباب أهمها:

– كان الفاتحون عبارة عن جيوش منظمة؛ لم تضم في صفوفها النساء.

– جمال الاسبانيات اللواتي يمتزن ببياض البشرة واصفرار الشعر، وزرقة العيون، وهي صفات جديدة على العربي لم يألفها لذا استهوته وانجذب إليها[2].

– كثرة الجواري والإيماء بسبب السبي والتجارة؛ وجواز التسري بهن، ففي عهد المنصور بن أبي عامر مُلئت الأندلس غنائم وسبايا مما أدى إلى رخص أثمان الجواري فقد "نودي على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة وكانت ذات جمال رائع فلم تساوِ أكثر من عشرين دينارا عامرية"[3] لذا بالغ الناس في جهاز بناتهم ترغيبا فيهن.

يعتبر عبد العزيز بن موسى بن نصير أول من سنّ هذه السنة، بزواجه من أرملة لذريق Rodric أيلة Egilona والتي تسميها المصادر العربية بأم عاصم[4]، ثم سار على نهجه خلق كثير، إذ بلغ عدد الزيجات في بدء الفتح ثلاثين ألفا[5]، ولا أدل على ذلك من أن جُل أمراء وخلفاء بني أمية مولدون وإن حافظوا على عراقة الأخلاق العربية وتمسكوا بها.

وقد رأى المولدون أنهم أقل مكانة من العرب ودونهم حظا رغم كونهم الأغلبية، لذا كثرت ثوراتهم وانقلاباتهم على الدولة[6]، فطليطلة[7] العامرة بهم مدينة لا تهدأ، تموج بالفتن التي ما تفتأ تستعر كلما خمدت وهذه الروح سرت في كل الأندلس، فالتاريخ يحفظ لنا عددا من ثوراتهم التي عبروا من خلالها عن سخطهم المتنامي والمتحفز للظهور كلما كانت الأوضاع مواتية، مثال ذلك هيجة الربض[8] التي حدثت في عهد الأمير

---

[1]– مدينة ساحلية مطلة على البحر الأبيض المتوسط، من أعمال ريَّة. (ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج5، ص43.)

[2]– أحمد أمين : ظهر الإسلام (1– 4)، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2004، ص08.

[3]– محي الدين أبي مُحَّد عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: رينهرت دوزي، مطبعة بريل، د.ط، ليدن، 1881، ص26.

[4]– ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص23.

[5]– غوستاف لوبون: المرجع السابق، ص268.

[6]– رينهرت دوزي، المسلمون في الأندلس، ترجمة: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، القاهرة، 1994، ج1، ص53.

[7]– مدينة كبيرة كانت قاعدة القوط وعاصمتهم، وهي على شاطئ نهر تاجة. (ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 4، ص40.)

[8]– الربض معناه اللغوي الضاحية، والمقصود هنا المنطقة السكنية المستجدة في قرطبة العربية بعد إنشاء الجسر (القنطرة) والممتدة إلى ما وراء الضفة الجنوبية من نهر الوادي الكبير، وكانت هذه الضاحية المقابلة تماما للمسجد وقصر الإمارة قد امتلأت بصنوف الناس فضلا عن عدد من

الحكم (180-206هـ/796-822م) وثورة ابن حفصون[1] التي شغلت الدولة الأموية ردحا من الزمن...وسواهما كثير، عاكسة بوضوح الروح الشعوبية[2] المتجلببة في أشكال عدة منها إلى جانب العنف التعصب العرقي والثقافي.

ولكن هذه التسمية بدأت تتلاشى أواخر القرن 3هـ، نظرا للاختلاط الحاصل بين كل أطياف المجتمع وظهور مجتمع أندلسي متكامل متجانس[3].

ومن المولدين من حافظ على اسمه الإسباني أمثال: بنو أنجلين Angilino، بنو غارسيه Gercia، بنو مردنيش Martinez، كما ظهر تأثير اسباني على الأسماء العربية وهو زيادة الواو والنون في آخر الاسم

= الفقهاء المالكيين، الذين وجدوا في هذا الخليط البشري –وكان جلهم من المولدين– مجالا خصبا لممارسة نفوذهم، ففي سنة 202هـ/818م ثار الربضيون على قتل أحد الجنود لحداد ربضي طلب إليه تقويم سيفه، فحدث بينهما خلاف انتهى بقتل الحداد، فاستشاط الربضيون غضبا وقتلوا الجندي، ثم ساروا إلى قصر الإمارة قاطعين قنطرة الوادي الكبير يريدون الإحاطة بالأمير الحكم، ويعتبر الفقهاء المحرك الرئيسي لهذه الثورة، كانتقام لسلطتهم المسلوبة، وضياع مكانتهم التي وصلوا إليها على عهد الأمير هشام الرضى، فألبوا الربضيين المتحمسين للثورة، وغالبيتهم من المولدين الشاعرين بالحرمان والاضطهاد، لكن الحكم وبكل هدوء ورباطة جأش استطاع خنق أصوات المعارضين في الحناجر وتخلص منهم بخدعة ذكية، حيث كلف قائدين لهم بالتسلل عبر الحشود إلى الربض، فأحرقوا الدور، وهو ما أربك الهائجين الذين اضطروا للعودة أدراجهم بعدما تملكهم الرعب على أهلهم وممتلكاتهم، فوجدوا أنفسهم محاصرين وقتل منهم خلق كثير،وقد خلفت هذه الثورة نتائج عدة إذ أدى القضاء عليها إلى توطيد الحكم للإمارة الأموية، لأنها أزالت قوة ونفوذ الفقهاء، وحررت الأمراء من وصايتهم وتدخلهم، أما على الصعيد الخارجي فتجلت آثارها في الدور الذي لعبه الربضيون الفارون في كل من فاس، الإسكندرية، قريطش(كريت). (ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص ص75-77. إبراهيم بيضون: الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة (92-466هـ/ 711-1031م)، دار النهضة العربية، ط3، بيروت، 1986، ص222. خليل إبراهيم السامرائي وعبد الواحد ذنون طه ومصلح ناصف مطلوب: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، بيروت، 2000، ص120.)

[1]- هو ابن لأحد مسالمة أهل الذمة، كان يقيم في مدينة ترثيا من إقليم رندة الواقع جنوب الأندلس، وتعد ثورته أخطر الثورات التي شهدتها الأندلس، نظرا للالتفاف الكثير حوله، حيث تحصن في مدينة ببشتر من كورة رية، وأطاعته أكبر المدن وسط الأندلس الواقعة بين رية والجزيرة الخضراء من جهة، وإلبيرة وأحواز قرطبة من جهة أخرى، فابن حفصون عزف على الوتر الحساس للمولدين فقد كان يخاطبهم قائلا: "طالما عنف عليكم السلطان، وانتزع أموالكم وحملكم فوق طاقتكم، وأذلتكم العرب واستعبدتكم، وإنما أريد أن أقوم أمركم وأخرجكم من عبوديتكم"، لكن اعتناقه للمسيحية جعل بعض أتباعه المسلمين يخرجون عليه، عمرت هذه الثورة زمنا طويلا خاضت السلطة خلاله حروبا سجالا مع المتمردين، إذ تفجرت على عهد الأمير مُحَمَّد بن عبد الرحمن سنة207هـ، واستمرت حتى خلافة عبد الرحمن الناصر، فرغم موت ابن حفصون سنة303هـ إلا أن الثورة استمرت مع أولاده من بعده: جعفر الذي قتل سنة308هـ، سليمان الذي قضى نحبه سنة314هـ، أما حفص فقد استسلم سنة315هـ لتنتهي ثورة عمرت ما يقارب48سنة. (ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص114.)

[2]- هي الجهد الذي بذلته فئات مختلفة من جماعات غير عربية بهدف زعزعة الكيان العربي الإسلامي وإضعافه وإرباكه، ولصد تيار الثقافة العربية الإسلامية ونسف التراث. (عبد الواحد ذنون طه: دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، المدار الإسلامي، ط1، بيروت، 2004 ص129.)

[3]- خالد حسن حمد الجبالي: الزواج المختلط بين المسلمين والإسبان من الفتح الإسلامي للأندلس وحتى سقوط الخلافة (92-422هـ) مكتبة الآداب، د.ط، القاهرة، د.ت، ص102.

للدلالة على التعظيم والتكبير مثل: حفصون، زيدون...وغيرها من الأسماء[1].

د- أهل الذمة:

الذميون هم غير المسلمين في المجتمع المسلم، والذمة تعني العهد والأمان، وقد سموا بذلك لأن لهم عهد الله ورسوله وجماعة المسلمين؛ بالعيش في حماية وكنف المجتمع الإسلامي آمنين مطمئنين، ولهم مقابل ذلك واجبات يؤدونها منها دفع الجزية، والالتزام بأحكام القانون الإسلامي في غير الشؤون الدينية وحقوق يتمتعون بها؛ يكفل المسلم بتأديتها لأنه ملزم بالوفاء بالعهد مصداقا لقوله تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا**﴾[2] فما بالك بعهد الله ورسوله، وتعد وثيقة العهد لنصارى نجران أول وثيقة بين المسلمين والذميين ومن تعاليمها تستمد كل أسس المعاملة.

وقد كانوا غالبية في المجتمع الأندلسي خلال سنوات الفتح الأولى، ثم بدأ عددهم يتناقص مع مرور الوقت بدخولهم الإسلام، فعرفوا بالأسالمة أو المسالمة، و انقسم الذميون في الأندلس إلى:

1-النصارى:

سماهم المسلمون أول الأمر عجم الأندلس، ثم بعد انتشار الإسلام واستتبابه لقبوهم النصارى المعاهدون، أما بنو ملتهم من نصارى الشمال فقد لقبوهم بالمستعربين Mozarabes، وشاع استعمال هذا اللفظ خلال القرن11م عندما نشطت حروب الاسترداد، كنعت تحقيري أرادوا به تمييزهم عن غيرهم من النصارى.

تمتع النصارى في حِمى الإسلام بقدر وافر من الحرية والتسامح، إذ احتفظوا بكنائسهم ومارسوا شعائرهم الدينية دون تضييق، بل صاروا ينتخبون القومس -وهو رئيسهم على مستوى كل مدينة- بعدما كانوا محرومين من هذا الحق خلال عهد القوط، بينما تحول مقر مطران الكنيسة من طليطلة إلى قرطبة ليكون قريبا من مركز السلطة خدمة للصالح العام، وإن ظل كرسي المطرانية في طليطلة مراعاة لمشاعرهم [3] وصار المطران يعين من طرف الأمير ليكون مسؤولا أمامه في كل ما يخصهم.

ولهم قاض خاص يعرف بقاضي العجم، يفصل في منازعاتهم وفق القانون القوطي، الذي كان في الغالب مجرد عقوبات كنسية، منها التوبيخ أمام الناس، دفع كفارة عالية للبيعة والمنع من دخولها أو التمتع بمباركتها عند الموت أو الدفن على الطريقة النصرانية[4]، أما إذا كانت الخصومة بين مسلم ومسيحي فترفع

[1]- خالد حسن: المرجع السابق، ص ص102-104.

[2]- سورة الإسراء الآية: 34.

[3] - حسين مؤنس: المرجع السابق، ص520-521.

[4]- آدم ميتز: الحضارة الإسلامية الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريد دار الكتاب العربي، ط5، بيروت، د.ت، مج1، ص94.

القضية للقاضي المسلم المعروف بقاضي الجند الذي صار يسمى قاضي الجماعة[1]، وإن أراد النصارى التقاضي أمام القاضي المسلم فلهم ذلك، مع أن هذا الأمر يثير استياء الكنيسة التي تفرض عليهم التوبة والتصدق كفارة على ما فعلوا[2].

2-اليهود:

عانوا من مرارة الظلم و الاضطهاد زمن القوط، إذ منعوا من ممارسة التجارة؛ وفُرض عليهم التنصير الإجباري، كما هُجروا و صودرت ممتلكاتهم، وقد بلغ التعنت القوطي حدّ اعتبار اليهود رقيقا للنصارى وفصل أبنائهم عنهم لتنشئتهم تنشئة مسيحية[3]، وهذا ما حفز اليهود أكثر على الوقوف إلى جانب المسلمين في فتح الأندلس -وإن كانوا قد فعلوا الشيء نفسه مع الإسبان المسيحيين في حروب الاسترداد فولاؤهم لمصالحهم فقط- إذ كانوا يدلونهم على ثلمات الأسوار ويساعدونهم في فتح أبواب المدن، ومقابل ذلك أوكلوهم عليها ووطنوهم فيها لحراستها، حتى اعتبرهم الإسبان العقل المدبر لدخول المسلمين الأندلس إذ استنجدوا بهم وساعدوهم على ذلك، ووجهت لهم التهمة أول مرة في المجمع الكنسي الذي عقد بطليطلة سنة 75هـ/ 894م؛ إبان عهد الملك القوطي إجيكا[4]، وإن كانت الوقائع تنفي ذلك لأسباب ودلائل عدة أوردها المؤرخ خالد يونس الخالدي في مقالته المنشورة بمجلة التراث العربي تحت عنوان: طلب اليهود من المسلمين فتح الأندلس: حقيقة أم ادعاء؟.. أهمها مايلي:

- سكوت المصادر العربية عن أمر بهذه الأهمية مع إهماله وعدم الإشارة إليه؛ دليل على عدم حدوثه.
- لو صح حدوثه لتفاخر به يهود الأندلس، بل مؤرخوهم أنفسهم ينفونه، ويرفضون هذا الاتهام.
- لم يُتم المسلمون فتح بلاد المغرب بعد سنة 75هـ/894م، كما أنّ الإسبان لم يحددوا بدقة الجهة التي تمّ الاتفاق معها، فهناك تضارب في هذا الشأن.
- المعاملة الحسنة التي عامل بها المسلمون اليهود لم تكن حكرا عليهم فقط، بل خُص بها النصارى كذلك، فهي نابعة من روح تسامح المسلمين مع أهل الذمة في كل الربوع التي فتحوها.
- إن فتح الأندلس مشروع إسلامي بحت غير مرتبط بتشجيع أي طرف، وما تعاون اليهود مع المسلمين إلا رغبة من اليهود في تحسين أوضاعهم المتردية والتخلص من حالة الضعف والاستعباد التي كانوا يعيشونها، كما أنها ذريعة واهية يتحجج بها الإسبان لتبرير فشلهم وهزيمتهم أمام جيوش أقل منهم عدة وعددا.

---

[1] - عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، المكتبة الإنجلو مصرية، ط2، مصر، 1986، ص130-131.

[2] - آدم ميتز: المرجع السابق، ص93.

[3] - حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص542-543

[4] - خالد يونس الخالدي: طلب اليهود من المسلمين فتح الأندلس حقيقة أم ادعاء؟..، مجلة التراث العربي اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد97، 2005، ص144.

تغيرت أوضاع اليهود تغيرا جذريا تحت حكم المسلمين، إذ صاروا -بصفتهم أهل ذمة- يتمتعون بقدر وافر من الحرية جعلهم فاعلين في كل مناحي الحياة حتى السياسية منها، إذ أصبح منهم الوزراء والسفراء وأهل الخدمة، ومارسوا التجارة التي فرضوا سيطرتهم عليها، ولعبوا دور الوساطة بين إسبانيا المسيحية والأندلس الإسلامية، كما أقاموا ثقافة يهودية أندلسية[1].

كما ربطتهم بالمسلمين صلات طيبة تسودها المودة، فاتخذوا الأسماء العربية، ولبسوا الأزياء العربية[2]، وتحدثوا العربية، لكن طبيعتهم المحافظة وتعصبهم لأصولهم وديانتهم جعلتهم يتمسكون بشدة بكينونتهم الشخصية وتميزهم، لذا عاشوا مثلهم مثل كل الأقليات في مختلف المجتمعات طوعا في أحياء خاصة بهم داخل المدن، وإن لم يمنع هذا اختلاطهم بالمسلمين في بعض الأحيان.

ومن بين أهم المدن التي تجمعوا فيها وسكنوها نجد: غرناطة التي تلقب بغرناطة اليهود، قرطبة[3] طليطلة، إشبيلية، سرقسطة[4]، ألبيرة، مالقة[5]، طرقونة[6] التي يسميها الإدريسي مدينة اليهود لعددهم المعتبر فيها[7].

يرأسهم في الأندلس كلها "الناجذ" أي الحاخام[8]، الذي يتولى شؤونهم ويشرف عليها.

هـ- الصقالبة:

هم شعوب هندوأوربية استوطنوا القسم الشرقي والأوسط من أوربا، يصفهم ابن منظور قائلا: "هم جيل حمر الألوان، صهب الشعور، يتاخمون الخزر وبعض جبال الروم"[9]، ونظرا لضعفهم وتدني مستواهم الحضاري، إضافة إلى جنوحهم للسلم فقد كانوا عرضة للسبي عبر الزمن حتى صار "نصف بلدهم بالطول يسبيه الخراسانيون...والنصف الشمالي يسبيه الأندلسيون من جهة جليقة وإفرنجة وانكبردة وقلورية، وبهذه

---

[1]- بيير غيشار: التاريخ الاجتماعي لإسبانيا الإسلامية من الفتح إلى نهاية حكم الموحدين (من بداية القرن الثامن إلى بداية القرن الثالث عشر) (دراسة شاملة)، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 1998، ج2، ص970.

[2]- عبادة كحيلة: العقد الثمين في تاريخ المسلمين، ص347.

[3]- من أعظم المدن الأندلسية، وهي عاصمة المسلمين وسرير ملكهم، تمتاز بحصانتها وعمارتها، وكثرة علمائها. (ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج4، ص325.)

[4]- بلدة مشهورة في الأندلس، تشتهر بفواكهها وفراء السمور والملح الدّرآني الذي لا يوجد بغيرها.(المصدر نفسه، ج3، 213.)

[5]- حسين يوسف دويدار: المجتمع الأندلسي في العصر الأموي (138-422هـ/755-1030م)، مطبعة الحسين الإسلامية، ط1، القاهرة 1994، ص49.

[6]- مدينة قديمة على شاطئ البحر، بين طرطوشة وبرشلونة. (ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج4، ص32.)

[7]- أبو عبد الله الشريف الإدريسي: القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ديوان المطبوعات الجامعية، د.ط، الجزائر، 1983، ص279.

[8]- عبادة كحيلة: المرجع السابق، ص346.

[9]- ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير ومحمد احمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، د.ط، القاهرة د.ت، مج5، ص2474.

الديار من سبيهم الكثير باق على حاله "[1]

وفي الأندلس أُطلق هذا الاسم على الرقيق المجلوب من البلاد السلافية وشمال إسبانيا، ثم انسحب الاسم على كل الأجناس، فكلمة Slave في أوربا مرادفة للعبيد أيًا كان جنسهم.

تحكم اليهود في هذه التجارة وهيمنوا عليها كما فعلوا في غيرها، وقد كانوا يقومون بإخصائهم في مدينة فردان Verdun الفرنسية خاصة، ثم ينقلونهم منها إلى أسواق الأندلس فبقية البلدان، قال ابن حوقل: "وجميع من على وجه الأرض من الخصيان من جلب الأندلس"[2]، والمراد هنا الخصيان الصقالبة تحديدا لأن عملية الإخصاء مُورست في حق أجناس مختلفة من العبيد، و في نواحي كثيرة كمصر مثلا.

كانت هذه العملية تودي بحياة الكثيرين نظرا لخطورتها، لذا فإن الناجين منهم بيعوا بما يبلغ عشرين ضعفا من ثمن شرائهم[3].

كان يؤتى بالصقالبة أطفالا لتتم تنشئتهم تنشئة خاصة في قصور الحكام، فيتعلمون مبادئ الإسلام واللغة العربية ويتلقون تربية تثقيفية، كما يدربون على الفروسية.[4] لينخرطوا إما في خدمة القصور أو سلك الجندية، إذ اعتمد عليهم الأمويون في الجيش والحكومة؛ كسرا لشوكة العرب والبربر، وإضعافا لسيطرتهم على الجيش.

بدأ اصطناعهم منذ زمن الحكم الربضي ليتضاعف عددهم بشكل لافت في عهد الناصر[5]، ولما جاء المنصور بن أبي عامر أبعد الموالي المقربين من الأمويين، وكون طائفة جديدة منهم عرفت بالفتيان العامرية[6].

ومع أن نسبتهم إلى السكان ضئيلة وعددهم قليل إلا أن نفوذهم كان كبيرا جدا، نظرا لقربهم من الخلفاء الذين بوؤوهم مكانة مرموقة جعلت منهم قوة ضاربة محركة للأحداث السياسية، بل وموجهة لها بما يخدم مصالحهم، كما شاركوا بفعالية في الحياة الأدبية والثقافية للأندلس، وأثروا في حياتها الاجتماعية أيضا خاصة وأنهم تواجدوا بشكل لافت في بيوتات الميسورين والطبقة الوسطى.

[1]- أبو القاسم بن حوقل: صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، د.ط، بيروت، 1992، ص106.

[2] - ابن حوقل: المصدر السابق، ص78.

[3]- آدم ميتز: المرجع السابق، ص158.

[4]- خميسي بولعراس: الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس في عهد ملوك الطوائف (400-479هـ/1009-1086م)، مذكرة مقدمة لنيل رسالة الماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2006-2007م، ص49.

[5]- أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د.ط، بيروت، د.ت، ص199.

[6]- عصمت عبد اللطيف دندش: المرجع السابق، ص259.

2- البناء الطبقــي:

الإسلام دين يحث على المساواة ويحارب كل صور الميز، فلا تفاضل بين الناس إلا بالتقوى، دون أي اعتبار للاختلاف في العرق أو اللون...فالله سبحانه وتعالى قال: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلقناَكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير**﴾[1]، وقال رسول الله ﷺ «**أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلا لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلا بِالتَّقْوَى**» رواه الإمام أحمد.

و الطبقية التي عرفها المجتمع الإسلامي كانت دخيلة عليه، لم تظهر إلا بعدما ابتعد عن نمط الحياة الإسلامي الذي كان سائدا في الزمن الأول، و زادها تكسر عُرى النظام القبلي، ومع ذلك لم تكن فيها حواجز فاصلة، فقد كان بإمكان أفقر الناس شقّ طريقه صاعدا في المجتمع عن طريق العلم والفضيلة، فلا تمايز من حيث الإنسانية[2]، وقد تخسف الأيام بالشخص فترديه من قمة المجد إلى الدرك الأسفل.

لذا لا يمكن بأي شكل من الأشكال مقارنة الطبقية السائدة في العهد القوطي أو قبله بالطبقية التي عرفتها الأندلس الإسلامية، فنبلاء القوط كانوا يترفعون عن عامة الشعب ولا يخالطونهم، و لهم محاكمهم الخاصة التي يتقاضون أمامها، بينما نجد أقنان الأرض يباعون معها، ويعاملهم الإقطاعيون كبهائم؛ فاقدين للحرية و الإرادة، و هذه الصورة بعيدة كل البعد عما عُرف في العهد الإسلامي، فاختلاف الناس عن بعضهم وتفاوت حظوظهم أدى إلى نوع من التصنيف الاقتصادي والفكري، قُسم على إثره المجتمع الأندلسي -بعد اكتمال نضوجه- إلى طبقات تراتبية غير متحاجزة،كالتالي:

1- طبقة الأعيان: تضم عناصر مجتمع الخاصة، من أمراء وخلفاء، وقادة الجند ورجال الدولة من حجاب ووزراء وكتاب وولاة وفقهاء، وأفراد الأسر العريقة المرتبطة بالسلطة[3]؛ كبني أمية، وبني عامر، وبني جهور، وبني رزين، وبني شُهيد...وغيرهم.

امتازت حياتهم بالترف والرفاهية، فبعضهم ملك قرى بأكملها، بكل ما تحتويه من أراضيها معمورها وبورها وما فيها من شجر وزرع وثمر، ودور، إلى أقصى أحوازها[4]، وفي هذه الأراضي الشاسعة كانت تبنى المنيات المتخذة للراحة والاستجمام، فهي بعيدة عن المدن تحيط بها البساتين الواسعة، تبعث أجواؤها على الراحة النفسية، وساهم بذخ هذه الطبقة في ثبات أوضاعها الاجتماعية، فهي أقل تأثرا بالأزمات الاقتصادية

---

[1]- سورة الحجرات الآية: 13.

[2]- حسين مؤنس: عالم الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، د.ط، القاهرة، د.ت، ص192.

[3]- إبراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، د.ط، بيروت، د.ت، ص131.

[4]- يحي أبو المعاطي مُحَمَّد عباسي: الملكيات الزراعية وآثارها في المغرب والأندلس (238-488هـ/852-1095م) دراسة تاريخية مقارنة رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، كلية دار العلوم قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، القاهرة، 2000، ص 25.

وأقدر على الصمود في وجهها، نظرا لإمكانياتها الاقتصادية خلافا لطبقة العامة[1].

يندرج ضمنها أيضا:

أ- الأمراء: تلقب الأمويون أول الأمر بأبناء الخلائف ثم اتخذوا لقب الخلافة ابتداء من عبد الرحمن الناصر سنة 316هـ/929م، امتازت حياتهم بالترف والرفاهية، وتجلى ذلك في تفاصيل حياتهم اليومية، من ملكياتهم الواسعة، وقصورهم التي تحاكي الخيال، وملابسهم، وطعامهم...وما إلى ذلك من دلالات البذخ والغنى، فالأمير وعائلته وأقرباؤه المروانيون من أكبر الملاك العقاريين، تكونت ملكياتهم إما عن طريق الحيازة أو المصادرة أو الوراثة أو الشراء أو الاستيلاء على أملاك الدولة، وتسمى هذه الأراضي الأميرية بالمستخلصات، ونظرا لشساعتها فقد تطلبت إدارتها استحداث وظيفة "صاحب الضياع"، منها ما استُأجِر للمزارعين مقابل نصيب من المحصول، ومنها ما أقطع للمخلصين للعرش الأموي والأقرباء الوافدين من الشرق[2]، فزرياب عندما ولج الأندلس زمن عبد الرحمن الأوسط أقطعه "من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يُقوَّم بأربعين ألف دينار"[3]، وقس على ذلك مع غيره، خاصة وأن الأندلس كانت تفتح ذراعيها للقادمين من المشرق بحفاوة وترحاب.

ومما يدل على ثراء هذه الفئة الهبات والهدايا التي كانوا يفيضونها على الموالين لهم، كتلك التي قدّمها الحكم المستنصر لجعفر بن علي المعروف بالأندلسي وأخيه يحيى، إذ وفد هذا الأخير أولا مع بني خزر، فجاءه مبعوثًا الخليفة ومعهم "ثمانية وستون فرسا لركوبهم، على بعضها اللُّجمُ المفرغة، والسروج المعرقة، ومن البغال الزوامل لتحمل أثقالهم مائة وخمسون بغلا، ومن الأبنية لاكتنانهم أربعة...من أدم من خمسين بنيقة بجميع فرشها وآلاتها، وثلاث قباب من كتان وأربعون خباء من كتان من أخبية العبيد، وعشرون خباء من ضُرَبٍ من أخبية الطنجيين...وأوقار من ضروب الوطاء والغطاء والأبنية المستعملة بذلك لخدمتهم واكتمال تكريمهم"[4]، وبنفس الكرم اسُتقبل جعفر؛ إذ تلقاه رسول الخليفة "ومعه أربعة من عتاق الخيل وبغل أشهب منتقاة من دواب الركاب بسروج الخلافة ولجمها هبة لجعفر، وخمسون فرسا من جياد خيل الجند بسروجها ولجمها حملانا لفرسانه، ومائتا زاملة لاحتمال أثقاله، ومن المظال الجليلة والأبنية الفسيحة وما دونها من القباب المتوسطة والأخبية كالأعداد المخرجة لأخيه يحيى ومن معه من بني خزر...وأخرج معه عدة أحمال

---

[1]- صباح خابط سعيد الحميداوي: الأحوال الاجتماعية والاقتصادية لأعيان الأندلس في عهدي الإمارة والخلافة (138-422هـ/755-1030م)، مذكرة لنيل درجة الدكتوراه فلسفة في التاريخ الإسلامي، جامعة بغداد، بغداد، 2007، ص54.

[2]- إبراهيم القادري بوتشيش: أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي من منتصف القرن 3هـ حتى ظهور الخلافة (250هـ- 316هـ) دار عكاظ، د.ط، الرباط، ط.ت، ص81-82.

[3]- المقري: المصدر السابق، ج4، ص125.

[4]- أبو مروان حيان بن خلف بن حيان: المقتبس في أخبار بلد الأندلس، شرحه: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، ط1، بيروت، 2006، ص27.

من الوطاء النفيس والغطاء السريّ وأنواع الأمتعة وما شاكل ذلك"[1]، كما خصوا باستقبال حاشد في قرطبة، وأجرى الخليفة "ألف دينار دراهم على كل واحد منهما للشهر، ومن القمح لنفقاتهما لكل شهر لكل واحد منهما سبعون مُدًّا...وأجرى أيضا على بني خزر من الدنانير والقمح والعلوفة ما يفيض ولا يغيض، ثم تضاعفت على الجماعة الجرايات وترددت الصلات."[2]

وفي السياق نفسه تدخل الهدايا والهبات التي أتحفوا بها جواريهم، فعبد الرحمن الأوسط عندما غضبت منه محضيته طروب وامتنعت عليه استعطف وصلها بإغلاق الباب عليها بالخرائط المملوءة بالدراهم، فلما فتحت الباب تساقطت من كل جانب، فأخذتها وكان فيها نحوا من عشرين ألفا، وأمر لها بعقد قيمته عشرة ألاف دينار، الأكثر من ذلك أنه أمر لشاعر أجاد توصيف الحادثة بخمسمائة دينار[3].

ووهب الناصر في يوم فصده لمرجانة أم وليِّ عهده الحكم ما ينيف عن ثلاثين ألف دينار، لأنه استظرف وسُرّ بتلقينها لطائر شعرا ردده على مسمعه:

أيها الفاصد رفقا بأمير المؤمنينا إنما تفصد عرقا فيه محيا العالمين[4]

وتبين مساكنهم كذلك مستوى الرفاهية التي عاشوا فيها، فقصورهم تجمع بين جنباتها تفاصيل الجمال الأخاذ، وتبرز فيها روعة العمارة وسحرها، مثال ذلك قصور المدينة الملكية الزهراء، التي اختطها الخليفة عبد الرحمن الناصر، وقد انطلق في تشييدها سنة 325هـ ومكث خمسا وعشرين سنة في بنائها حتى اكتملت، لتكون آية في الجمال يعجز الوصف عن إدراك محاسنها، وكان فيها من السواري أربعة ألاف وثلاثمائة وثلاث عشرة سارية، جلب من إفريقية ألفا وثلاث عشرة سارية، وأهداه ملك الروم مائة وأربعين سارية، وباقي ذلك من رخام الأندلس، وكان الناصر يصل أمناء البناء على كل رخامة بثلاثة دنانير، وعلى كل سارية بثمانية دنانير سجلماسية[5]، من قصورها: قصر المؤنس، قصر الخلافة، قصر الزهراء، وكانت أسقف هذه القصور من القراميد المذهبة، وعمدها من الرخام والمرمر، وجدرانها مكسوة بلوحات الرخام المذهبة و الفسيفساء.[6]

ومن أعاجيبها مجلس"القلبق"، الذي قال فيه الزهري: "كان سَمْكه من الذهب والزجاج الغليظ الصافي وحيطانه مثل ذلك، وكانت له قراميد من الذهب والفضة، وفي وسطه صهريج مملوء بالزئبق، وفي كل جانب

[1]- ابن حيان:المقتبس...القسم الخاص بالمستنصر، ص28.

[2]- المصدر نفسه، ص36.

[3]- ابن عذارى، المصدر السابق، ج2، ص92-93.

[4]- المقري: المصدر السابق، ج1، ص346-347.

[5]- ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص231.

[6]- السيد عبد العزيز سالم: المساجد والقصور في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، الإسكندرية، 1986 ص54.

من المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت من أقواس من العاج والأبنوس على سَوارٍ من الزجاج الملون، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها في سمك المجلس وحيطانه، فيصير من ذلك نور يتلألأ يأخذ الأبصار."[1]

وقد ضمّ قصرها أربعمائة دار لسكنى السلطان وحاشيته وأهل بيته، وكانت جراية الصقالبة من اللحم كل يوم ستة ألاف وثمانمائة رطل سوى الصيد وأصناف الطيور والحوت، أما الحيتان الذهبية في بحيرة الزهراء فكان لها في كل يوم إثناعشر ألف خبزة وينقع لها مع الخبز ستة أقفزة من الحمص الأسود.[2]

اجتلب الخليفة إليها العامة بالرغبة، إذ أمر مناديه أن ينادى في كل أرجاء الأندلس: "ألا من أراد أن يبتني دارا أو أن يتخذ مسكنا بجوار السلطان فله من المعونة أربع مائة درهم"، فتكاثفت الأبنية حتى كادت تتصل بين الزهراء وقرطبة.[3]

واستحقت بهذا أن تكون مفخرة قرطبة، إذ قال الشاعر الأندلسي أبو مُحَمَّد بن عطية:

بأربع فاقت الأمصار قرطبة   منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان اثنتان والزهراء ثالثة   والعلم أكبر شيء وهو رابعها

إضافة إلى قصور الحُكم هاته والتي تسمى دور الإمارة، شيد الأمراء والخلفاء قصورا للهو والراحة بعيدة عن الحاضرة، تشبه المدن الصغيرة، فيها قصور الأمير وأفراد حاشيته وخاصته، ومنتزهات ومسارح للطيور ومحال للوحوش، ليتمكنوا من الاستغراق في حياة الترف واللهو[4]، عُرفت بالمنيات، منها: الرصافة، منية الناعور وغيرها.

إلى جانب هذا الجاه والثروة امتازوا بسعة الاطلاع والثقافة، وكرم الطباع ونبلها، مع تحكم في ناصية اللغة، فكثير منهم نظم الشعر وفق ما جاء في كتب التاريخ والسير، وكانت لهم مجالس علم تشهد على إبحارهم في فروعه، فمكتبة الحكم المستنصر الأضخم في ذلك الوقت تعطي نموذجا على الولع بالمعرفة والشغف بالعلم وإدراك أهميته، مما جعلهم محجا للشعراء يمدحونهم تزلفا ورغبة في نيل العطايا.

ب– رجال الدولة: هم أرباب الوظائف وأهل الخدمة، نظرا لقربهم من السلطان وتعلق مصالحهم به نالوا مرتبة أهلتهم للارتقاء في السلم الاجتماعي، فقد حازوا الضياع والإقطاعات الواسعة، كما سكنوا القصور والمنيات على ديدن ملوكهم، فالمنصور بن أبي عامر –الحاجب بصلاحيات خليفة– اختط بقرطبة سنة

[1]– أبو عبد الله مُحَمَّد بن أبي بكر الزهري: كتاب الجغرافية وما ذكرته الحكماء فيها من العمارة وما في كل جزء من الغرائب والعجائب تحتوي على الأقاليم السبعة وما في الأرض من الأميال والفراسخ، تحقيق: مُحَمَّد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، د.ط، مصر، د.ت، ص87.

[2]– مؤلف مجهول: ذكر بلاد الأندلس، تحقيق: لويس مولينا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية معهد ميغيل أسين، د.ط، مدريد، 1983، ج1، ص34.

[3]– ابن حوقل: المصدر السابق، ص107.

[4]– السيد عبد العزيز سالم: المساجد والقصور في الأندلس، ص51.

368هـ مدينة في عظم الزهراء سماها الزاهرة، "أبرزها بالذهب واللازورد...وسربلها بهاء يردُّ العيون كليلة...وفي سنة 370هـ انتقل المنصور إليها ونزلها بخاصته وعامته...ثمّ أقطع وزراءه وكتابه، وقواده وحجابه؛ القطائع فابتنوا بأكنافها كبار الدور، وجليلات القصور، واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة والمنازه المشيدة."[1]

تغنى الشعراء بروعتها، ومما قاله صاعد اللغوي فيها:

تحفها من فنون الأيك زاهرة قد أورقت فضة إذ أورقت ذهبا
بديعة الملك ماينفك ناظرها يتلو على السمع منها آية عجبا
لا يحسن الدهر أن ينشئ لها مثلا ولو تعنت فيها نفسه طلبا

وهناك أسر توارثت المناصب لتزداد جاها إلى جاهها مثل: بني شُهيد، بني زهر، وبني جهور الذين قرنوا نشاطهم الإداري بالتجارة فأصبحوا من أعظم البيوتات الأندلسية مالا وثروة.

وتدل الرواتب والعطايا التي كان ينالها هؤلاء على ترفهم، فعبد الرحمن الأوسط كان له تسعة وزراء راتب الواحد منهم ثلاثمائة دينار[2]، ولعل هدية ابن شُهيد للخليفة الناصر أكبر دليل على حجم ثراء هذه الفئة[3].

ج- الفقهاء: احتل الفقهاء مكانة مرموقة في المجتمع الأندلسي نظرا لكونهم حفظة الدين وحملة الشريعة، لذا أعلى العامة من قدرهم، وهو ما فرض على السلطة إجلالهم مما سمح لهم بالتحول إلى قوة مؤثرة، خاصة وأنهم مصدر حصول الحاكم على الشرعية، التي كانت الدولة الأموية في الأندلس في أمس الحاجة إليها نظرا لكونها في الأصل خارجة عن الخلافة الإسلامية العامة وهي الخلافة العباسية في المشرق، مما يجعلها مهددة من أي منافس يحصل على تأييد تلك الخلافة، إضافة إلى أن بلد مثل اسبانيا ارتبط فيه مفهوم الحاكم الدنيوي بالقداسة الدينية على مرّ العصور[4]، فالأندلسيون عموما يستأنسون للحاكم الذي تتجلى مظاهر التدين في خُلقه، ولا أدل على ذلك من تفضيلهم لهشام الرضى التقي الورع كما تصفه المصادر على أخيه سليمان البلنسي.

لذا أطاعوا غالبا الفقهاء وامتثلوا أوامر القضاة، وتعُج كتب التاريخ بالنماذج التي تؤكد ذلك، فهشام الرضى قال عن قاضيه المصعب بن عمران: "...والله لو سجل علي القاضي في مقعدي هذا لخرجت عنه**!**"[5]

وكان الحكام يرون ذلك خيرا لهم، لأن الفقهاء دعامة لاستتباب ملكهم، لذا أحاطوا أنفسهم بسياج منهم

[1]- أبي عبد الله محمّد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري: صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: ليفي بروفنسال، دار الجيل، ط2، بيروت، 1988، ص82.

[2]- ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص80.

[3]- ينظر: المقري: المصدر السابق، ج1، ص ص343-346.

[4]- حسين مؤنس: شيوخ العصر في الأندلس، عربية للطباعة والنشر، د.ط، القاهرة، د.ت، ص16-17.

[5]- ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص66.

فيما يسمى بالفقهاء المشاورين[1]، لإعطاء صبغة دينية لحكمهم يتقربون بها من العامة، ويكسبون بها رضى الفقهاء، ويستميلونهم إلى جانبهم، خاصة وأن للفقهاء أكثر من محاولة للانقلاب على السلطة الحاكمة في الأندلس مثل ما سبق شرحه.

كما أن لهم سلاحا يعمل له الحكام ألف حساب؛ وهو الاتهام بالفساد والخروج عن الدين والكفر والإلحاد[2]، أشهروه في وجه الحكم الربضي الذي أنكروا عليه أمورا كثيرة، منها شرب الخمر، والانهماك في اللذات، وفرض ضرائب غير شرعية...وغيرها، فأوغروا صدر العامة عليه إذ "أحدث الفقهاء إنشاد أشعار الزهد والحض على قيام الليل في...المساجد وأمروا أن يخلطوا مع ذلك شيئا من التعريض به مثل أن يقولوا يا أيها المسرف المتمادي في طغيانه المصرّ على كبره المتهاون بأمر ربّه أفق من سكرتك وتنبه من غفلتك وما نحا هذا النحو"[3]

وقد بلغ من استخفاف أهل الربض به أنهم "كانوا ينادونه ليلا من أعلى صوامعهم: الصلاة الصلاة يامخمور."[4]وشافهه بعضهم بالقول وصفقوا عليه بالأكف[5]، إلى أن شبّ لهيب ثورة الربض بتحريض من الفقهاء، لذلك تحاشى الحكام الاصطدام بهم، بل وقدروهم حق قدرهم.

إضافة للوظائف الدينية من الصلاة والخطبة، القضاء، وخطة الرد...وما شاكلها، تقلد عدد من الفقهاء مناصب إدارية مثل: الشرطة، أمانة الكور، ولاية السوق، قيادة الجيش وحتى الوزارة، وإن كان هذا المنصب في الغالب فخري من باب التكريم.

نالوا بها جاها وثروة أكسبتهم مكانة اجتماعية مكللة بالنفوذ والسلطة، فعظم أمرهم، وكثرت أموالهم واتسعت مكاسبهم، مما صرف وجوه الناس إليهم ملتمسين شفاعتهم ووساطتهم، قاصدين أبوابهم لقضاء الحاجات[6]، كما قصدهم الشعراء مادحين طامعين في عطائهم.

بيد أن فقهاء البلاط -كما يسميهم حسين مؤنس- فقدوا قيمتهم وهيبتهم، وسقطوا من عيون الشعب عندما تخلوا عن وقارهم رغبة في المنفعة، وطمعا في سلطة ترفعهم عن غيرهم، ليصل الأمر إلى درجة حبك المآمرات للإيقاع ببعضهم البعض، مثلما فعل يحي بن يحي الليثي الذي دلس الشهادة مع غيره ضد القاضي يحي بن معمر ورفعها للأمير عبد الرحمن الأوسط الذي أمر بعزله، لا لشيء فقط لأنه كان "قليل

---

[1]- خليل إبراهيم الكبيسي: دور الفقهاء في الحياة السياسية والاجتماعية بالأندلس في عهد الإمارة والخلافة، دار البشائر الإسلامية، ط1، بيروت 2001، ص 60.

[2]- عصمت عبد اللطيف دندش: المرجع السابق، ص273.

[3]- عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص13.

[4]- ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، ط4، القاهرة، 2009، ج1، ص43.

[5]- أبو الحسن علي بن أبي الكرم بن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، ط4، بيروت، 1983، ج5، ص 414.

[6]- عصمت عبد اللطيف دندش: المرجع السابق، ص273.

المداراة لفقهاء قرطبة، لا يلين لهم فيما يريدون، ولا يصغي إليهم فيما يحبون"[1]، والأمر ذاته حصل للقاضي يخامر بن عثمان، الذي قال للفتى الذي أتاه من الأمير يحمل خبر عزله: قل للأمير -أصلحه الله- إذ وليتني أمرتني أن أتحفظ من السلسلة السوء واليوم تعزلني ببغيها علي"[2]، والمراد بسلسلة السوء الفقهاء الذين تعاظم نفوذهم حتى صاروا مصدر قلق للأمير عبد الرحمن الأوسط.

مما جعلهم مثار سخرية وانتقاد العامة، فهذا الشاعر يحي الغزال يقول في الفقيه يخامر بن عثمان:

فسبحان من أعطاك بطشا وقوة وسبحان من ولى القضاء يخامر[3]

وقال فيه آخر:

قفـاك قفـا حربـا ووجـهـك مظلـم وعقلك ما يسوى من العبر درهما

فلا عشت مودودا ولا عشت سالما ولا مت مفقودا ولا مت مسلما[4]

ومن أمثال العامة في هذا المضمار قولهم:" ثمَّ أسرع من البرق؟ يد فقي إذا أقلُّ خذ."[5]

لم يحظ كل فقهاء الأندلس بنفس المرتبة و الثراء، لأن منهم من رفض الانزواء تحت لواء السلطة فهناك من رأى أن التقرب إليها مساس بدينه، قال أبو القاسم الشاطبي:

قل للأمير مقالـة من ناصح فطن نبيه

إن الفقيه إذا أتى أبوابكم لا خير فيه

لذا رفض بعضهم تولي منصب القضاء "رهبة من مكروه الآجلة، وحذرا من الله فيما قد يكون منهم وعلى أيديهم"[6] ومنهم من حافظ على سمته وهيبته مع توليه لهذا المنصب، مترفعا بنفسه عن المصلحة المادية فالقاضي الأسوار بن عقبة النصري كان يحمل خبزه بنفسه إلى الفرن، ويتصرف في مهنة أهله[7]، ونفس الشيء كان يفعله القاضي سعيد بن سليمان[8]، أما القاضي إبراهيم بن العباس فكان يجلس للقضاء في بيته وخادمه تنسج في ناحية منه[9]، عندما عزل القاضي يحي بن معمر أرسل له صديقه الوزير ابنه بالزوامل

[1] - مُحَّد بن حارث الخشني: أخبار الفقهاء والمحدثين، تحقيق: ماريا لويسا أبيلا ولويس مولينا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية معهد التعاون مع العالم العربي، د.ط، مدريد، 1991، ص107.

[2] - المصدر نفسه، ص324.

[3] - نفسه، ص521.

[4] - نفسه، ص522.

[5] - أبي يحي عبيد الله بن أحمد الزجالي: أمثال العوام في الأندلس، تحقيق: مُحَّد بن شريفة، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، د.ط، لمغرب، د.ت، القسم2، ص170.

[6] - الخشني: المصدر السابق، ص26.

[7] - المصدر نفسه، ص110.

[8] - الخشني: المصدر السابق، ص140.

[9] - المصدر نفسه، ص120.

لحمل ثَقلته، التي لم تكن إلا حصيرا وخابية دقيق، وقلة ماء وقدح، وسرير كان يرقد عليه، فوزع الدقيق على الفقراء، وباع بقية المتاع[1].

تتضح من خلال هذه النماذج وغيرها أن من الفقهاء من ارتقوا إلى مصاف الأعيان بعلمهم ومكانتهم في القلوب، والاحترام الذي تكنه لهم النفوس؛ وليس بالثروة، لأن العلم كان مطية للارتقاء إلى أعلى المراتب، خاصة في بيئة أندلسية تدرك جيدا أهميته وتوليه العناية والتبجيل.

د- قادة الجند: جعل موقع الأندلس النائي عن العالم الإسلامي والمتاخم لحدود النصارى الأخطار تحيط بها من كل حدب وصوب، إضافة إلى المنافسة بينها وبين غيرها من الدول الإسلامية، ففرض عليها هذا الوضع الاهتمام الدائم بالجيش لحفظ كينونتها وديمومة استمراريتها، وقمع الثورات المندلعة في أطرافها، وقد أحدث المنصور تعديلا في نظام الجيش، فبعدما كان يتكون من نظامين هما:

- نظام عسكري دائم منظم، ينزل قرطبة، ويتقاضى أفراده عطاء ثابتا.
- نظام إقطاعي عسكري تمثله القبائل العربية والأمازيغية، قائم على الخدمة العسكرية مقابل الحصول على الأرض.

صار كله وحدة نظاميه متماسكة خاضعة لقيادته، يتكون من فرق متعددة، تتألف كل واحدة منها من العرب والبربر والصقالبة، وكل جندي يتقاضى مرتبا شهريا من الدولة حسب رتبته[2].

وبما أن الجيش عصب الدولة ودرعها الحامي، فقد أولاه الأمراء والخلفاء عناية كبيرة، سمحت لقادته باحتلال مكانة رفيعة في المجتمع، إذ شكلوا إحدى شرائح الأرستقراطية الإقطاعية التي تسنمت الهرم الاجتماعي[3] بما ملكوه من نفوذ وإمكانيات مادية ضخمة، نظرا للثروات التي جمعت بين أيديهم والإقطاعات الواسعة التي امتلكوها، فهاشم بن عبد العزيز الذي جمع في زمن الأمير مُحَّد بين القيادة والوزارة في آن واحد، حاز إقطاعات شاسعة جعلته يهيمن على شؤون السياسة هو وأبناؤه، وعند وقوعه في أسر النصارى كلف الأمير أحد موظفيه بالسهر عليها[4].

وقد تمكن بعض المستقرين منهم في الثغور من الاستقلال عن الدولة في المركز قرطبة، بما حازوه من سطوة وثروة، كما استأثرت عائلات بأكملها بأمور الحرب وجعلتها حكرا على أبنائها، لتتوارث الجاه والسلطة أبا عن جد، كأسرة بني الخطاب في مرسية، التي عرفت بثرائها العريض العائد إلى توارثهم أملاك جدهم من أمهم تدمير، زيادة على الإقطاعات التي أصابوها في إقليم تدمير على يد أبو الخطار بصفتهم جندا شاميين في جملة جيش بلج، وظلوا يحتفظون بثرائهم الفاحش وأملاكهم العريضة ونفوذهم الواسع

---

[1]- الخشني: المصدر السابق، ص109.

[2]- أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص243.

[3]- إبراهيم القادري بوتشيش: أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي...، ص138.

[4]- المرجع نفسه، ص91، 137.

بمرسية على مدار ستة قرون متصلة[1]، ومن مظاهر هذا الثراء ما توروده المصادر عن أحمد بن عبد الرحمن الخازن أحد أبناء هذه الأسرة، الذي استضاف المنصور بن أبي عامر عند وصوله مرسية مع جميع عسكره أياما، كان يجدد لهم في كل يوم أصناف الطعام، فلا يقدم طعاما أو فاكهة تشاكل مامضى من الأيام، "وصنع له فيما صنع حماما كان ماء الحمام من ماء الورد الطيب الغاية. وأهدى له قناطر من الفضة الخالصة."[2]

ويصف ابن الآبار أبو مُحَّد بن هذيل بن خلف بن لب بن رزين قائلا:"صاحب السهلة موسطة بين الثغر الأعلى والأدنى لقرطبة، كان من أكابر برابر الثغر ورث ذلك عن سلفه."[3] وهو يعطينا بهذا صورة عن أسرة بني رزين ومكانتها.

وإذا تتبعنا المصادر فسنستقي منها النماذج المتعددة التي يضيق المجال عن إيرادها، لكنها تتفق على البذخ والثراء والمقام الرفيع الذي تمتع به قادة الجيش وبنوهم من بعدهم، لتتشكل في الأذهان صورة تقريبية عن مقامهم الرفيع، وثقلهم الاجتماعي.

هـ– التجار: يُعَرف ابن خلدون التجارة بأنها:"محاولة الكسب بتنمية المال، بشراء السلع بالرخص، وبيعها بالغلاء، أيًّا ما كانت السلعة...وذلك القدر النامي يسمى ربحا"[4] ونظرا لأن الأندلس كانت المعبر الرئيسي لسلع الشرق نحو الغرب، خاصة من المغرب والسودان الغربي، فإن طبقة التجار تكدست لديها الثروة بسبب أرباحها الطائلة، وصارت ذات قوة ونفوذ، يلجأ إليها الأمراء كلما أرادوا المال، أو فرض ضريبة وهو ما أكسبها تأثيرا سياسيا كبيرا، إذ صارت تشكل عامل ضغط عند اتخاذ القرارات، حتى أنهم سمُوا بالوجهاء والكبراء وأهل المدينة[5].

وقد كان للتجارة رواج في الأندلس، نظرا لتنوع السلع وجودتها، ولا أدل على ذلك مما تضمنته كتب الرحلة والجغرافيا، إذ تشير لاتساع الأسواق ونشاطها، كما شهدت التجارة الخارجية هي الأخرى نشاطا لافتا، فمن قرطبة كان يخرج القطن إلى كل البقاع، والتين من جيّان ومالقة ومن اشبيلية يُصَدر الزيت.

واحتلت نساء هذه الطبقة مكانة مرموقة في المجتمع، فهُن مثقفات، متفرغات من الالتزامات اليومية غير مضطرات للقيام بأي عمل داخل البيت أو خارجه، فالجواري كفَينَاهُن مشقته، وحتى تربية الأطفال

---

[1]– سحر السيد عبد العزيز سالم: بنو الخطاب بن عبد الجبار التدميري أسرة من المولدين بمرسية في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، الإسكندرية، 1989، ص ص35-38.

[2]– أحمد بن عمر بن أنس العذري: نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق: عبد العزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، د.ط، مدريد، د.ت، ص15.

[3]– أبو عبد الله مُحَّد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبَّار: كتاب الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1985، ج2، ص102.

[4]– عبد الرحمن بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، دار الكتب العلمية، د.ط، بيروت، د.ت، ص310.

[5]– شاكر مصطفى: الأندلس في التاريخ، دار إشبيلية، د.ط، سوريا، 1990، ص68.

توكل للحاضنات، فإن لم تكن متزوجة فما عليها إلا انتظار الزوج، وإذا تزوجت فهمها افتكاك حب زوجها من منافساتها، خاصة وأن الشرع يبيح له الزواج بأربع، واقتناء الجواري بما تسمح له ميزانيته[1]، ولكن لم تسر حياة جميعهن بنفس الوتيرة، فالطموحات لم ترضيهن حياة الدعة والسكون الروتينية بل مارسن السلطة وتصرفن في دواليب السياسة بتأثيرهن على الحكام، ولا أوضح مما قامت به صبح البشكنسية زوجة الخليفة الحكم المستنصر وأم ولده هشام، فكلمتها مسموعة وذات تأثير في السياسة، فهي التي مهدت السبل وفتحت الأبواب للمنصور للوصول إلى السلطة، مؤازرة مساندة إلى أن حجر على ابنها وسلبه مقاليد الأمور، وجعله مجرد إطار ينشط فيه؛ لإعطاء حكمه الشرعية التي يكتسبها المؤيد كونه الخليفة المنحدر من الأسرة الأموية، فكشرت عن أنيابها، وحاكت المؤامرات للإطاحة به، حيث تحالفت مع صهره غالب، لكن المؤامرة انتهت بموت هذا الأخير والتنكيل بجثته.

2- الطبقة الوسطى: تتكون أساسا من التجار الذين يعتبرون أقل مرتبة من أهل الخدمة وإن فاقوهم أحيانا في الثراء، يضاف إليهم القائمون بضياع رجال الدولة الملقبون بالعامرين، فهم رجال فلاحة وتعمير يقومون على أملاك أسيادهم واستثماراتهم[2]، وأصحاب المشاريع الصناعية، وصغار الملاك والموظفين، الذين تربطهم مصالح مشتركة مع الطبقة أعلاه[3].

لا ترفل هذه الطبقة في بذخ الأعيان، ولا تقاسي مشقة حياة العامة، جهدهم مسخر للحفاظ على ملكياتهم وتوسيعها أملا في الارتقاء في السلم الاجتماعي[4].

3- طبقة العامة: يمثلون الغالبية الساحقة من السكان، شملت الحرفيين بأنشطتهم المتنوعة من حدادة وخياطة وحياكة وبناء ونجارة...إلخ، إضافة إلى صغار التجار والملاك والباعة المتجولين والمستخدَمين من الأجراء كالحمالين والبوابين، والمزارعين والرعاة، والعمال البسطاء والمهمشين والعبيد الأرقاء، ويندرج ضمن هذه الطبقة أيضا العلماء الذين لم يتولوا الخطط والمناصب واكتفوا بالتدريس، إضافة إلى الطلبة، وأئمة المساجد القائمين عليها[5].

أهم ما يميزهم الدخل المحدود، وأوضاعهم الاجتماعية المضطربة غير المستقرة، فهم شديدو التأثر بالأزمات كالمجاعات، مثل تلك التي شهدتها الأندلس على عهد الحكم الربضي سنة199هـ، ومات فيها

1- مريم قاسم الطويل: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (403-483هـ/1012-1090م)، مكتبة الوحدة العربية، دار الكتب العلمية، ط1، الدار البيضاء، بيروت، 1994، ص262.

2- أحمد فكري: قرطبة في العصر الإسلامي تاريخ وحضارة، مؤسسة شباب الجامعة، د.ط، الإسكندرية، 1983، ص248.

3- عصمت عبد اللطيف دندش: المرجع السابق، ص280.

4- المرجع نفسه، ص281.

5- إبراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي...، ص ص170-177. عصمت عبد اللطيف دندش: المرجع السابق، ص284.

أكثر الخلق جهدا[1]، وفي زمن عبد الرحمن الأوسط سنة 232هـ "قحطت الأندلس قحطا شديدا؛ وكانت فيها مجاعة عظيمة، حتى هلكت الماشية، واحترقت الكروم، وكثر الجراد."[2]، وحدث نفس الشيء خلال إمارة عبد الله بن مُحَمَّد؛ وذلك سنة 285هـ[3]، وتخلل غيرها التاريخ الأندلسي وإن اختلفت في شدتها وتأثيرها.

ومع ذلك تبقى أوضاعا استثنائية، فهناك اتفاق بين الجغرافيين والرحالة على خصب الأندلس ورخائها فهي كما يصفها عبيد الله البكري: "شامية في طيبها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جباياتها، صينية في جواهرها ومعادنها، عدنية في منافع سواحلها."[4] ويورد المقري وصفا لها على لسان ابن الخطيب جاء فيه: "خصّ الله تعالى بلاد الأندلس من الريع وغدق السقيا، ولذاذة الأقوات وفراهة الحيوان، ودرور الفواكه، وكثرة المياه، وتبحُّر العمران...وإحكام التمدن والاعتمار بما حرمه الكثير من الأقطار سواها."[5] وفي نفس المعنى يقول ابن حوقل: "الأندلس من نفائس جزائر البحر، ومن الجلالة في القدر بما حوته، يغلب عليها المياه الجارية الشجر والثمر والأنهار العذبة، والرخص والسعة في جميع الأحوال، إلى نيل النعيم و التلُّك الفاشي في الخاصة والعامة، فينال ذلك أهل مهنهم وأرباب صنائعهم لقلة مؤنهم وصلاح بلادهم...مع عظم مرافقه وجباياته ووفور خزائنه وأمواله، ومما أدل منه على كثره وعزيزه أن سكَّة دار ضربه على الدنانير والدراهم في كل سنة مائتا ألف دينار."[6]

وبما أن خزينة الدولة جيوب رعاياها كما يُقال فإن عظم الجبايات دليل آخر على ثراء الأندلس "فجبايتها أيام هشام بن الحكم قبل الفتنة أربعة آلاف ألف، وكانت أيام الخليفة الحكم المستنصر الضعف من ذلك الخراج."[7] ووصلت إبان خلافة عبد الرحمن الناصر إلى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار جباية الكور والقرى، ومن المستخلص والأسواق سبع مائة ألف دينار وخمسة وستين ألف دينار[8].

وتتكرر في وصف الأندلس وأقطارها عبارات مثل: "كثيرة الزرع والضرع"، "كريمة طيبة كثيرة الفواكه"

1- ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص73.
2- المصدر نفسه، ص89.
3- نفسه، ص138-139.
4- المقري: المصدر السابق، ج1، ص 128-129.
5- المصدر نفسه، ص128.
6- ابن حوقل: المصدر السابق، ص104.
7- العذري: المصدر السابق، ص121.
8- ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص232.

"أطيب البلدان بقعة وأكثرها ثمرا"، "أهلها مياسير"، "رخيصة الأسعار"[1]...وغيرها من العبارات التي تصب في نفس المعنى.

وجب الإشارة إلى أن جغرافية الأندلس لم تأخذ شكلا واحدا، فهناك تنوع في تضاريسها ومناخها إذ نجد السهول الجنوبية والشرقية والغربية الخصبة، التي تشقها الأنهار العديدة، أما الوسط فيقع ضمن الهضبة الكبرى (الميسيتا) وهو أقل حظا من كرم الطبيعة وحسن المناخ، إذ يتألف من أراضي قليلة الخصوبة، تغطيها أعشاب فقيرة، وتعتمد المساحات الصالحة منها للزراعة على مياه الأمطار التي تجود حينا وتبخل أحيانا بما يتوافق مع المناخ القاري شبه الجاف السائد فيها، والشمال أمطاره هطالة وبرودته شديدة، وهو على جودة بعض المروج والمراعي به لا تصلح كثير من أراضيه للزراعة[2]، فالأندلس إذن لم يكن كل شبر فيها جنة كما يصوره الخيال الشعري، غير أن المسلمين استقروا في أخصب البقاع ولم يكن مقامهم في غيرها إلا قليل وللضرورة، إضافة إلى أنهم سخروا معارفهم وذكاءهم في السيطرة على الطبيعة، بإنشاء الأنهار الصناعية والجداول لتوزيع الماء وري الأراضي، كما استصلحوا الأراضي وسطحوا سفوح الجبال ليلحقوها بالأراضي الزراعية، حتى صارت الأرض في كثير من البقاع تعطي أربع غلات مختلفة في السنة الواحدة[3].

إن خيرات الأندلس الجمة، وغناها الطبيعي، وخزينتها الزاخرة بالأموال، توحي بأن المستوى المعيشي لسكانها حسن عموما، خاصة وأنهم شعب عشق العمل، آمن أنه لا بد للمرء من صنعة تضمن له كفاف العيش، وتبعده عن ذل السؤال، فهم إن "رأوا شخصا صحيحا قادرا على الخدمة يطلب، سبوه وأهانوه فضلا عن أن يتصدّقوا عليه، فلا تجد بالأندلس سائلا إلا أن يكون صاحب عذر"[4].

استقر الصناع في شكل طوائف عبر الأحياء، ولكل طائفة أمين يشرف على النظر في أمورها وقد امتاز الأندلسيون بحبهم للادخار وتخطيطهم الجيد ، فهم يحسبون حساب كل درهم، ويجيدون تصريف أموالهم، بما يضمن لهم الحياة الكريمة فلا إفراط ولا تفريط.

الرخاء إذًا متذبذب بحسب الأوضاع السياسية التي تلقي بظلالها على النواحي الاجتماعية، فكلما كان هناك استقرار وأمن نشطت الحياة الاقتصادية وارتفعت بين أفراد المجتمع نسبة الرفاهية والعكس، ولا أدل على ذلك من الانحدار الذي شهدته الأندلس في فترة الفتنة التي أعقبها سقوط الخلافة.

---

[1]- ينظر: ابن حوقل: المصدر السابق، ص ص108-111. العذري: المصدر السابق، ص19،22،96. الإدريسي: المصدر السابق ص264 وما بعدها، الزهري: المصدر السابق، ص ص80-88. الحميري: المصدر السابق، ص1، 9، 64، 70.

[2]- عبادة كحيلة: الخصوصية الأندلسية...ص37. أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، د.ط، القاهرة، 1985، ص20. لين بول: قصة العرب في إسبانيا، ترجم: علي الجارم بك، كلمات عربية للترجمة والنشر، د.ط، القاهرة، د.ت، ص38.

[3]- جوزيف ماك كيب: مدنية المسلمين في إسبانيا، ترجمة: محمد تقي الدين الهلالي، مكتبة المعرفة للنشر والتوزيع، ط2، الرباط، 1985 ص42-43.

[4]- المقري : المصدر السابق، ج1، ص211.

وتخص بعض المصادر عامة قرطبة بالشغب، فالمقري يقول في خضم حديثه عن المدينة نقلا عن ابن سعيد:"عامتها أكثر الناس فضولا، وأشدهم تشغيبا، ويُضرب بهم المثل بين أهل الأندلس في القيام على الملوك، والتشنيع على الولاة، وقلة الرضا بأمورهم."[1] ويحفظ لنا التاريخ عدد من الثورات التي أشعلوا فتيلها كالتي قام بها أهل الربض في عهد الأمير الحكم.

ومن الفئات الاجتماعية الداخلة في عداد العامة العبيد، والاسترقاق هو"حالة لاحقة تصيب الإنسان في تحركاته اليومية، إما من خلال مشاركته في حرب أو تمرد أو عصيان، أو خلال تعرضه للخطف على حين غرة، أو اضطر إلى ذلك اضطرارا لجريمة ارتكبها أو لدين تراكم عليه، ولم يجد سبيلا إلى أدائه غير بيع نفسه أو ولده"[2]، كما أن هناك استرقاقا بالوراثة، فإذا كان الوالدان عبدين فالابن عبد كذلك.

ويمثل الرق الطبقة المستضعفة في كل المجتمعات، يستغلون إلى أبعد الحدود، يُتعامل معهم في الغالب الأعم كأملاك لا كبشر، بيد أن الإسلام رغم أنه لم يلغ الاسترقاق بشكل قطعي-نظرا لطبيعة المجتمع آنذاك[3]- إلا أنه شجع تحرير الرقيق وحفظ لهم حقوقهم وإنسانيتهم، فوضعيتهم في المجتمعات الإسلامية أفضل بكثير عن وضعيتهم لدى غيرهم من الشعوب، والأندلس كحاضرة من الحواضر الإسلامية شكل فيها الرقيق نسبة معتبرة، فهم يتواجدون في القصور، والبيوت، والمزارع، وما إلى ذلك من الأماكن.

وقد تنوع الرقيق فيها لتنوع المناطق المجلوب منها، فهناك الرقيق الأسود، ويجلب من السودان الحبشة وبلاد النوبة، مع قوافل العاج والذهب، ويسمى هذا الصنف وخش الرقيق، مقابل عِلية الرقيق وهو الرقيق الأبيض الذي يسميه ميتز بأرستقراطية الرقيق[4]، وهو إما صقلي أو جليقي أو فرنجي أورومي يؤتى به من أوروبا عبر الطريق الشهير الذي يخرج من ضفاف نهر الألب، ويمر بمدينة كوبليس عبر نهر الراين، ومنها عبر رافدي الراين: الموز والموزيل ليصل إلى مدينة فردان في أقصى فرنسا، ومنها عبر أودية الرون والسين ليصلوا سواحل المتوسط عند ميناء آرلس وعبره يوزعون على سائر البلاد الإسلامية، خاصة الأندلس حيث عرفت

[1]- المقري: المصدر السابق، ج1، ص153،154.

[2] - عبد الإله بنمليح: الرق في بلاد المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع- الذهنيات- الأولياء، دار الطليعة للنشر، ط2، بيروت، 1993، ص27.

[3]- ليس من السهل القضاء على ظاهرة متجذرة في المجتمع دفعة واحدة، بل يجب تتبع سياسة المراحل، كي لا يتزعزع كيانه، ويؤدي رفض الظاهرة المستحدثة إلى التعنت والمشاكل، كما أن العائلات كانت في حاجة إلى الرقيق إما لقوته العضلية في المزرعة أو البيت، أو للتسري بالإماء، أو في البلاط للأعمال العسكرية والسياسية، أضف إلى أن القدرة الشرائية لبعض الأسر ساهمت في اقتناء المزيد من العبيد (المرجع نفسه، ص181.)

4- آدم ميتز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، نقله إلى العربية : محمد عبد الهادي أبو رية الفاروق، الحديثة للطباعة والنشر، د.ط، القاهرة، 1999، ص215.

مدينة المرية بتجارة العبيد[1]، وكانت مدينة فردان مركزا لإخصاء الصقالبة -كما سبق ذكره- ويقوم اليهود بهذه المهمة.

وقد وجدت بأسواق الأندلس أماكن عدة لتجارة الرقيق، يشرف عليها المحتسب لكشف التدليس والغش الذي قد يمارسه البائع رفعا لسعر عبده أو جاريته، ويورد بن سهل في نوازله أمثلة عدة عن العيوب التي توجب إعادة العبد إلى صاحبه[2]، وللرفع من سعر القيان والجواري أيضا كنَّ يدربن في مدارس ومؤسسات أنشأت لهذا الغرض، فيتعلمن الشعر والغناء ويأخذن من فنون المعرفة نصيبا لتتناسب مواصفاتهن مع متطلبات الأسر الغنية، والمحيط الأرستقراطي، الذي كان تواجدهن فيه لافتا وبأعداد كبيرة جدا[3]، فهذا ابن حزم يقول: "ربُيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب، وحين تفيل وجهي، وهن علمنني القرآن، وروينني كثيرا من الأشعار ودربنني الخط"[4]

استخدم العبيد للخدمة في الأرض والبيوت والبلاط، والصناعات الحرفية، ومارسوا السياسة فقد كان للصقالبة وزن سياسي ثقيل في بلاط الناصر، الذي عهد إليهم بأعمال هامة كانت حتى ذلك العهد حكرا على بيوتات العرب[5]، فصارت لهم ثرواتهم التي أرادوا من خلالها الحفاظ على سلطتهم، إذ امتلكوا الضياع واقتنوا بدورهم الغلمان، وزاد من تحسن أوضاعهم العتق الذي يجعلهم في مرتبة الموالي، مثال ذلك القائد غالب والحاجب جعفر المصحفي.

كما وجدت من بينهم طبقة ممتازة تسمى الفتيان أو الفتيان الكبار، يرتقون وظائف هامة مثل: صاحب الخيل صاحب البريد، صاحب الطراز، مما ساعدهم على التحكم في دواليب السياسة وتحريكها بما يخدم مصالحهم، من ذلك تدخلهم في تولية العهد وكان لبعضهم حظ في العلم والمعرفة،كما برعوا في الطب والصيدلة والفقه وما إلى ذلك من مجالات العلم، فإن دل هذا على شيء إنما يدل على أن ارتقائهم في السلم الاجتماعي لتضاهي مكانتهم الأحرار.

عموما هذا هو التقسيم الطبقي للمجتمع الأندلسي، وإن كان يختلف في بعض ملامحه من مؤرخ إلى آخر، كل حسب نظرته والعامل الذي يراه أكثر تأثيرا وفاعلية، فليفي بروفينسال مثلا صنفهم إلى:

---

[1]- عبد الإله بنمليح: المرجع السابق، ص427.

[2]- ينظر: أبو الأصبغ عسي بن سهل بن عبد الله الأسدي الجياني: ديوان الأحكام الكبرى النوازل والأعلام، تحقيق: رشيد النعيمي، شركة الصفحات الذهبية المحدودة ، ط1، الرياض، 1997، ج2، ص ص323-338.

[3]- بيبار غيشار: المرجع السابق، ص976.

[4]- علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي: طوق الحمامة في الألفة والألّاف، تحقيق: مُحَّد يوسف الشيخ مُحَّد و غريد يوسف الشيخ مُحَّد، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، 2004م، ص64.

[5]- مُحَّد فكري: المرجع السابق، ص249.

1- **طبقة الخاصة**: هو العائلة المروانية من أهل قريش أو بني هاشم، وأصحاب المناصب العليا في الدولة.

2- **العائلات الكبرى**: وهي التي تشغل المهام الرئيسية في الدولة ،تتوارثها عبر الأسر.

3- **طبقة العامة**: وهم عامة الشعب بمختلف أجناسهم ودياناتهم[1].

وبعضهم ألح على إطلاق مسمى الأرستقراطية على طبقة الأعيان، وإن كان مدلول اللفظ تختلف سماته في المجتمع المسلم عن نظيره الأوربي، فشتان بينهما.

ومهما كانت الاختلافات فإن المتفق عليه بما لا يدع مجالا للشك أن طبقية المجتمع الأندلسي مرنة تراتبية لا غير.

1- Évariste Lévi-Provençal: Histoire de L'Espagne musulmane le siècle du califat de Cordoue, t3, édition G- Pmaisonneure, Paris, 1953,p191et suit.

3- قيم التسامح الديني وتأثيراته الاجتماعية:

بروح تنبض إنسانية و تسامحا عاشت كل الإثنيات العرقية والدينية جنبا إلى جنب في الأندلس، التي استوعبت برحابة الإسلام كل الاختلافات، وضربت أروع الأمثلة عن التعايش مع الآخر في جميع المجالات وعلى كل المستويات، فالمسلمون مطالبون بالتسامح دينيا وأخلاقيا، لأنه مبني على قاعدة شرعية وليس شعورا من شأنه أن يتضاعف أو يضعف، كما أنه تسامح إيجابي وليس حيادي، أي أن المسلم ملزم بالحفاظ والدفاع عن الحقوق الإنسانية للآخر، وأي تجاوز أو عدوان عليها يعد تجاوزا ومخالفة لتعاليم الدين الحنيف[1]؛ قال الرسول ﷺ: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا**».

وبالمقابل لا يعني التسامح الخنوع والاستسلام للعدوان قال الله تعالى ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾[2]، فهو بهذا لا ينفي نشر الدعوة الإسلامية وتبيين الحق من الباطل، المهم ألا يتطور الاعتراف بالاختلاف إلى محاولة إلغاء الآخر[3].

و الأندلس مثلها مثل كل الأقطار الإسلامية كانت مرتعا للتسامح، فقد تجلت هذه السمة واضحة منذ البدايات الأولى للإسلام فيها، لأن المسلمين لم يدخلوها غزاة متجبرين، ولم تنسهم انتصاراتهم أبجديات التعامل مع الآخر –حتى في غمرة الصراع المحتدم– بل ترجموا هذه القيم واقعا ملموسا في صور شتى لامست مناحي الحياة جميعها؛ نذكر منها:

أ- حرية المعتقد والتنوع الثقافي:

يُوجَه الخطاب القرآني للعقل الإنساني في كل زمان ومكان؛ فالإسلام جاء للعالمين، لذا من واجب أتباعه تبليغ الرسالة والدعوة لهذا الدين، ولكن دون إكراه؛ قال الله سبحانه وتعالى:﴿ **لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِٱلطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[4]، فحرية المعتقد حق مضمون؛ ولا يعني هذا إقرار الضالين على ضلالهم، إنما ترك كل محاولات الجبر و الإكراه[5]، فالدخول في الإسلام لا يكون إلا عن اقتناع، وهذا ينفي نفيا قاطعا الافتراءات القائلة بأنه انتشر بحد السيف، لأن "القوة لم تكن عاملا في انتشار القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحرارا في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام واتخذوا من العربية لغة لهم فذلك لما رأوه

---

[1]- محمود حمدي زقزوق: التسامح في الإسلام، مجلة التسامح، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عُمان، العدد1، 2003، ص ص14-18.

[2]- سورة البقرة، الآية: 190.

[3]- عبد الله بن فهد اللحيدان: التسامح في الإسلام، دار الحضارة للنشر والتوزيع، ط1، الرياض، 2010، ص7،14.

[4]- سورة البقرة، الآية: 256.

[5]- عبد الله بن فهد اللحيدان: المرجع السابق، ص32.

من عدل العرب الغالبين مالم يروا مثله من سادتهم السابقين...وقد أثبت التاريخ أن الأديان لا تُفرض بالقوة، فلما قهر النصارى عرب الأندلس[1] فضل هؤلاء القتل والطرد عن آخرهم على ترك الإسلام."[2]

وانطلاقا من هذا المبدأ ترك المسلمون لمخالفيهم حرية المعتقد والممارسات الدينية، واحترموا طقوسهم وشعائرهم، لذا تحسنت أوضاع النصارى واليهود كثيرا على ما كانت عليه زمن القوط، فدخول المسلمين وضع حدا للاضطهادات الدينية، وفتح الباب واسعا أمام الآراء المختلفة، فلم يعد المعارض يخشى على نفسه تعنت الكنيسة، لأنه في هذا الجو العبق بالحرية ما عاد رجال الدين قادرين على إيذاء مخالفيهم بالقتل والسجن والتشريد...وغيرها من الممارسات المتعصبة، فالشيء الوحيد المتاح المجادلة والأخذ والرد[3] وهي سابقة تحسب للدولة الإسلامية فللمرة الأولى في التاريخ انطلقت دولة، هي دينية في مبدئها، ودينية في سبب وجودها، ودينية في هدفها، ألا وهو نشر الإسلام، إلى الإقرار في الوقت ذاته بأن من حق الشعوب الخاضعة لسلطانها، أن تحافظ على معتقداتها وتقاليدها وطراز حياتها، في زمن كان يسود فيه مبدأ إكراه الرعايا على اعتناق دين ملوكهم، بل وحتى على الانتماء إلى الشكل الخاص الذي يرتديه هذا الدين.

وقد حافظ المسلمون على دور العبادة لأهل الذمة لأن ذلك من صميم الدين، لذا عندما أراد الفاتحون اتخاذ مسجد في اشبيلية عاصمتهم الأولى بالأندلس لم يحولوا أحد كنائسها الكثيرة إلى مسجد بل اختار الوالي عبد العزيز بن موسى بن نصير جزءا قريبا من باب كنيسة ربينة ابتنى عليه مسجدا وحدث ما يشبه هذا في عاصمتهم الثانية قرطبة إذ شاطروا كنيستها العظمى مع النصارى، وابتنوا في ذلك الشطر مسجدا جامعا، ولما تزايد عدد سكانها ضاق المسجد بالمصليين فاشترى عبد الرحمن الداخل النصف الآخر من الكنيسة، وأوسع لهم في البذل، كما سمح لهم ببناء كنائسهم التي هُدمت وقت الفتح بخارج قرطبة[4] فأي صورة أبلغ من هذه –مع أن غيرها كثير– تثبت سماحة الإسلام واستيعابه للآخر، لذا دخل أهل البلاد فيه أفواجا، وهو ما يرد ادعاءات المنتقدين في نحورهم.

وبقيت الكنائس تمارس دورها الاعتيادي –وإن تقلص نفوذ رجال الدين عما كان عليه زمن القوط– بل وظلت تقرع نواقيسها وقد ذكر ذلك ابن حزم فقال:

---

[1]- الاضطهاد النصراني فيما يعرف بمحاكم التفتيش لم يطل المسلمين فقط بل امتد إلى اليهود أيضا؛ أي كل من خالفهم في المعتقد متجاهلين سماحة الإسلام التي تقلبوا في ظلالها الوارفة قرونا !!

[2]- غوستاف لبون: المرجع السابق، ص76.

[3]- حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص510-511.

[4]- ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص229.

أتيتني وهلال الجو مطلع قبيل قرع النصارى للنواقيس[1]

والأكثر من ذلك أن المسلمين كانوا يقصدون الأديرة فيمكثون فيها ما شاءوا من الوقت، إذ كانت بساتينها الفسيحة وقاعات شرابها الباردة مجتمع أهل البطالات وطلاب اللذات، لذا يقترن ذكرها في الأشعار غالبا بالشراب[2]، فهذا ابن شُهيد[3] يقول:

ولـرب حـانٍ قد أدرتُ بديـره خمر الصِّبا مُزجت بصفو خموره
في فتية جعلوا الزّقاق تكاءَهم متصـاغـريـن تخشعـا لـكبيره
والقِس مما شاء طول مقامنا يـدعـو بعُـودٍ حـولنا بـزبـوره
والى علـيَّ بطـرفه وبكفـه فـأمـال من رأسي لِعَـبِّ كبيره
وترنّم الناقوس عند صلاتهم ففتحت من عيني لرجع هديره[4]

وتأمر كتب الحسبة بوجوب منع المسلمات من دخول الكنائس لما يحدث فيها من تجاوزات لا أخلاقية[5] وأن يصدح محتسب بهذه الصيحة دليل على شيوع الظاهرة في المجتمع.

كما أبيح للنصارى عقد مجمعاتهم الكنسية؛ مثل مجمع إشبيلية 166هـ/782م، ومجمع قرطبة 238هـ/852م[6]، فبعدما كانت مجامع طليطلة المُؤيدة من طرف ملوك القوط تفرض رأيها بالقوة والعنف على الناس صارت حرة في قراراتها لا سلطة تتحكم فيها وتسيرها، لأن المسلمين لم يقيدوا أو يتدخلوا في مهام الكنائس، بل أبقوا على كل المؤسسات الدينية النصرانية كالأديرة و البيع...وغيرها دون أن يمسوها بأذى وظلت تؤدي وظائفها الدينية والاجتماعية المعهودة[7]، ونفس الشيء فيما يخص المؤسسات الدينية اليهودية

ونظرا للتعايش الحاصل بين مختلف عناصر المجتمع، زيادة على التفوق الحضاري للمسلمين فقد تأثرت الطقوس الدينية النصرانية في الأندلس واختلفت بعض الشيء عن نظيرتها في الممالك الاسبانية

[1]- ابن حزم: المصدر السابق، ص 142.

[2]- حسن الزين: أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي أضواء على الأوضاع الاجتماعية والقانونية، دار الفكر الحديثة للطباعة والنشر، ط1، بيروت 1982، ص37.

[3]- هو أبو عامر أحمد بن عبد الملك، ينحدر من أسرة بني شُهيد التي تعتبر من أكبر وأشهر الأسر الأندلسية، إذ تبوء أفرادها العديد من المناصب لبني أمية؛ كالحجابة والوزارة والكتابة...، ولد في قرطبة سنة 382هـ، توفي سنة325هـ/1043م ولم يتجاوز الثالثة والأربعين من عمره بعد فلج أصابه. (أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شُهيد: ديوان بن شُهيد الأندلسي ورسائله، جمعه وحققه وشرحه: محي الدين ديب، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، د.ط، بيروت، 2002، ص ص 24-36.)

[4]- المصدر نفسه، ص85.

[5]- ابن عبدون وابن عبد الرؤوف والجرسيفي: ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق: ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، د.ط، القاهرة، 1955، ص28.

[6]- رجب مجيد عبد العليم: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عهد بني أمية وملوك الطوائف، دار الكتب الإسلامية و دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، د.ط، القاهرة، بيروت، د.ت، ص 74.

[7]- عبد الواحد ذنون طه: دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، ص85.

المسيحية، وصارت تسمى بالطقوس المستعربية نظرا لاستعمالها اللغة العربية، إذ لم يمض على الفتح خمسون عاما حتى اضطر رجال الدين لترجمة صلواتهم إلى العربية ليفهمها النصارى[1]، وقد عبر متذمرا عن هذا الاتجاه السائد والإقبال الشديد على العربية القس ألفارو alvaro قائلا:

" إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويدرسون مذاهب الفقهاء والفلاسفة المسلمين في عمق، لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما ليكتسبوا من ذلك أسلوبا عربيا جميلا صحيحا، وأين تجد الآن واحدا– من غير رجال الدين– يقرأ الشروح اللاتينية التي كُتبت على الأناجيل المقدسة، ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الأنبياء والرسل، يا للحسرة!...

إن كل الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها، ويقبلون عليها في نهم، وهم ينفقون أموالا طائلة في جمع كتبها، ويصرحون في كل مكان بأن هذه الآداب خليقة بالإعجاب، فإذا حدثتهم عن كتب النصرانية أجابوك في ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم، يا للألم!...لقد أُنسي النصارى حتى لغتهم، فلا نكاد نجد واحدا منهم بين الألف يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتابا سليما من الخطأ، فأما عن الكتابة في اللغة العربية فإنك واجد فيهم عددا عظيما يجيدونها في أسلوب منمق، بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم دقة وجمالا."[2]

ويعود عشق النصارى و ولوعهم باللغة العربية إلى تنوع أغراضها وإلمامها بأنواع الآداب والعلوم، فهي لم تكتف بأن تكون لغة القرآن فقط، على عكس اللاتينية التي يُعد أغلب أدبها كنسيا، فصارت بهذا تعيق تطور الفكر وتفتحه، فدبّ فيها الوهن والضعف وبدأت تخرج منها لهجات محلية، لذا ولَّى المستعربون بوجوههم شطر العربية لغة العلم والحضارة[3]، ونفس الشيء قام به اليهود، فأبدعوا شعرا ونثرا يحاكي جودة الإنتاج العربي، وأثار هذا الاهتمام تذمر وسخط بعض علماء اليهود فاستشاطوا غضبا من نظرائهم الذين كانوا يكتبون ردودهم وتعليقاتهم باللغة العربية بحجة أنها اللغة المفهومة عند كل يهود الأندلس[4].

وقد ألهم اهتمام المسلمون الزائد بلغة القرآن اليهود؛ ودفعهم إلى نفض الغبار عن لغتهم العبرية وانتشالها من أدراج النسيان، فوضعوا لها قواعد النحو، الذي يعود الفضل الكبير في نشوئه إلى أبي الوليد مروان بن جناح (384-359هـ/ 945-970م) ونَظَموا بها أشعارا على أوزان بحور الشعر الخليلية، وسلكوا نهج المسلمين في الكتابة من حيث الشكل والمضمون[5].

---

[1]- عبد الوحد ذنون طه: دراسات في حضارة الأندلس...، ص70.

[2]- ليفي بروفنسال: الحضارة العربية في إسبانيا، ترجمة: الطاهر أحمد مكي، دار العالم العربي، ط1، القاهرة، 2010، ص 112.

[3]- ماريا روزا منيوكال: الأندلس العربية إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ترجمة: عبد المجيد جحفة ومصطفى جباري، دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء، 2006، ص 64- 65.

[4]- خالد يونس الخالدي: المرجع السابق، ص298.

[5]- أنخل جنثالث بالنثيا: تارخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، د.ط، القاهرة، 1955، ص494.

وإلى جانب اللغة العربية الفصحى -اللغة الرسمية للدولة- ظهرت لهجتان عاميتان تداولهما سكان الأندلس لهجة عربية يستخدمونها في حياتهم اليومية وفي أحاديثهم البعيدة عن العلم والأدب والرسميات، ولهجة متفرعة عن اللغة اللاتينية كان يستعملها الإسبان عند الفتح عرفت بالأعجمية اللاطنية أو الرومنسية Romance ، وقد أتاحت المعايشة لكل طرف التعرف على لغة صاحبه واستعمالها، فهذا ابن حزم يقول في بني بلي: "ودار بَلِيّ بالأندلس: الموضع المعروف باسمهم بشمال قرطبة؛ وهم هناك إلى اليوم على أنسابهم؛ لا يحسنون الكلام باللطينية، لكن بالعربية فقط، نساؤهم ورجالهم..."[1]

نبرة الاستغراب هاته توحي بذيوع هذه اللهجة بين أفراد المجتمع الأندلسي، ونُدرة من لا يجيدها، إذ صارت سمة خاصة به.

كما أثرت اللغات في بعضها البعض بنسب متفاوتة، كان من نتائجه ميلاد لون أدبي جديد تجلى في الموشحات[2] والأزجال، فالموشح إضافة لكونه جاء استجابة لحاجة فنية تتمثل في لون شعري يواكب التطور الذي عرفته الأندلس في الموسيقى والألحان والغناء بعد زرياب، كان أيضا نتيجة لظاهرة اجتماعية تتجلى أساسا في ازدواجية اللغة، فالموشحات تنظم بالفصحى أما الخرجة فبالعامية الأندلسية المتضمنة لمفردات من الأعجمية اللاطنية (الرومنثي)[3].

وإن دلّ هذا على شيء إنما يدل على التقارب و التفاعل الحاصل بين سكان الأندلس، ولا يمكن لهذا أن يحدث لو أن الفاتحين احتقروا السكان الأصليين واضطهدوهم؛ وعاشوا في معزل عنهم كما فعل القوط فكلما سرنا خطوة في أرجاء الأندلس أو قلبنا صفحة من صفحات تاريخها صادفتنا لوحة يُبدع التسامح في رسمها، وتزهو بألوان الإنسانية والعطاء والحوار الحضاري.

وفي بيئة تعشق العلم وتبجله انتقل هذا الشغف إلى الشعوب التي تعيش بين ظهراني المسلمين فاليهود مثلا بعدما كانوا بعيدين عن جميع العلوم والآداب ولم يبرز منهم عالم واحد، وحتى القلائل المتعلمون لا يعرفون إلا العلوم الدينية التي يتناقلونها منذ قرون عدة دون زيادات أو إضافات تذكر عليها صاروا يحاكون المسلمين في اهتمامهم بالعلم فاتخذوا من بيعهم مدارس على شاكلة مساجد المسلمين، أما الأغنياء فأحضروا المعلمين إلى بيوتهم لتعليم أبنائهم، كما أنشأ اليهود مراكز للدراسات اليهودية على مستوى علمي

---

[1]- علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب، تحقيق: ليفي بروفنسال، دار المعارف، د.ط، القاهرة، 1948، ص415.

[2]- فن أندلسي خالص، لم يعرف في صورته المكتملة الناضجة إلا على أرضها، والموشح أنواع منها التام والأقرع، وهو يتكون من: القفل الذي يتركب من جزأين إلى ثمانية أجزاء، المركز، الخرجة وهي القفل الأخير في الموشح، يكون غالبا باللغة الرومانسية أي الإسبانية القديمة، تتجلى فيها ظاهرة فريدة هي الامتزاج والاختلاط اللغوي. (مُحَمَّد زكريا عناني: تاريخ الأدب الأندلسي، دار المعرفة الجامعية، د.ط، مصر، 1999، ص ص167-169. أحمد بسام ساعي: الوجه الآخر للموشحات من خلال الكشف الجديد لكتاب "عدة الجليس"، مجلة آفاق الثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، العدد3، ديسمبر 1993، ص17.)

[3]- أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، د.ط، القاهرة، 1985، ص143-144.

عالٍ[1]، و ماكان هذا ليكون لولا سماحة الإسلام.

الأكثر من ذلك أن اليهود اقتبسوا طريقة ومراحل التعليم المنتهجة من طرف المسلمين، واعتمدوا اللغة العربية في التعليم بصفتها لغة العلم والثقافة إضافة لكونها اللغة الرسمية للدولة، فمن لا يتقنها لن يكون قادرا على الاستزادة من علوم المسلمين ولا الالتحاق بالمعاهد اليهودية التي اعتمدت العربية لغة للتدريس منذ عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن الذي أصدر أمرا بذلك[2].

وقد كان الطلاب على اختلاف مِللهم يشاركون المسلمين حلقات الدرس؛ التي تخرج منها علماء سطع نجمهم في شتى فروع العلم وتسلقوا ذُرى المجد، فالاختلاف لم يكن مبررا للإقصاء والتهميش في دولة آمنت بالتنوع والتمايز.

فهذا الجو العبق بالحرية الفكرية جعل الأندلس مركزا للدراسات العبرية بلا منازع، وقد نبعت ثقافة اليهود من موارد الثقافة الإسلامية بصورة مباشرة[3].

ب- التعايش الاجتماعي:

إن الإسلام دين يمجد الإنسان ويُعلي من مرتبته لذاته بصفته إنسانا، لذا اكتسب أهل الذمة حقوقهم بمقتضى ماهو مقرر وثابت في كتاب الله سبحانه وتعالى[4]، وحرصا من المسلمين على الالتزام بتعاليم الدين صار التسامح من المظاهر الطاغية على هذا المجتمع، وبمرور الوقت ازداد التمازج والتقارب حدا ذابت معه الفوارق والاختلافات و ارتخت فيه قبضة المسلمين حتى تساهلوا في حدود الشرع، لذا نجد كتب الحسبة تصدح بضرورة الالتزام بالضوابط في علاقة المسلمين بأهل الذمة، ولكن بتتبع للوقائع نرى أنها تصور المجتمع غالبا كما يجب أن يكون وليس كما هو كائن، فالتمازج بلغ ذروته خاصة من الناحية الاجتماعية؛ فهناك التجاور في السكن والمصاهرة والتشارك في الأعياد...وغيرها من المظاهر التي طبعت حياة الأندلسيين.

---

[1]- كان التدريس ينطلق منذ السنة السادسة غالبا، ويمر بثلاث مراحل تحاكي في بعض ملامحها نظم التربية الإسلامية، يتعلمون في الأولى القراءة والكتابة، قراءة نصوص من الكتاب المقدس وتلاوة الأدعية، أما الكتابة فتتم بتمرينهم على كتابة الكلمات على الألواح الخشبية، وفي سن العاشرة يرتقون إلى المرحلة التالية، وتعد دراسة التلمود أعلى مرحلة في التعليم، كما اهتم اليهود بالتعليم المهني، إذ يتدرب الصبيان على صنعة من الصنائع.

وجه التعليم أساسا للبنين أما البنات فيُعلمن وسط الأسرة صنوف العمل المنزلي، فالمدارس المخصصة لهن قليلة يدرس فيها معلمون عميان أو نساء متخصصات.

ارتحل اليهود خارج الأندلس للتتلمذ على يد كبار الأحبار، وهي عادة أخذوها عن الطلاب المسلمين. (مسعود كواتي: المرجع السابق، ص ص179 -181.)

[2]- المرجع نفسه، ص 180.

[3]- أنخل جنثالث بالنثيا: المرجع السابق، ص488.

[4]- فهمي هويدي: مواطنون لا ذميون موقع غير المسلمين في المجتمع المسلم، دار الشروق، ط3، القاهرة، 1999، ص81.

لم يُعزل الذميون في أحياء ومدن خاصة، بل جاوروا المسلمين وعاشوا بين ظهرانيهم وإن تركزوا – بإرادتهم – في مدن على حساب أخرى كطليطلة وغرناطة...إلخ، فهذه كتب النوازل و الحسبة تشير بين دفتيها للكثير من القضايا المتعلقة بالجوار

فمن أبواب قرطبة الأربعة هناك باب يسمى باب اليهود؛ قال فيه ابن شُهيد:

لقد أطلعوا عند باب اليهو   د بدرا أبى الحسن أن يُكْسَفا

تـراه اليهـود عـلى بابهـا   أميرا فتـحـسَبُــه يـوسـفـا[1]

إن الإسلام لم ير حرجا من زواج المسلم بالكتابية فالله سبحانه وتعالى قال في محكم تنزيله: ﴿**الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[2] ، لذا نجد الكثير من الأمثلة على هذه الزيجات —كما أسلفنا الشرح— ولم يكن ذلك مقتصرا على حقبة دون أخرى أو طبقة اجتماعية معينة، بل سرت الظاهرة على الجميع، وهو ما أدى إلى التمازج العرقي والثقافي، فزاد التقارب بين فئات المجتمع الأندلسي خاصة و أن المسلم الذي حمل أعباء الفتح كان بطبعه ألوفا بسيطا، لا يستقر إلى جانب قوم حتى يأخذ منهم ويعطي، ويصاهرهم وتمتزج دماؤهم بدمائه، ويشركهم في أصله وحسبه[3]، كما أنه لم يرَ نفسه أسمى من غيره، لذا لم يحتقر الآخر أو يترفع عن مخالطته، فكل البشر من آدم وآدم من تراب ، وهذا ما خلق تعايشا اجتماعيا جعل أهل الذمة يستعربون لسانا وأسلوب حياة، فتسمى الكثير من المسيحيين بأسماء عربية، وقلدوا جيرانهم المسلمين في الأزياء والطعام والشراب، إذ أنفوا في الغالب أكل لحم الخنزير، كما أن كثيرا منهم إختتن[4].

لم يستنكف المسلمون عن الاحتفال بأعياد الذميين رغم المعارضة الشديدة للفقهاء، فقد قاسموا اليهود فرحة عيد، وصنعوا على شاكلة المسيحيين حلوى المدائن في عيد يناير ، وخرجوا إلى المنتزهات في عيد العنصرة، وبلغ الأمر حدّ زيارة النساء المسلمات للكنائس.

وهذا يدل على عمق الانصهار الاجتماعي الذي شكل صورة مميزة للمجتمع الأندلسي.

---

[1] – ابن شُهيد: المصدر السابق، ص96.

[2] – سورة المائدة، الآية: 05.

[3] – علي حسني الخربوطي: الإسلام وأهل الذمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، د.ط، القاهرة، 1969، ص178.

[4] – المرجع نفسه، ص180.

ج- الحرية السياسية والاقتصادية:

عُومل أهل الذمة في الديار الإسلامية كمواطنين – وفق التعبير الحديث – تمتعوا بكافة الحقوق، ونالوا حظا وافرا من الحرية في مجالاتها المختلفة، فهاهم في الأندلس والفتح يخطو أولى خطواته يعقدون المعاهدات التي تخدم مصالحهم وتزيد امتيازاتهم، كأبناء غيطشة "المند، وقلة، أرطباس" الذين سألوا طارق الأمان واتفقوا معه على الغدر بلذريق والخروج من جيشه مقابل أن يمضي لهم على ضياع أبيهم التي قدرت بثلاث آلاف ضيعة سميت فيما بعد "صفايا الملوك"، فساروا بعد تنفيذهم الشرط إلى الوليد بن عبد الملك الذي أنفذ لهم عهد طارق بن زياد، وعقد لكل واحد منهم بذلك سجلا، ليصبح لالمند ألف ضيعة بغرب الأندلس و سكن إشبيلية، ولوقلة مثلها في شرق الأندلس وسكن طليطلة، ولأرطباس مثلها بوسط الأندلس وسكن قرطبة[1].

وقصة سارة القوطية مع عمها أرطباس[2] تحوي بين ثناياها صورا ومواقف شتى تبين الحرية التي تمتع بها الذميون، فقد استقلت مركبا وتنقلت من اشبيلية إلى دمشق لتطالب بحقها دون أن يعترض سبيلها أحد، إذ تصرفت كمواطنة في الدولة الإسلامية ولجأت للخليفة رمز السلطة العليا لحل مشكلتها واستعادت حقها المغتصب من طرف عمها، ويثبت هذا أيضا ثقتها في عدله وانعدام التعصب والتحيز إلا للحق مهما كانت صفة صاحبه، وقد كان عند حسن ظنها، بل زاد على أن زوجها بعيسى بن مزاحم ليصون حقها ويكون سندا لها.

ومن المعاهدات أيضا تلك التي وقعها عبد العزيز بن موسى بن نصير مع تدمير حاكم مرسية، جاء فيها ما يلي:

> **‹بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من عبد العزيز بن موسى لتدمير بن غندريس إذ نزل على الصلح أن له عهد الله وميثاقه وما بعث به أنبياءه ورسله، وأن له ذمة الله عز وجل وذمة محمد ﷺ ألاّ يقدم له و ألاّ يؤخر لأحد من أصحابه بسوء، وأن لا يُسبون ولا يفرق بينهم وبين نسائهم وأولادهم، ولا يقتلون، ولا تحرق كنائسهم، ولا يكرهون على دينهم، وأن صلحهم على سبع مدائن: أوريولة، ومولة، ولورقة، وبَلَنتلَه، ولقنت، وإيِه، وإلش، وأنه لا يدع حظ العهد، ولا يحل ما انعقد، ويصحح الذي فرضناه عليه وألزمناه أمره، ولا يكتمنا خبرا علمه، وأن عليه وعلى أصحابه غُرم الجزية، من ذلك على كل حر: دينار، وأربعة أمداء من القمح، وأربعة أمداء من الشعير،وأربعة أقساط خل، وقسطا عسل، وقسط زيت، وعلى كل عبد نصف هذا.**

---

[1]- ابن القوطية: المصدر السابق، ص: 30-31.

[2]- سطى أرطباس بعد وفات أخيه ألمند على أملاكه وضمها إليه، وكان ألمند قد خلف ثلاثة أولاد سارة وابنين آخرين، فأنشأت مركبا من إشبيلية وتوجهت بأخويها إلى الشام قاصدة الخليفة هشام بن عبد الملك وتظلمت من عمها أرطباس وسألته استرداد حقها المسلوب، فأنصفها الخليفة وكتب إلى واليه على إفريقية حنظلة بن صفان الكلبي بإنفاذ عهد الوليد بن عبد الملك ويأمر بذلك عامله على الأندلس أبو الخطاب حسام بن ضرار الكلبي، وأنكحها الخليفة عيسى بن مزاحم الذي قدم معها الأندلس وقبض ضياعها. (المصدر نفسه ص:31-32.)

شهد على ذلك عثمان بن عبيدة القرشي، حبيب بن أبي عبيدة القرشي وسعدان بن عبد الله الربعي وسليمان بن قيس التجيبي ويحي بن يعمر السهمي وبشر بن قيس اللخمي ويعيش بن عبد الله الأزدي وأبو عاصم الهذلي وكتب في رجب سنة أربع وتسعين.›[1]

فهذا العهد منحهم الأمان وحرية المعتقد إضافة إلى حرية التملك والتصرف في ممتلكاتهم مقابل الجزية وعدم موالاة عدو المسلمين.

وكان للعقلاء منهم رأي مسموع، فهذا أبو الخطار يأخذ باقتراح أرطباس – الذي عين في عهد عبد الرحمن الداخل أول قومس للأندلس– في تفريق الشاميين على الكور وإخراجهم من قرطبة التي لم تعد تتسع لهم وذلك للتخفيف من حدة الصراعات القبلية، فلو كان المسلمون متعصبين عُنصريي التفكير ما حُمل رأي النصراني على محمل الجد والتطبيق، فالمهم بالنسبة لهم رجاحة العقل وحسن التدبير.

ومع أن المسلمين أصبحوا أسياد الأندلس، إلا أنهم ابتعدوا كل البعد في تعاملهم مع الآخر عن الاستبداد والبطش، فهذا ميمون العابد أحد أقطاب الصلحاء المسلمين ممن دخلوا الأندلس، ذهب إلى أرطباس وطلب منه ضيعة ليزرعها على أساس اقتسام الثمر بينهما، وكان بالإمكان –وهو في وضعية الغالب– أن يستبد بممتلكات هذا الأخير، لكنه فضّل التعامل بهذا الأسلوب الذي يعكس احترام الآخر والرغبة في الحوار معه دون عقدة تضخم الأنا أو نزعة الاستعلاء، وضم نفس المجلس عشرة من الشاميين من بينهم الصميل بن حاتم جاؤوا لذات الغرض.[2]

أتاحت هذه الأجواء التي أشاعها المسلمون في الأندلس لأهل الذمة الفرص لإثبات الذات فبعدما كانوا يعيشون على هامش الحياة غالبا زمن القوط، صاروا فاعلين في مسرح الأحداث مساهمين فيها، كما ارتقى عدد معتبر منهم سلم المناصب الإدارية و السياسية حتى اعتلوا أهمها كالوزارة والكتابة، فهذا عمر بن قومس(ت 298هـ/910م) يتولى الكتابة للأمير عبد الله، والقومس بن أتنيان بن يليانة الذي كتب للأمير مُحَمَّد بن عبد الرحمن مدة عامين إثر مرض كاتبه عبد الله بن أمية بن يزيد، وقد امتاز بالنبوغ والبلاغة وحسن تدبيره وإجادته للكتابة.

كما عملوا في الحقل الدبلوماسي لأن الاختيار لم يتم وفق اعتبارات دينية أوعرقية، بل على أساس الكفاءة بإجادة أكثر من لغة، والتمرس على الأساليب الدبلوماسية، فالدولة الأموية تجاوزت أسلوب التفكير المتعصب اتجاه الذميين ككل[3].

ومن أشهر هؤلاء اليهودي حسداي بن شبروت الذي كان طبيب الخليفة عبد الرحمن الناصر الخاص؛ مع العلم أن التطبيب في القصر شرف لا يناله إلا القلة، كما أرسله في مهمات دبلوماسية؛ إذ أوفده مع مُحَمَّد

[1] – العذري: المصدر السابق، ص4-5.

[2]– ابن القوطية: المصدر السابق، ص ص58- 60.

[3]– مسعود كواتي: المرجع السابق، ص253.

بن حسين في سفارة إلى أردون الثالث ملك ليون سنة 344هـ/955م[1]، والتي انتهت إلى عقد صلح بين الطرفين إثر هزيمة هذا الأخير وحليفه فرناندو الثالث Fernando Gonzalez كونت قشتاله أمام الجيوش الأندلسية، بعدما تنازل أردون للناصر على بعض الحصون وتعهد بعدم الاعتداء[2].

وأوفده أيضا إلى شانجة المخلوع من عرش ليون الذي فرّ شطر بنبلونة حيث خاله غرسية وجدته طوطة Teoda.[3]

كان شانجة بدينا يعجز عن امتطاء جواده، وإذا سار فلابد من مرافق يعتمد عليه، فأصبح مثار سخرية شعبه[4]، لذا صار لزاما علاجه قبل استرداده لعرشه، ولم تجد طوطة حليفا يعينها على ما تسعى إليه خيرا من الناصر- رغم أنه كان عدوها اللدود- فتنازلت مرغمة وطلبت منه طبيبا يشفي علة حفيدها وجيشا يؤازرها، فأرسل لها الطبيب البارع حسداي بن شبروت الذي يجيد الحديث بلسان النصارى إضافة لكونه سياسيا محنكا[5]، وكلفه زيادة على علاج شانجة أن يسأل طوطة زيارة قرطبة مع ابنها غرسيه وحفيدها شانجة لتوقيع المعاهدة، وفعلا قدمت إليها سنة 347هـ/958م.

وقد افتخر اليهود بالحدث لأنه تمّ على يد رجل منهم، فنظموا فيه القصائد المخلدة له منها:

طأطئي الهام أيها الجبال فهذا شيخ يهوذا حياك
ولتمتلئ جميع الأفواه بالضحك و الفرحة
ولتغن الأرض الجدباء ولتبتسم الصحراء ولتزدهر الورود...فقد
جاء شيخ الجميع...
لقد جاء وفي ركابه الطرب والغناء
لقد كانت المدينة العظيمة هنا — وقت غياب حسداي عنها - تعلو
مبانيها الرائعة الكآبة ويلفها كلها الظلام
أما فقراؤها الذين لم تعد عيونهم تكتحل بمرآه الوضاء كالنجوم...
فقد علتهم غبرة..
....
لقد وهبنا الله إياه زعيما وقربه من الملك مكانا عليا

[1]- رجب مجيد عبد العليم: المرجع السابق، ص226.
[2]- حسين مؤنس، تاريخ المغرب العربي والأندلس، ص369.
[3]- المقري: المصدر السابق، ج1، ص349.
[4]- رينهرت دوزي: تاريخ المسلمين في الأندلس،ج2، ص51.
[5]- المرجع نفسه، ص53.

فسماه بالأمير ورفع منزلته على كثير غيره.[1]

ونستشف من حروف هذي القصيدة المكانة التي يحتلها حسداي في قلوب اليهود، فهو مصدر فخر لهم لقربه من الخليفة، وتفانيه في خدمة مصالحهم، خاصة وأن موقعه يسمح له بفعل ذلك بأريحية وعلى نطاق واسع.

وليس حسداي السفير المستعرب الوحيد بل بعث الخليفة عبد الرحمن الناصر قبله هشام بن هذيل إلى قسطنطين السابع (334-348هـ/945-959م)، إذ توجه محملا بالهدايا مع الوفد العائد من قرطبة إلى القسطنطينية ليؤكد المودة ويوثق عرى التقارب بين الدولتين، ورجع بعد سنتين.[2]

وهناك أيضا المسيحي ربيع بن زيد المسمى Recemundo الذي أُرسل في مهمة استعجاليه إلى أوتو otto ملك ألمانيا (936-973م) المتوج في 02فيفري 962م إمبراطورا للإمبراطورية الرومانية على يد البابا يوحنا الثاني عشر، ففي سنة 345هـ/956م وجه أوتو الراهب يوحنا الجرزيني إلى قرطبة بعد تبادل رسائل شديدة اللهجة بينه وبين الناصر حول الاعتداءات الأندلسية المنطلقة من بروفانس provence على شواطئ بلاده في جنوب فرنسا وشمالي إيطاليا وسويسرا اعتقادا منه أن الناصر هو المسؤول عن أعمالهم[3]، ويُقال إن الخليفة عبد الرحمن الناصر تعرض في رسالته التي ردّ فيها على أوتو للدين المسيحي لذا وجه هذا الأخير سفارة على رأسها الراهب يوحنا الجرزيني الذي كان من المهتمين بالنقاش العقائدي، الراغب إلى جانب مهمته السياسية بمجادلة الخليفة، وحين أُحيط الخليفة علما بمهمة الراهب اقترح عليه ترك المجادلات الدينية والتحدث في المهمة الأساسية للسفارة، لكن الراهب تعنت ورفض لأنها جزء مما كُلف به فأرسل الخليفة ربيعا -الذي امتاز بإجادته للغة اللاتينية- إلى أوتو ليحصل منه على أمر لسفيره بترك المجادلات الدينية والاكتفاء بالخوض في الجانب السياسي لتحقق السفارة هدفها، وفعلا وُفِق في مهمته؛ وعاد بأمرٍ ليوحنا تمّ بمقتضاه استبقاء الجانب الديني بعيدا عن المناقشة[4].

تذكر لنا كتب التاريخ أيضا شخصية الرحالة اليهودي إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي الذي قادته رحلاته إلى الأقطار الأوربية لمقابلة البابا يوحنا الثاني عشر سنة 350هـ/961م الذي حمّله رسالة إلى الخليفة الحكم المستنصر، كما زار أوتو في سفارات غير رسمية باسم الخليفة ساهمت في استمرار العلاقات الودية وتوثيق

---

[1]- رينهرت دوزي: المرجع السابق، ص53-54.

[2]- المقري: المصدر السابق، ج1، ص350.

[3]- حسن الشطشاط: تاريخ الإسلام في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة،دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، القاهرة، 2001، ص177.

[4]- شكيب أرسلان: تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وجزائر البحر المتوسط، كلمات عربية للترجمة والنشر، د.ط، القاهرة، د.ت ص ص179-181. عبد المجيد نعنعي: تاريخ الدولة الأموية في الأندلس التاريخ السياسي، دار النهضة العربية، د.ط، بيروت، 1986، ص375. مُحَّد مُحَّد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقاتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي، مؤسسة الثقافة الجامعية، القاهرة، 1981 ص465-466.

الصلات الحضارية، كانت الأولى سنة 354هـ/965م والأخرى سنة 362هـ/973م[1].

كما عمل بعضهم كمترجمين عن الوفود القادمة إلى قرطبة مثل: عبيد الله بن قاسم مطران إشبيلية ، عيسى بن منصور أسقف قرطبة، معاوية بن لب القومس، أصبغ بن عبد الله بن نبيل قاضي النصارى بقرطبة.[2]

وكان لهؤلاء المستعربين حرية التنقل داخل الأندلس وخارجها، فساروا أفواجا نحو بيت المقدس للحج، وشدوا الرحال بمحض إرادتهم إلى الممالك النصرانية في الشمال، وقد تبوأ من رحل منهم أعلى المناصب بحكم ارتفاع مستواهم الثقافي[3]، وكانوا حلقة من حلقات التواصل الحضاري.

وفُتحت أبواب الاقتصاد على مصراعيها أمام أهل الذمة، فلهم الحرية في ممارسة النشاط الذي يروقهم دون تضييق أو خناق، إذ لم يكن في التشريع الإسلامي ما يغلق دونهم أي باب من أبواب الأعمال، مما ساهم في رسوخ أقدامهم في الصنائع التي تدر أرباحا، فكانوا صيارفة وتجارا وأصحاب ضياع وأطباء...إلخ[4] فهاهم اليهود بعدما منعهم القوط من ممارسة التجارة يعودون كعادتهم إليها، بل يكتسحونها ويفرضون سيطرتهم عليها" إذ لا توجد سلعة من أسواق المغرب الإسلامي وفي حوض المتوسط لم تمرّ على أيدي اليهود"[5] فهاته موجات العبيد، وتلك قوافل الذهب والحرير والتوابل...وغيرها، كما تعاطوا مهنة السمسرة والصيرفة والدلالة، والوراقة وبيع الكتب وهو ماجعل المحتسب يتشدد في هذا الجانب ويمنع تعامل المسلمين معهم.

وفي إطار تمتعهم بحق الملكية تملّك أهل الذمة الأراضي وقاموا بزراعتها بعدما كانوا قبل الفتح أقنانا[6] وأنتجوا مختلف المحاصيل.

فقد وجدوا –بفضل التسامح– الفرص متاحة للعمل في جميع المجالات من زراعة وصناعة وتجارة، فلا قيود تكبلهم، ولا أحقاد تنغص عليهم معيشتهم وتقلص أرباحهم؛ وتحد من حركيتهم الاقتصادية، المهم الالتزام بالقوانين السارية المفعول، وإن لم يمنع هذا من وجود بعض التجاوزات مثل تعاطي اليهود للربا نظرا لأن التعامل بها ليس محرما في شرائعهم مع المخالفين لهم في الملة[7].

---

[1]- محمد محمد مرسي الشيخ: المرجع السابق، ص ص280-286.

[2]- ابن حيان: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق: محمود علي مكي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية لجنة تحقيق التراث، القاهرة د.ط، 1994، ص111. عنان: المرجع السابق، ج1، ص490.

[3]- محمد علي مكي: التسامح الإسلامي: الأندلس نموذجا، مجلة الأندلس؛ مجلة رقمية تصدر عن مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، العدد1، 2002.

[4]- آدم ميتز: المرجع السابق، ص86.

[5]- مسعود كواتي: المرجع السابق، ص149.

[6]- علي حسين الخربوطي: المرجع السابق، ص177.

[7]- مسعود كواتي: المرجع السابق، ص151.

لم يخل جو التسامح في الأندلس من غيوم سوداء عكرت صفاءه بين الفينة والأخرى، فالرهبان والقساوسة المسيحيون المتعصبون لم يستسيغوا التناغم الحاصل والاندماج في سيرورة الحياة الإسلامية والانجذاب الكبير نحو اللغة العربية وثقافتها وآدابها الذي رافقه التحول السلس إلى الإسلام، لذا أوقدوا فتيل فتنة استعرت في نفوس شبان أغلبهم مراهقون، أرادوا أن يصنعوا منهم وجوها رمزية لقضية مقدسة[1] أسموها الاستشهاد المسيحي، وفي الحقيقة ماهي إلا محاولة يائسة لإعادة أبنائهم إلى ثقافتهم ولغتهم، فانتهجوا الانتحار سبيلا، وذلك عن طريق سب الرسول ﷺ والدين الإسلامي والاستخفاف به وسط العامة لإثارة مشاعرهم الدينية، ويرجع ذلك إلى معرفتهم الضئيلة والسطحية المستقاة من كتبهم اللاتينية، فرجال الدين يدرجون الإسلام في نفس مرتبة الوثنية، ويعتبرونه من ابتداع الشيطان[2]، وينبع هذا الجهل من روح التعصب التي تسكنهم، فكل الظروف متاحة ومواتية للتعرف على الإسلام الصحيح من منابعه الأصلية لو أرادوا ذلك، فما يعرفه عامة النصارى -بحكم الاحتكاك اليومي- يفوق معارفهم اتجاه هذا الدين، لذا كان تسامح المسلمين يزيد نفوسهم المتعصبة سخطا، فهم يؤثرون أن يُعَذبوا ويضطهدوا كما اضطُهد القسيسون من قبل، وينقمون على المسلمين أنهم لم يعذبوهم لأن العذاب في نظرهم هو طريقهم لجنات النعيم[3].

وكان قائد هذا التيار الراهب ايلوخيو Eulogio، وهو من أسرة مستعربة ميسورة الحال، أحد إخوته موظف في الدولة، وآخران يشتغلان في التجارة[4]، أي أنّ وضعيته الاجتماعية مريحة وأسرته تجني ثمار التسامح، غير أن الحقد أعمى بصيرته، وحجب عنه إيجابيات الحضارة الإسلامية التي لم يعد يراها إلا خطرا يهدد دينه ومعتقده، وإلى جانبه ألفارو المكتفى رغم إتقانه للغة العربية بالإطلاع على مخطوط لاتيني قديم عثر عليه في أحد الأديرة ببنبلونة ليتعرف من خلاله على النبي مُحَّد ﷺ، المصور بسوداوية قاتمة، وجعل دينه من ابتداع الشيطان[5].

ويعد القس برفكتو Perfecto أول الاستشهاديين المزعومين،حيث استدرج أحد المسلمين إلى نقاش حول العقيدة ، قادته الحماسة إلى فقدان السيطرة على عباراته التي جنحت إلى التطرف في حق النبي والإسلام فسيق برفكتو إلى القاضي، وبوقاحة كرر في مجلسه ما قاله قبلا، وظل مصرا على موقفه، فما كان من القاضي أمام هذا التصلب والمساس بالنبي والدين إلا الحكم عليه بالموت، فقتل يوم عيد الفطر 235هـ/18أفريل 850م.

رُفع برفكتو إلى مرتبة القديسين، واستغل ايلوخيو وغيره من زعماء هذه الحركة موته لشحذ الهمم وإذكاء

---

4 - ماريا روزا : المرجع السابق، ص62.

[2]- دوزي: المرجع السابق، ج1، ص87.

[3]- ستانلي لين بول: قصة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، دار العالم العربي، القاهرة، ط1، 2009، ص62.

4 -العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس...المرجع السابق، ص 145.

[5]- سيمون الحايك: عبد الرحمن الأوسط، المطبعة البولسية، بيروت، د.ط، د.ت، ص169.

لهيب الفتنة ، وقد حذا حوالي أربعون استشهاديا أو يزيد حذوه، منهم فتاتين هما: فلورا Flora؛ ابنة لأم نصرانية، وأب مسلم غادر الحياة وهي صغيرة ، وماريا Maria وهي نصرانية الأب ، أمها مسلمة تنصرت وقد قتلتا في 24نوفمبر 851م/237هـ.

محاولة منه لرأب الصدع وإخماد الفتنة دعا الأمير عبد الرحمن الأوسط سنة 237هـ/852م لعقد مجمع كنسي في قرطبة ضم كل أساقفة الأندلس برئاسة مطران إشبيلية ريكافريدو Recafredo، ومثل الأمير عبد الرحمن فيه كاتبه المستعرب قومس بن أنتنيان، وقد وافق جميع أعضاء المجمع باستثناء أسقف قرطبة ساؤول Saul الذي لزم جانب المتطرفين، على إصدار قرار حرموا فيه ممارسة هذه الطريقة الانتحارية في القادم من الأيام، لأنه لم يكن بإمكانهم استنكارها وهم الذين رفعوا الشهداء إلى مرتبة القديسين، وسيستوجب عليهم ذلك تقبيح مسلك الشهداء في الماضي زمن اضطهاد الأباطرة الرومان، فما كان عليهم إلا القبول بالمسلكين ماضيا وحاضرا واستنكاره مستقبلا[1].

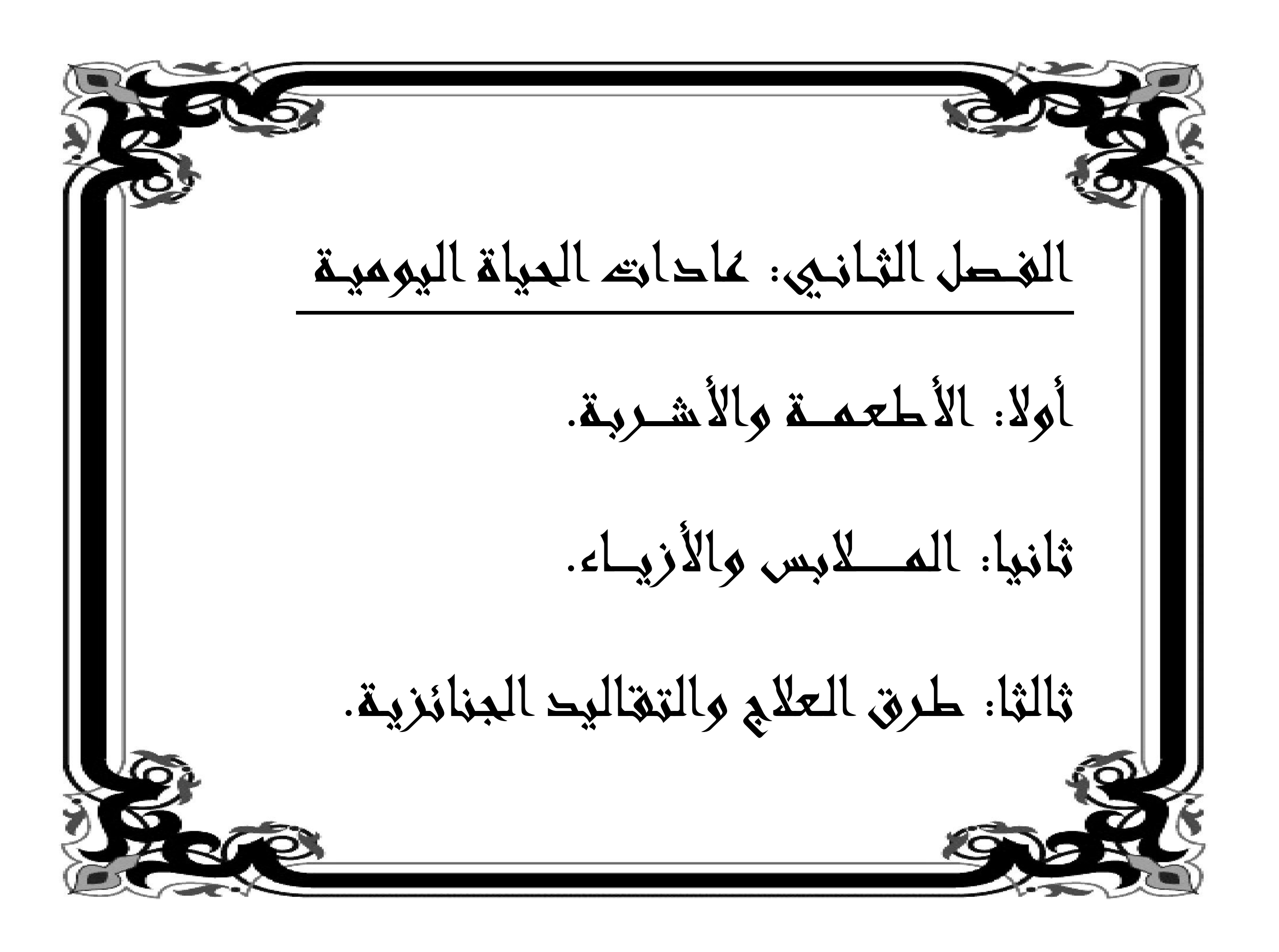
ولكن هذا القرار لم يكف لتسكين فورة التعصب، فسجن العديد منهم وكان من بينهم المحرض إلوخيو الذي قتل سنة 245هـ الموافق لـ11مارس859م، فبموته سرى اليأس والفتور في نفوس المتعصبين وخفتت رويدا رويدا جلجلة أصواتهم، خاصة وأن النصارى المعتدلون استهجنوا هذه الحركة وأدانوها وهم المتهمون من طرف غلاة المتطرفين المبغضين لهم بالمروق والخيانة.

اتخذ بعض المؤرخين من هذه الأحداث نقطة ارتكاز ومشجبا علقوا عليه كل انتقاداتهم؛ فاتهموا الإسلام بالتعصب، والأمير بعدم التسامح مع المسيحيين[2]، كما وجدت ثورات أخرى خارج قرطبة وإن كان يطغى عليها الطابع الاجتماعي، إذ تحالف غالبا المولدون الساخطون مع أهل الذمة في ثوراتهم على السلطة.

مهما عوى المتشدقون فإن للحقيقة وجهها المشرق الذي لا تغطيه ضبابية الافتراءات، والتاريخ الأندلسي يظل زاهيا دائما بألوان التسامح المتألقة في تناسق قوس قزح، هذا التسامح الذي توسعت دائرته ليدخل فيها غير المسلمين في المجتمعات غير الإسلامية، التي تربطها معاهدات وعلاقات ودية معها يتجلى ذلك واضحا من خلال الزيارات الدبلوماسية المتكررة، وحتى المصاهرات بين الحكام المسلمين وملوك الدويلات المسيحية في الشمال، خاصة إبان القرن الرابع الهجري.

---
[1] - سيمون الحايك: المرجع السابق، ص183.

[2] - Lévi-Provençal:op.cit, p140.



الفصل الثاني: عادات الحياة اليومية

أولا: الأطعمة والأشربة.

ثانيا: الملابس والأزياء.

ثالثا: طرق العلاج والتقاليد الجنائزية.

تعُج حياة الإنسان اليومية بالعادات والتقاليد المسافرة عبر الزمن، الحاملة لعبق الماضي، فالحركة الاجتماعية بطيئة التغير نسبيا –خاصة في مجتمعات انعدم فيها التطور التكنولوجي الصارخ الذي نعرفه اليوم– والمجتمع الأندلسي كغيره تجذرت في تفاصيل يومه عادات وإن شابهت نظيراتها في المجتمعات الإسلامية إلا أن لها مميزاتها التي فرضتها تركيبته العرقية و الخصوصية الجغرافية.

وقد تأثرت الشخصية الأندلسية قبل اكتمال ملامحها المعبرة عنها بتيارات وافدة وأخرى محلية، ففي عهد الولاة والسنوات الأولى من عمر الدولة الأموية كانت التيارات البربرية ثم الدمشقية الشامية أكثرها تدفقا وتلاحقا، خاصة وأن عبد الرحمن الداخل بذل جهدا ليجعل من دولته الوليدة في الأرض النائية محاكية لوطنه الأم الذي أُبعد عنه قسرا.

فحدثت القفزة النوعية على يد عبد الرحمن الأوسط الذي تجاوز عقدة العباسيين، فبعد التجاهل التام للحضارة المتفتحة أكمامها في العراق غير الأوسط أسلوب التعامل، وفتح أبواب شبه الجزيرة للتأثيرات العراقية التي تلاحقت أسرابها زرافات ووحدانا إلى الربوع الأندلسية لتضع بصماتها.

أضف إلى ذلك الثقافة الأيبيرية المحلية التي مثلها المستعربون، كما لا يمكننا أن نتجاهل خلفيات العبيد التي هبت كالنسيم اللطف، ومع ذلك تركت أثرا وإن كان لا يُقارن بغيره، وقد نتج عن هذا التلاقح عادات وتقاليد أندلسية يمكن رصدها من خلال:

– الأطعمة والأشربة:

امتازت أطعمة الفاتحين الأوائل بالبساطة كما كانوا يعتمدون على ما عرفوه في بلادهم، وشيئا فشيئا وبامتزاجهم مع سكان المنطقة أخذت أطعمتهم تتغير وتتعدد أنواعها[1]، فالزواج بالاسبانيات فسح المجال للأطعمة الإسبانية لتشق طريقها إلى موائد الأندلسيين، كما تسربت إليها ألوان من الترف بحكم تطور الزراعة، واستجلاب وأقلمة محاصيل جديدة، إضافة إلى نشاط التجارة المتوسطية للأندلس مما ضمن لها الحصول على المواد الأولية اللازمة لصنوف الطعام[2]؛ التي تعددت وتنوعت بتعدد المستوى الاجتماعي للأفراد.

وقد كانت معظم المأكولات تهيأ داخل البيت، وهي تُفضل عن المحضرة في الأسواق لأنها أنظف وأأمن، وقبل الحديث عن أصناف الأطعمة التي عرفها المجتمع الأندلسي، وجب أولا التكلم عن المكان الذي تتم فيه مختلف مراحل العمل، ألا وهو المطبخ، الذي جُهز بما يلزم من وسائل لإعداد الطعام، منها جهازين كبيرين لإنضاجه هما:

– الموقد (كانون النار): يكون إما ثابتا أو متحركا، تصل الحرارة منه مباشرة إلى قاع الإناء الذي تجمع فيه

---

[1]– يوسف دويدار: المرجع السابق، ص288.

[2]– دايفد وينز: فنون الطبخ في الأندلس، من كتاب: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 1998م، ج2، ص1022.

مكونات الطعام[1]، وناره من الحطب.

– التَنُور: يقام عادة في فناء المنزل، وهو يصنع من الطين، يشبه جرة مقلوبة بدون قاعدة، مفتوح في جزئه العلوي، ويحمى بأي وقود في أسفله[2]، ولأن حرارته جافة فهو يستعمل للخبز والشواء[3].

ويمكن التحكم نسبيا في حرارة هاذين الجهازين من خلال كمية الحطب، وأحيانا تسحب بعض الجمرات وتخمد بالماء للوصول إلى الحرارة المناسبة.

إلى جانبهما هناك الرَّضف وهي الحجارة المحماة على النار[4]، تستعمل غالبا لإكمال إنضاج بعض صنوف الطعام، ليعقد ويجف مرقه[5].

إضافة إلى ذلك نجد أدوات الطبخ المستعملة في مختلف الوصفات وأهمها:

– القدور بأنواعها المختلفة حسب الحجم ومادة الصنع، وأفضلها وأكثرها استعمالا قدر الفخار المزجج؛ ومنها غير المزجج، أما المصنوع من النحاس فلم يكن محبذ الاستعمال.

– المهراس ويكون إما من النحاس أو حجر الرخام الأبيض أو العود الصلب المصنوع من خشب البلوط أو الزيتون أو الدردار...وغيرها، ويُفضل النوعان الأخيران عن الأول في دقِّ كل ما فيه رطوبة أو دسم خوف أن يتزنجر ويتغير[6].

– المِقْلى وتكون إما من حنتم[7] وتحتاج أثناء الطبخ لنار قوية، أو من حديد وتتطلب نارا معتدلة[8]، ويرجع ذلك إلى الحرارة اللازمة لتسخن الزيت في كل منهما، فالحديد أكثر امتصاصا للحرارة وأسرع.

– الطاجن لطهى أنواع من الخبز والثرائد.

– الغربال لنخل السميد والدرمك...وما يحتاج للغربلة، وبعضه يصنع من الحلفاء أو الشعر، حسب درجة النعومة المطلوبة.

---

[1]– دايفد وينز: المرجع السابق، ص1023.

[2]– إحسان صدقي العمد: الخبز في الحضارة العربية الإسلامية، حوليات كلية الآداب، مجلس النشر العلمي، الكويت، الحولية الثانية عشرة 1992، ص94.

[3]– دايفد وينز: المرجع السابق، ص1023.

[4]– ابن منظور: المصدر السابق، ص1661.

[5]– مؤلف مجهول: كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، تحقيق: أمبروزيو أويثي ميراندا، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، العدد9، 1961-1962، ص26.

[6]– المصدر نفسه، ص84.

[7]– الحنتم في الأصل جرار خضر تضرب إلى الحمرة، ثم توسعت دائرة استعمال اللفظ لتطلق على عموم الخزف. (ابن منظور: المصدر السابق ص1018.)

[8]– مجهول: المصدر السابق، ص204.

ومن الأواني التي يُقدم فيها الطعام بعد نضوجه نجد:الجَفنة، القصعة، الصحفة[1]، الغَضَار[2]، وهناك أيضا السكاكين والمغارف والملاعق من الخشب الصلب، كما استعملوا أواني الزجاج كالأكواب، وحظيت آنية الذهب والفضة بتقدير كبير[3]، أما المصنوعة من النحاس فلم يُحبذ استعمالها خوف تغيرها وتأثيرها على الطعم.

موازاة مع هذه الأدوات كثيرة الاستعمال نجد المخصوصة بنوع معين من الأطباق، كسُّفُّود[4] الشواء، الفرطون وهو آنية على "شكل كأس كبير واسع الفم وقعره ضيق"[5]؛ ويجهز فيه طبق يعرف بنفس الاسم، آلة الأمخاخ المصنوعة من الزجاج في هيئة السوق وغيرها من العظام، يحشى فيها المخ ويُسد رأسها بالعجين؛ ثم يطبخ في قدر به ماء وملح حتى ينضج ليُفرغ بعدها ويقدم، والمخ من الأغذية المحبوبة المشتهاة، ومن الملوك والرؤساء من يحب أن يجعله جُل غذائه، ولعدم إمكانية توفير كميات كافية منه فقد صنعت هذه الآلة لإعداده[6].

وهناك أيضا المِعجنة التي يوضع فيها العجين ليتخمر قبل خبزه، ويفرش بأسطوانة خشبية تدعى الشوبق، و نجد الطنجير وهو إناء واسع الفم قليل العمق يطبخ فيه السمك، كما لا ننسى الكسكاس[7]، وتعتبر الرحى من الضروريات، فرغم وجود الأرحية العامة، إلا أنه لم يخل بيت منها تقريبا، بل وجدت أكثر من واحدة في البيوت الكبرى[8].

ولحفظ الغذاء يُشترط أن يغطى لأن الهوام تدب بالليل[9]، أما إذا كان ساخنا فيجب أن يكون الغطاء ذو ثقوب صغيرة تسمح للأبخرة بالنفوذ، لأنه اعتقد أن هذه الأبخرة إذا لم تخرج فستحدث آثارا سامة[10]، مع تجنب استعمال أدوات النحاس لهذا الغرض.

إن النظافة شرط أساسي في الطباخ والمطبخ، لذا يجب تنظيف الأواني والقدور بالماء الحار والنخالة دوريا، وإلا تستبدل، فهناك من أمر "أن تُعد له قدور على عدد أيام السنة يطبخ له في قدر جديدة كل

---

[1]- جمعها صحاف، تشبه القصعة، وهي مسطحة عريضة تشبع الخمسة ونحوهم، تصغيرها الصُّحيفة وهي تشبع الرجل. (ابن منظور: المصدر السابق، ص2405.)

[2]- الصحفة متخذة من الطين الحر اللازب.(المصدر نفسه، ص3264.)

[3]- دايفد وينز: المرجع السابق، ص1024.

[4]- هي حديدة ذات شُعب مُعقَّفة يشوى بها اللحم، جمعها سفافيد. (ابن منظور: المصدر السابق، ص2024.)

[5]- مجهول: كتاب الطبيخ، ص27.

[6]- المصدر نفسه، ص36-37.

[7]- دايفد وينز: المرجع السابق، ص1028-1029.

[8]- إحسان صدقي العمد: المرجع السابق، ص47.

[9]- مجهول: المصدر السابق، ص83.

[10]- دايفد وينز: المرجع السابق، ص1024.

يوم، فإذا فرغت اتخذ غيرها."[1] حتى وإن كان في هذا الإجراء المتخذ مبالغة؛ مع كونه غير متاح للجميع، إلا أنه يقف دليلا ساطعا على اهتمام الأندلسيين بنظافة مطابخهم وأدواتهم، حرصا منهم على السلامة ولذة الطعم، لذا نجد صاحب كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس يكرر مرارا عبارات مثل: "تأخذ قدرا نظيفا" "يجعل في قدر نظيفة"، "تؤخذ قدر جديدة" وما شابهها من الجمل التي تصب في نفس المعنى.

وإذا جئنا للحديث عن صنوف الطعام التي عرفها المجتمع الأندلسي نجد أنها لم تكن كلها أندلسية الأصل، فالعالم الإسلامي تشارك مشرقا ومغربا في إعداد ألوان واحدة من الطعام، وإن كان هذا لا يمنع إمكانية دخول تغيير عليها بحكم انتقالها من منطقة إلى أخرى[2]، وأحيانا يطال هذا التغيير الاسم مع بقاء الوصفة كما هي.

ومن الوصفات المشرقية التي أوردتها المصادر الجعفرية[3]، الرشيدية[4]،البرمكية[5]...وغيرها، وإلى جانبها ظهرت أطباق مغربية انتقلت من العدوة إلى الأندلس مع الداخلين إليها، منها: اللمتونية[6]، الصنهاجي[7]، قرصة تونسية[8]...ولم يمنع ذلك من ظهور أطعمة محلية كالطليطلية[9]، كما أضفى الأندلسيون بصمتهم على بعض الأطباق، فأهل قرطبة وإشبيلية يعملون الحوت مغموما في القدر في الفرن عوضا من الطاجن ويخصون بذلك سمك الشابل والشولي.[10]

وقد ظهرت ضمن الأطباق الأندلسية أصناف يهودية[11]، ومع أنه لا يوجد في مكوناتها وطريقة تحضيرها ما يميزها عن غيرها إلا أن إيرادها في كتاب طبخ عربي دليل على الحضور الملموس لليهود في المجتمع الأندلسي.[12]

---

[1]- مجهول: كتاب الطبيخ، ص84.

[2]- دايفد وينز: المرجع السابق، ص1029.

[3]- هي دجاج بالتوابل يضاف إليه البيض. (مجهول: المصدر السابق، ص41.)

[4]- ينظر: المصدر نفسه، ص45.

[5]- تصنع بالدجاج أو فراخ الحمام أو اليمام أو العصافير أو لحم الخروف أو حوت، يطبخ ما حضر منها بعد تقطيعه في قدر بملح وبصل وكزبرة يابسة، وغيرها من التوابل، ولما يقارب النضج يخرج ويقلى، ثم يوضع بين رغيفين ويدخل الفرن، وهو جيد للأسفار. (نفسه، ص 48، 49.)

[6]- نفسه، ص187.

[7]- ينظر: نفسه، ص163.

[8]- ينظر: نفسه، ص206،207.

[9]- نفسه، ص172.

[10]- تُصنع من أي نوع من أنواع الطيور، التي تطبخ نصف طبخ ثم تحكم في السفود وتشوى على الجمر، تفتت بعدها رغف رقاق من الدرمك بحجم الدينار، وتسقى بالمرق الذي يضاف له الزيت والتوابل، وتزين باللوز والجوز والجبن المبشور، ويسكب عليها البيض المخفوق. (نفسه، ص187.)

[11]- ذكر مؤلف كتاب الطبيخ خمسة أطعمة، إثنان منها بالحجل، وإثنان بالدجاج، ولون آخر من بنادق اللحم سماه "لون يهودي محشو مدفون". (نفسه، ص ص67-74.)

[12]- دايفد وينز: المرجع السابق، ص1035.

عموما يمكن إجمال تقاليد المطبخ الأندلسي في:
- الخبز أهم مادة في تغذية السكان، وهو أنواع حسب مادة وطريقة الصنع؛ أفضلها المصنوع من الحنطة، ويأتي في مقدمتها خبز الحُوَّارى أو الدرمك[1]، ثم خبز السميد ويقال السميذ، ويليه خبز الخشكار الذي يخبز من دقيق الحنطة الخشن الذي لم ينخل، وبعدها يأتي خبز الشعير ثم الذرة، فالأرز، فالحمص[2]، فالدُخْن.

يحمل الأندلسي غلته من الحبوب إلى الرحى فيطحنها دقيقا، ثم يصنع منه خبزا يتم خبزه إما في التنور أو الأفران العامة، وكان هذا شائعا وسط الأندلسيين، كما يخبز في الفرن ويباع في الأسواق، ونظرا لأهميته في حياة الأندلسيين فقد شدد المحتسب الرقابة على كل المراحل التي يمر بها تجهيزه من مراقبة المطاحن فالعملة فالباعة، لمحاربة التدليس والغش، لذا اشترط على كل خباز أن يصنع طابعا ينقش فيه اسمه ويطبع على خبزه ليتميز خبز كل واحد بطابعه، وتقوم الحجة على صاحبه[3]، وكانت النظافة من الأولويات؛ فالواجب على عملة الخبز غسل"معاجنهم كل يوم، وغسل مناديلهم وتثقيفها بالليل...ويمنعهم [المحتسب] من العمل قبل الفجر لما يمكن في ذلك الوقت من قلة التحفظ لحدثان القيام من النوم، ويبعثهم على الاغتسال في أكثر الأوقات وغسل رؤوسهم ولاسيما في فصل الصيف وكذلك أواني مهنتهم."[4]
ويورد السقطي في كتابه قصة[5]رغم الصورة السلبية التي تعطيها عن فئة الطحانين إلا أنها تبين أهمية القمح في حياة الأندلسيين، وحجم الاستهلاك الكبير له، فقد كان هناك بناء مقترٌ ضيق الحال، تحسنت أوضاعه المادية في مدة قصيرة بعدما اتخذ رحى، إذ كان يعمل الحيلة ليسرق من زبائنه الدقيق فوق الأجرة التي يأخذها، فلو لم يكن القمح مادة أساسية في الاستهلاك الغذائي للمجتمع لما تبدلت حاله بهذه السرعة ولما قرّر وهو البناء أن يتخذ رحى؛ بعدما شاهد الربح اليومي الكبير الذي يناله صديقه الطَّحان، ومع هذا يبقى كسبا حراما لا بركة فيه.
- استخدام اللحم بكثرة و بمختلف أنواعه كلحم البقر والغنم والأرانب والطيور على أشكالها والسمك، ويشترط في أكثر الوصفات أن يكون طريا، وإن لم يمنع ذلك من استعمال المقدد[6] في أصناف معينة منها

[1]- دقيق القمح الأبيض الناعم المحكم النخل، وتعتبر الغربلة من مظاهر الترف الحضاري الهادفة إلى التأنق في جودة الخبز، ففي البداية كان الدقيق بأنواعه لا يُنخل. (إحسان صدقي العمد: المرجع السابق، ص53.)
[2]- المرجع نفسه، ص ص66-74.
[3]- أبي عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي: كتاب في آداب الحسبة، تحقيق: ج.س. كولان وليفي بروفينسال، مكتبة أرنيست لورو، د.ط، باريس، د.ت، ص10.
[4]- المصدر نفسه، ص30.
[5]- للاطلاع عليها ينظر: السقطي: المصدر نفسه، ص25-26.
[6]- اللحم المقدد أنواع، فإذا شرح اللحم طولا فهو القديد، أما إذا شرح عرضا فهو الصَّفِيف، ويتم تجفيفه بطرق عدة فالعفير يجفف على الرمل في الشمس، وإذا جفّ وبقيت فيه نداوة فهو شَسِيف، اما اليابس فهو القَصِيد. (أبي الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي المعروف بابن سيدة: المخصص، المطبعة الكبرى الأميرية، ط1، بولاق مصر، 1317هـ، ج4،ص125-126.)

صنعة جازية بقديد[1] وبشكل ضئيل.

وقد يوجد أكثر من نوع وبأكثر من صفة في الطبق الواحد، فالكامل مثلا كبش مشوي يُحشي في جوفه دجاج وسمان وحمام ويمام و عصافير مطبوخة ومقلية ومحشوة هي الأخرى، ثم كرات اللحم المطبوخة المعروفة بالبنادق[2] و المركاس المقلي[3]، إن هذا الطبق يوحي بأنه أرستقراطي، ولكن حتى الأطباق العادية لم تخل من اللحم فالجشيش دقيق مجروش يوضع في قدر ثم يضاف له لحم وتمر[4]، والخزيرة تكون بلحم يقطع صغارا على ماء كثير، فإذا نضج ذُرَّ عليه الدقيق[5]، والهريسة المصنوعة إما بالقمح أو الأرز أو فتات خبز الدرمك تتخذ من لحم العجل أو الضان أو الإوز[6]، وبعض الوصفات إلى جانب الخضار المتنوعة التي تحتويها كالجزر والباذنجان والخرشوف والقرع...فاللحم مكون أساسي فيها.

ويُلاحظ أن البنادق والأحراش[7] والسنبوسك[8] والمركاس المصنوعة من اللحم المدقوق لا تقدم كطبق مستقل بل تزين بها أطعمة أخرى.

ونجد لحم البقر أكثر حضورا في طعام الأندلسيين منه عند المشارقة ، ولكن إستهلاك لحم الضأن والحمل يبقى الأكبر يليه الدجاج والطيور الأخرى[9]، كما استهلكوا الأسماك بكثرة، خاصة وأن الأندلس تطل على واجهتين بحريتين مما يسمح بتوفر هذه المادة، حتى أن الفقيه أحمد بن سليمان بن خديج الأنصاري (ت 390هـ)، أقسم ألا يأكل اللحم ويستسيغه إلا أن يكون لحم حوت [10].

إلى جانب هذه الأنواع من اللحوم أكل الأندلسيون أنواعا أخرى أقل انتشارا، منها: الجراد[11]، القنافذ، فهذا ابن شُهيد يقول:

هل أبصرت عيناك يا خليلي   قنـافـذا تُباَع في زَنبيل؟
من حَرشَفٍ مُعتمدٍ جليل   ذي إبر تنْفُذُ جلد الفيل
....

---

[1]- للتعرف على الوصفة ينظر: مجهول: كتاب الطبيخ، ص145.
[2]- للتعرف على الوصفة ينظر: المصدر نفسه، ص116.
[3]- نفسه، ص31. (وللتعرف على طريقة صنع المركاس ينظر: نفسه، ص21.)
[4]- حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج1، ص242.
[5]- ابن سيدة: المصدر السابق، ج4، ص145.
[6]- مجهول: المصدر السابق، ص191-192.
[7]- للتعرف على الوصفة ينظر: المصدر نفسه، ص22.
[8]- للتعرف على الوصفة ينظر: نفسه، ص117.
[9]- دايفد وينز: المرجع السابق، ص1030.
[10] - أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال:كتاب الصلة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، د.ط، مصر، 1996، القسم1، ص09.
[11]-كانت العرب تطبخ من الجراد أكلتين هما: العبيثة وتعرف أيضا بالغثيمة؛ والوهيسة وهي أن يطبخ الجراد ثم يدق ويخلط بدسم. (محمّد بن فارس الجميل: الأطعمة والأشربة في عصر الرسول ﷺ، حوليات كلية الآداب، مجلس النشر العلمي لجامعة الكويت، الكويت الحولية السابعة عشر، 1996-1997م، ص69.)

نُقل السخيف المائع الجهول وأكل قوم نازحي عقول
أقسم لا أطعمتها أَكِيلي ولا طعمتها على شَمولِ[1]

ومن خلال أبياته يبدو ناقما على آكليها إذ يصفهم "بنازحي العقول"، كما أقسم على عدم أكلها أو إطعامها ضيفه، وهذا يوحي بأنها لم تكن مستساغة واستهلاكها نادر.

– شُيوع استعمال البيض في المطبخ الأندلسي وبكميات كبيرة، فقد يزيد عددها أحيانا عن العشرة[2] في الطبق الواحد، وغالبا يُخفق ويضاف للطبق من أجل تحميره وقد يضاف معه دقيق درمك أو فتات خبز أو يوضع في الحشو ليتماسك، أو يسلق ثم يقطع للتزيين، وأحيانا يدخل كمكون أساسي تقوم عليه الوصفة، فمن أنواع الاسفريا نوع يسمى الاسفريا الساذجة بالبيض فقط دون اللحم[3].

ولأن البيض المخفوق يستر ما تحته فقد منع المحتسب الطباخين في الأسواق من تغطية وجه الطعام به[4].

– بالغ الأندلسيون في استعمال التوابل: كالكزبرة والكمون والقرفة والزعفران والقرنفل والزنجبيل...إلخ واعتبروها ضرورة لا يكتمل الطبق بدونها، واعتنوا بإضافتها مع ما يتناسب وخصائص كل لون من الأطعمة، فتصريفها "في ألوان الطبخ أصل عظيم، فإنه أس الطبخ، وعليه ينبني"[5]، لأنها تساهم في تقديم أصناف متوازنة في الطعم والرائحة، كما أن لها خصائص حفظ الطعام من التلف[6]، ولها إلى جانب ذلك فوائد صحية، فالكزبرة اليابسة مثلا توقف الطعام في المعدة فلا ينزل حتى يُهضم، والكمون طارد للغازات[7]...وقس على ذلك مع بقية الأنواع.

– لجأ الأندلسيون إلى الأفران العامة ليس من أجل طبخ الخبز فقط بل كانت هناك وصفات تعد فيه إما إعدادا كاملا أو جزئيا، نظرا لحرارته المناسبة، والحاجة إلى الأدوات اللازمة للطبخات الكبيرة أو في المناسبات الخاصة[8]، لذا نجد المحتسب يأمر الفرانين بتعهد الطعام عند إدخاله الفرن كي لا تغلب عليه النار ويحترق فتفسد بذلك أمتعة الناس، كما نُهي عن استعمال حطب الأزقة والمواضع القذرة التي لا تؤمن نجاستها[9].

– نقل الأمويون معهم الاهتمام بالحلوى كأجدادهم في بلاد الشام، لذا نجد لها حضورا قويا في الطعام الأندلسي، فقد برعوا في صناعتها، وتفننوا في أصنافها، ويغلب استعمالهم للعسل والزيت في إعدادها.

---

[1]- ابن شُهيد: المصدر السابق، ص115.
[2]- مجهول: كتاب الطبيخ، ص135.
[3]- المصدر نفسه، ص23.
[4]- ابن عبدون وآخرون: المصدر السابق، ص97.
[5]- المصدر نفسه، ص79.
[6]- وينز: المرجع السابق، ص1025.
[7]- مجهول: المصدر السابق، ص79-80.
[8]- وينز: المرجع السابق، ص1023.
[9]- ابن عبدون وآخرون: المصدر السابق، ص91.

وتتجلي التأثيرات المشرقية سواء الدمشقية منها أو البغدادية أو حتى الفارسية في أنواع الحلويات التي تلذذ بها الأندلسيون، إذ نجد أن المتداول منها في الأندلس هو امتداد لما كان موجودا في العالم الإسلامي. وانطلاقا من المصادر المتاحة يمكننا تعداد بعض أصنافها، فهناك: الكنافة والقطايف التي فاضل الشعراء بينهما مرارا، ويقال أن الكنافة صنعت أول مرة لمعاوية بن أبي سفيان، فقد كان يجوع في رمضان جوعا شديدا، فشكى ذلك إلى الطبيب مُحَّد بن أثال، الذي اتخذها له، فصار يتسحر بها، وهذان الصنفان شائعان جدا في بلاد الشام، ولهما حضور مميز وطاغ.

ومن الحلويات أيضا: اللوزينج و الفالُوذج وهما من أصل فارسي، الزلابية، الخَبيص[1]، القاهرية[2]، الكعك وشبيهه الخشكلان[3]، تمر النشا، القبيطاء، سكرية، الضفائر[4].

ولابن شُهيد رسالة ظريفة في الحلواء[5]، أوردها ضمن رسالة "التوابع والزوابع"، إضافة إلى أنواع الحلوى التي توردها نستطيع أن نستنتج من خلالها بعض الحقائق التاريخية منها:

*حب الأندلسيين للحلوى وشرههم في أكلها، فشخصية الفقيه في الرسالة إسقاط لذلك.

*رخص أسعار الحلوى مما يجعلها في متناول الجميع وليست حكرا على طبقة دون سواها.

*شيوع بيع الحلوى كغيرها من الأطعمة في الأسواق، بل تتواجد بكميات كبيرة.

*الأسواق تظل مفتوحة أمام الزبائن حتى وقت متأخر من الليل، فشاعرنا وأصحابه قصدوها بعد فراغهم من صلاة العشاء في المسجد.

– لم تنل كل أصناف الطعام نفس الحظوة على المائدة الأندلسية، فقد فُضل بعضها على الآخر؛ ونال الصدارة، كالثريد فمنه الكامل الذي يتكون من عدة أنواع من اللحم والطيور بكثير من التوابل وعيون البقر، والأحراش والبنادق والمركاس، والبيض والزيتون، تقدم مصفوفة بنظام، لذا يوصف بأنه أحد أطعمة الملوك والوزراء[6]، والكسكسو الذي اعتبر من الأطعمة التقليدية في الأندلس وشمال إفريقيا، ولا أدل على شهرته من قول صاحب كتاب الطبيخ: "الكسكسو المسقى المعهود يعرفه جميع الناس"[7]، لذا نجده يورد نوعاواحدا منه في كتابه يسمى الفتياني[8]، لعدم حاجته إلى التفصيل فيما هو شائع.

---

[1]– حلوى تصنع من التمر والسمن، وسميت بذلك من الخبص أي الخلط، لأنهما يقلبان ويخلطان.

[2]– أورد صاحب كتاب الطبيخ خمس أنواع، منها المسماة بالصابونية والشمسية، تصنع أساسا من لوز مدقوق وسكر يشكل كالسوار، تغمس في دقيق درمك ونشاء محلول في ماء أو نشاء فقط، ثم تقلى في الزيت ويصب علها العسل ويذر السكر المسحوق، ومنها ما يطبخ في الفرن. (مجهول: كتاب الطبيخ،ص212،211،94.)

[3]– المصدر نفسه، ص208.

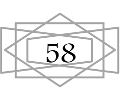
[4]– قريبة الشبه مما نسميه عندنا "قريوش"، ينظر: مجهول: المصدر السابق، ص96.

[5]– ينظر: ابن شهيد: المصدر السابق، ص ص208-210.

[6]– مجهول: المصدر السابق، ص180.

[7]– المصدر نفسه، ص181.

[8]– ينظر: نفسه.



واحتلت المجبنات مكانة في نفوس الأندلسيين، إذ كانت من الأكلات المفضلة عندهم، واشتهرت شريش بإحسان صنعتها، ساعدها على ذلك طيب جبنها، ويقول أهل الأندلس: "من دخل شريش ولم يأكل المجبنات فهو محروم."[1]، وهي نوع من المعجنات، تصنع بعجين درمك أو سميد به خميرة، وتحشى بالجبن الذي يشترط أن يكون مزيج الربع من جبن البقر مع ثلاثة أرباع من جبن الغنم، حفاظا على تماسك الحشو كي لا يسيل في المقلاة، ثم تقلى في الزيت وتقطر، بعدها يذر عليها سكر كثير وقرفة، ويمكن أكلها بالعسل أو شراب الورد[2].

وقد انتقدت العامة تقديم الأكلات المتواضعة للضيوف كالبركوكش، فهم يقولون في أمثالهم: " آش دخل بركوكش في الضيافة."[3]

– نظرا للخصائص الطبيعية للأندلس وما حباها الله به من خيرات، إضافة إلى رواج الزراعة وبراعة الأندلسيين فيها فقد كانت الفواكه متوفرة كمًا ونوعًا، فكتب الجغرافيا تثني على التين المالقي والإشبيلي والرمان السفري، لذا استهلكها الأندلسيون بكثرة، وتهادوها فيما بينهم، فهذا ابن عبد ربه يصف سلة عنب أهديت إليه قائلا:

أُهديت بيضا وسودا في تلونها كـأنَّها من بنات الروم والحبشِ
عـذراء تـؤكل أحيانا وتشرب أحيانا فـتَعصمُ من جـوع ومـن عـطـش[4]

وهذا أحمد بن فرج يقول في بعثه فاكهة:

بعثت بها أشباه أخلاقِكَ الزهر بـحـظَّين مـن طيـب المـذَاقة والنشرِ
ملوَّنـة لـونين تحكـيهما معـا بتلك الأيادي البيض والنعم الخضر[5]

كان تقديم الطعام يتم على نسق محدد، إذ توضع على المائدة ألوان مفردة، لون بعد لون آخر مرتبة[6]، فيُبتدأ بالحساء أو المقبلات ثم اللحم والخضراوات وأخيرا الحلوى والفاكهة، ولزرياب[7] لمسته في تهذيب الذوق الأندلسي، إذ علمهم تفضيل آنية الزجاج الرفيع على آنية الذهب والفضة، وفرشِ أنطاع الأديم اللينة الناعمة على الكتان، لأنه أسهل للتنظيف[8]، كما أدخل للمطبخ الأندلسي ألوانا من الطهي

[1]– المقري: المصدر السابق، ج1، ص180.
[2]– مجهول: كتاب الطبيخ، ص199،200.
[3]– الزجالي: المصدر السابق، ص25.
[4]– أبو عمر أحمد بن عبد ربه: ديوان ابن عبد ربه، تحقيق: رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1979، ص96.
[5]– أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب: كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، د.ط، بيروت، د.ت، ص87.
[6]– مجهول: المصدر السابق، ص85.
[7]– هو أبو الحسن علي بن نافع، ولد في الموصل ونشأ ببغداد، تتلمذ على يد إسحاق الموصلي إلى أن أتقن فنّ الغناء، حصل بينهما خلاف اضطر على إثره زرياب للانتقال إلى الأندلس، التي نال فيها الحظوة،
[8]– المقري: المصدر السابق، ج3، ص128.

العراقي، منها التفايا[1] التي تصنع بماء الكزبرة الرطبة المحلات بالسنبوسق والكباب، وعرفهم بقلة الهليون المسماة بلسانهم الإسفراج، التي لم يكن الأندلسيون يستعملونها قبله[2]، وابتدع لونا من التقلية منسوبة إليه يطبخ فيها الدجاج والأرانب في ماء كثير الأفاويه والتوابل[3].

إلى جانب الطعام البيتي حُضر الطعام في الأسواق وبيع فيها، وقد وضع المحتسب شروطا صارمة لهذا النشاط نظرا لإمكانية تحوله إلى خطر يهدد صحة الإنسان، وكانت عينه لا تغفل عن مراقبة وردع أي تجاوز أو مخالفة، فمن لا يرتدع بالزجر يُعاقب بالإخراج من السوق ورفع يده من البيع[4].

ففي السوق نجد دكاكين الخبازين والطباخين والقلائين والهراسين، وبائعي الجبن واللبن والحلوى، وقد كان يؤمر هؤلاء بعدم مجاورة أهل الحرف القذرة كالبياطرة والحجامين...وما شابههم، والحرص الشديد على النظافة، مع تغطية أوانيهم، وإنعام طبخ مختلف الأصناف التي يُعِدونها من سمك أو إسفنج أو مجبنات أوهرائس...إلخ دون غش في مكوناتها، مع تخير الجيد منها[5].

كما وجد ما يشبه المطاعم إلى حدّ ما؛ فبإمكان المستهلك تناول الطعام الذي ابتاعه في المحل الذي يصنعه إن أراد ذلك، أو يأخذه في أوعية[6].

لم تكن غاية الطعام الوحيدة سدُ الرمق، بل استُعمل أيضا كدواء، فإضافة لدخول بعض المواد كمكون أساسي في الطعام والدواء في نفس الوقت، أتخذ الغذاء كطريقة للعلاج أو مكمل له، فالرازي يؤكد على ضرورة معرفة الطبيب لطعام وشراب مريضه لأن ذلك مما يقلل الخطأ في العلاج، كما ينصح الأطباء قائلا: "ينبغي أن تأمر له كل يوم أن يتخذ له من الغذاء ما تعلم أنه يكون مصلحا لما تناوله في أمسه من أغذية، دافعا لما ينتظر من مضرته، ومل في ذلك إلى ما يشتهيه ميلاناً ما، فإن الطعام المُشتهى أوفق للأصحاء والمرضى مما لا يُشتهى."[7]

ونجد مؤلف كتاب الطبيخ يشير في الكثير من الأحيان وفي أكثر من موقف إلى الفائدة المرجوة من الطبق مبينا تأثيره على آكله، مرفقا نصائح للاستفادة المثلى منه، الأكثر من ذلك أنه يُلحق الكتاب في نهايته بفصل عن الأشربة والربوبات والجوارشنات المساعدة على الهضم[8]، التي لها خصائص علاجية وفوائد صحية جمة.

---

[1]- ينظر: مجهول: المصدر السابق، ص118،119.

[2]- المقري: المصدر السابق، ج3، ص127

[3]- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج2، دار الجيل، بيروت، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ط14، 1996، ص348.

[4]- ابن عبدون وآخرون: المصدر السابق، ص126.

[5]- المصدر نفسه، ص90-100.

[6]- السقطي: المصدر السابق، ص37.

[7]- أبو بكر محمد بن زكريا الرازي: أخلاق الطبيب، تحقيق: عبد اللطيف محمد العبد، مكتبة دار التراث، ط1، القاهرة، 1977، ص41.

[8]- ينظر: مجهول: كتاب الطبيخ، ص235 ومابعدها.

كما تُحذر من الجمع بين بعض الأطعمة في وقت واحد نظرا للأضرار الصحية التي تسببها، من ذلك السمك والرايب، أو البيض والجبن أو أشباه هذه[1]، أو الطعام البطيء الهضم مع سهل الهضم فهو مسبب للتخم والجشأ الحامض، فالأصح أن يؤكل وحده عند الجوع الشديد والشهوة الصادقة ليسهل هضمه على المعدة، مثل الهرائس واللحوم البقرية والمحاشي الدسمة...وما يقوم مقامها[2].

ووجدت أطعمة مناسباتية تحضر في ظروف معينة، كالجنانية التي تعمل في الجنات والبساتين[3] الضَّبيبَة وهي سمن ورُبٌّ يُجعل للصبي في العكة يطعمه عند الفطام، الفريقة والفُؤاره للنُفساء، تصنع الأولى بخلط البر مع بعض الأشياء، أما الثانية فتكون بطبخ الحلبة والتمر ويمكن إطعامها للمريض كذلك لفوائدها[4].

وامتاز المطبخ العربي عموما بإعطاء اسم لأطعمة المناسبات يتوافق مع الحدث الذي جُهزت لأجله يقول الشاعر:

أسامي الطعام إثنان من بعد عشرة ... سـأسـردها مقـرونـة ببيـان
وليمـة عـرس ثم خُـرس ولادة ... عـقـيقة مـولود وَكيرة بـان
وَضيـمة ذي مـوت نـقيعة قـادم ... عَـذيرٌ أو اعـذَارٌ ليوم ختـان
ومـأدبـة الخـلان لا سبب لهـا ... حِـذَاق صبي يوم ختم قـران
وعـاشرها في النظم تُحفَة زائر ... قِرى الضَّيف مع نُزُلٍ له بأمان[5]

إلى جانب تحضير الطعام كان المطبخ أشبه بمعمل لإعداد المأكولات التي تخزن للاستعمال اللاحق مثل المخلل الذي يعرف بالمربى ويكون بمزج الملح والخل والماء مع أي نوع من الخضر أو الفواكه أو السمك إضافة إلى الرُّب والخل والخردل والمريّ المصنوع من عصير العنب الممزوج بالأفاويه[6]، يستخدمه الأندلسيون بكثرة، فهو عندهم ضروري كالملح، وكل ما يتعلق بصحة الأسرة -كما سبق شرحه- وكانت أشبه بالفعاليات الموسمية التي تحتاج للتنظيم المحكم لضمان حسن سير العمل[7].

أما فيما يخص الشراب فالماء أساسه ولا غنى لكائن حي عنه، في بيوت الأغنياء يبرد صيفا بالثلج الذي يؤتى به من قمم الجبال[8]، كما نجد الحليب بأنواعه، الذي حرص المحتسب ألا يخلط الجديد منه

[1]- مجهول: كتاب الطبيخ، ص40.
[2]- المصدر نفسه، ص76.
[3]- نفسه، ص172.
[4]- ابن سيدة: المصدر السابق، ج4، ص145،144.
[5]- شمس الدين محمد بن علي بن طولون: فصّ الخواتم فيما قيل في الولائم، تحقيق: نزار أباضه، دار الفكر، ط1، دمشق، 1983، ص39.
[6]- مجهول: المصدر السابق، ص 82.
[7]- دايفد وينز: المرجع السابق، ص1028.
[8]- أحمد أمين: المرجع السابق، ص279.

بالقديم ولا المخيض بالشراز، ولا الطيب بالرديء، ولا يضاف له الماء[1].

ولأن الأندلس أشبه ببستان مفتوح متنوع الأشجار والأثمار فقد وجدت العصائر على اختلافها، كما شرب أهلها النبيذ والخمر رغم حرمته، بل كان له حضور طاغ في مجالس الندماء خاصة، قال إسماعيل بن بدر:

تعاطينا على الريحان راحا ... وواصلنا المساء بها الصباحا
هببنا أن زقا ديك صدوح ... وصفق بالجناح لنا جناحا
كأن مناديا نادى علينا ... ألا حيُّو على الكأس الفلاح[2]

ساعد على وفرته انتشار حقول العنب، ويتغنى الشعراء بأنواعه ويفاضلون بينها، فمنها: الأبيض والأصفر والأحمر والوردي...وغيرها.

قال ابن هذيل في الأبيض منها:

لعبت بأيام الزمان وطاولت ... مُدد الليالي فهي جرم صاف
فإذا استقرت في الكؤوس حسبتها ... منها، لرقة جرمها المتكافي
عصرت كأن من الآلئ ذوبت ... فشرابها من كل ضر شاف
قد أوهمت حَكم الحدود فظنها ... ماء وقد حكمت بحكم خاف[3]

وهذا جعفر بن عثمان المصحفي يصف الصفراء:

صفراء تبرق في الزجاج فإن سرت ... في الجسم هبَّت هبَّ صِلٍّ لادغ
عبث الزمان بحسنها فتسترت ... عن عينه في ثوب نور سابغ
خفيت على شُرابها فكأنما ... يجدون ريا في إناء فارغ[4]

أما مُحَّد بن إبراهيم فيقول في الحمراء:

ومُدامة حمراء نصرانية ... زهراء جاء بها نديم أزهر
صبوا عليها الماء حتى خلتها ... لمَّا أتتهم مسلما يتطهر[5]

أيا كان اللون أو النوع فإن الجلي شيوع تعاطي المدام والتلذذ بها بين مختلف فئات المجتمع، فلا وقار المنصب والغنى يقف حائلا، ولا عوز الفقر والفاقة، حتى تخال أنها جزء مهم من تفاصيل اليوم لدى البعض، لا تكتمل دورته بدونها.

---

[1]- ابن عبدون وآخرون: المصدر السابق، ص92.
[2]- ابن الكتاني الطبيب: المصدر السابق، ص93.
[3]- المصدر نفسه، ص96.
[4]- ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص255.
[5]- ابن الكتاني الطبيب: المصدر السابق، ص97.

– الملابس والأزياء:

إن اللباس إلى جانب كونه ضرورة حياتية يحمل بين ثناياه دلالات اجتماعية وحضارية، ويحوي في طياته معلومات عن المستوى المعيشي للأفراد وانتماءاتهم، وفصولا من عاداتهم وتقاليدهم، ومستوى التطور والرقي الذي عرفوه، فملابس العرب مثلا في بداوتهم كانت بسيطة، بيد أن سلسلة الفتوحات الإسلامية واحتكاكهم بالشعوب العريقة في الحضارة خاصة الفرس غير الكثير فيها، لتصبح متنوعة مثقلة بالأبهة[1].

ويتجلى واضحا مما جاء في المصادر–على قلته– أن أزياء الأندلسيين امتازت بالتنوع من حيث الخامات والألوان والأشكال، وبالفخامة والجمال خاصة بالنسبة لأزياء الأعيان، وساعد على ذلك رواج صناعة النسيج وازدهارها في الأندلس، إذ أقيمت دور الطراز في مختلف ربوعها، ويعود الفضل الأكبر في ذلك للأمير عبد الرحمن الأوسط؛ الذي فخم الملك وكساه أبهة الجلالة[2].

وقد برعت واشتهرت أكثر من مدينة في هذا المجال، نذكر منها: قرطبة، بجانة، المرية، إشبيلية، مرسية وغرناطة، ففي المرية وجد ثمانمائة نول لنسج طراز الحرير، ولحلل الحرير النفيسة والديباج الفاخر ألف نول، والسقلاطيون كذلك[3]، أما جيان فلها زائد على ثلاثة آلاف قرية كلها يُربى فيها دود الحرير[4]، مما يدل على إنتاجها الضخم الكبير، ومنسوجات بجانة تُحمل إلى مصر ومكة واليمن وغيرها[5]، فرواج منتجاتها وقدرتها على المنافسة دليل آخر على الجودة والوفرة.

ساعدت عوامل عدة على ازدهار صناعة النسيج والطراز منها:

– أهمية هذه الصناعة؛ فالطراز من أبهة الملك والسلطان وشارة من شاراته، لذا أولاه الأمراء والخلفاء عناية كبيرة؛ وترددوا على زيارة دور الطراز ومراقبة العمل فيها، مثلما كان يفعل الحكم المستنصر، الذي عاين في أحد زياراته ضيق مقبرة أم سلمة، الواقعة عند باب اليهود أحد أبواب قرطبة فأمر بتوسيعها[6].

– وفرة المواد الأولية الخام من صوف وقطن وكتان وحرير وفراء...إلخ[7]، ففي وادي آش وإشبيلية وميورقة نجد القطن، فقطن إشبيلية "يعم أكثر بلاد الأندلس، ويجتاز به المتجهزون من التجار إلى إفريقية وما هنالك"[8]

1– R.P.A.Dozy : Nom de vêtements chez les arabes, l'institue royal des pays-pas, Amsterdam, 1845, p1-2.

2– ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص91.

3– محمود مقيدش: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق: علي الزواري ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1988، ص159.

4– الحميري: المصدر السابق، ص70.

5– ابن حوقل: المصدر السابق، ص109.

6– ابن حيان : المصدر السابق، ص68.

7– Joseph Calmette: Histoire de L' Espagne, flemmions editor, Paris, 1947, p101.

8– الدلائي: المصدر السابق، ص96.

أما في شلير ولاردة فيتوفر الكتان، واشتهرت سرقسطة بفراء السمور، فلأهلها "فضل الحكمة في صنعة السمور والبراعة فيه بلطيف التدبير يقوم في طرزها بكمالها منفردة بالنسج، وهي الثياب المعروفة بالسرقسطية لا تُدانى تلك الصنعة ولا تحكى في أفق من الآفاق."[1]

إضافة للأصبغة، فنجد مثلا حشرة القرمز التي تعيش على أشجار البلوط المنتشرة بكثرة في الأندلس، وهي تجفف وتسحق ثم تنقع لاستخراج اللون الأحمر الأرجواني، وللزعفران حضوره القوي نظرا لانتشار زراعته، ومن الأصبغة كذلك النيلة، وكان الصباغ يحتاج لمواد لتثبيت اللون منها الشب...وغيره من المعادن التي تزخر بها الأندلس.

- التحكم في المهارات التقنية، واليد العاملة متاحة، فمهنة الغزل والخياطة من أفضل المهن المطروقة بين الناس[2] تمارسها النساء في البيوت، ويمكننا أن نستدل من توسيع المستنصر لسوق البزّازين[3] على رواج هذه التجارة، حتى وإن كانت الحالة المادية للعمال بدور الطراز الخاصة أحسن من العامة[4].

- الأندلسيون بطبعهم محبون للتأنق مولعون بالجمال، مقبلون بشغف على الأزياء الفاخرة، وقد تضاعف هذا الإقبال والشغف في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط الذي فخم السلطة، والتمس مظاهر الأبهة، وفتح أبواب الأندلس أمام ذخائر العراق، وبذل جهدا ليضاهي العباسيين ويتفوق عليهم، وسار رعيته على نهجه، فتعددت منذ ذلك الحين الطرز في الأندلس، ولم تعد قاصرة على حضرة قرطبة فقط[5].

ويمكن تبيين ما لبسه الأندلسيون على النسق التالي:

1- ملابس الرجال: تتمثل في:

أ- أغطية الرأس: وهي:

*العمامة: تاج العرب كما توصف، تسمى أيضا العصابة، وهي ما يُلاث على الرأس تكويرًا[6]، تختلف من حيث مادة الصنع وحسب المكانة الاجتماعية لحاملها، لذا نجد: عمائم الوشي المطرزة بالذهب، عمائم الشرب المصنوعة من نسيج الكتان الرقيق وعمائم الفوط الملونة المنسوجة من الصوف غالبا[7].

1- المقري: المصدر السابق، ج1، ص192.

2- أوليفيا ريمي كونستبل: التجارة والتجار في الأندلس، ترجمة: فيصل عبد الله، مكتبة العبيكان، ط1، الرياض، 2002، ص ص233-235.

3- تمّ ذلك سنة 361هـ، إذ نُقلت دار البرد التي بغربي قصر قرطبة وفي صدر سوقها الأعظم إلى دار الزوامل، ونقلت هذه الأخيرة إلى الدار التي بقرب المحبس عند قصر الناعور، وتحويل دار البرد إلى حوانيت للبزازين، وهم بائعوا الثياب والأقمشة. (ابن حيان: المصدر السابق، القسم الخاص بالمستنصر، ص48.)

4- بثينة جبار زاجي الغزي: الحياة الاجتماعية في مؤلفات ابن الخطيب (ت776هـ - 1374م)، رسالة دكتوراه، كلية التربية بالجامعة المستنصرية، بغداد، 2006، ص111.

5- سحر السيد عبد العزيز سالم: ملابس الرجال في الأندلس في العصر الإسلامي، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد 1995، مج27، ص160.

6- ابن سيدة: المصدر السابق، ج4، ص82.

7- سحر السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص164.

قلّ استعمالها بين الأندلسيين، فالغالب عليهم تركها خاصة في شرق الأندلس، متأثرين في ذلك بالنصارى المجاورين لهم، أما في غربها فقد لبسها الفقهاء والقضاة وذوو المكانة والعلماء[1]، إذ فضلوها ورأوا فيها رمزا للهيبة والوقار وتمييزا لهم بين العامة[2]، "أما الأجناد وسائر الناس فقليل من تراه بعمة في شرق منها أو غرب"[3]، فالأندلسيون عموما لا يستطرفون العمائم، حتى أن فقيها بحجم يحي بن يحي الليثي لم يكن يرتديها، وعندما سئل عن لبس العمائم قال:"هي لباس الناس، وعليه كان أمرهم في القديم، فقيل له: لو لبستها لاتبعك الناس في لباسها؟ فقال: قد لبس ابن بشير الخز فلم يتبعه الناس، وكان ابن بشير أهل أن يقتدى به، فلعلي لو لبست العمامة لتركني الناس ولم يتبعوني كما تركوا ابن بشير."[4]

ومما يُؤخذ على الحاجب عبد الرحمن شنجول بن المنصور أنه أرغم أهل الخدمة بطرح القلانس ولبس العمائم[5]، ونستشف من النص الذي أورده ابن عذارى في هذا السياق عدة حقائق منها:

- عزوف الأندلسيين عن لبس العمائم وتحبيذهم القلانس، فرجال المملكة وذوي الهيئات من أهل الخدمة يرونها تيجانهم التي يباهون بها أهل المملكة، وما كانوا ليتخلوا عنها لولا الخوف.
- يعطينا ابن عذرى وصفا لشكل القلانس فهي طويلة مرقشة ملونة.
- استهجان الناس للزي الجديد ووصفه بالقبح والتطير منه تأكيد على مخالفة لبس العمائم للذوق العام الشائع.
- الاستعانة بالبربر للبس العمائم دليل على احترافهم لبسها، وتفننهم في ذلك، حتى صارت لصيقة بهم في نظر الأندلسيين، فأمثالهم الشعبية تقول:"طالع هابط بحل عمام في راس مرابط"[6]، وتصفهم المصادر بأصحاب العمائم، ولذا كان الخلفاء الأمويون يقدمونها كهدايا لهم، منها هدية الحكم المستنصر

وكانت للأندلسيين طرقهم الخاصة في ارتدائها "فالذؤابة لا يرخيها إلا العالم، ولا يصرفونها بين الأكتاف وإنما يسدلونها من تحت الأذن اليسرى، وهذه الأوضاع التي بالمشرق في العمائم لا يعرفها أهل الأندلس وإن رأوا في رأس مشرقي داخل إلى بلادهم شكلا أظهروا التعجب والاستظراف، ولا يأخذون أنفسهم بتعليمها لأنهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا غير أوضاعهم."[7]

---

[1]- المقري: المصدر السابق، ج1، ص212،213. ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، ط1، القاهرة، 1974، ج1، ص136.

[2]- ثريا محمود علي الحسن: أزياء المجتمع الأندلسي من سنة 92هـ-625هـ، مجلة كلية الآداب، بغداد، العدد 102، 2012، ص195.

[3]- المقري: المصدر نفسه، ص213.

[4]- الخشني: المصدر السابق، ص85.

[5]- ابن عذارى: المصدر السابق، ج3، ص 48.

[6]- الزجالي: المصدر السابق، ص246.

[7]- المقري: المصدر السابق: ص113-114.

*القلنسوة: هي ما يغطي الرأس من الوشي أو الخز أو الصوف أو الفراء، وكانت محببة عند المسلمين[1] تُلبس وحدها أو تحت العمامة، شاع استعمالها في الأندلس خاصة على عهد الأمويين[2]، فقد لبسها العامة بينما سلاها القضاة وتركوا لبسها، فالقاضي مُحَّد بن عبد السلام الخشني عندما اسند إليه منصب القضاء على عهد الأمير المنذر تمنع ثم اضطر لخلع قلنسوته، كما أن القاضي معاوية بن صالح انتزع قلنسوة من رأس قارئ قرآن في المسجد الجامع ورمى بها في ناحية من نواحي المقصورة[3]، والملاحظ أن انتزاع القلنسوة من لابسها شكل من أشكال الإهانة والتحقير، فعندما أدبرت دولة العامريين ودارت الدوائر على عبد الرحمن شنجول، تذلل للحاجب ابن ذرى طالبا الأمان، فأشار هذا الأخير إلى بعض أصحابة بانتزاع قلنسوة شنجول عن رأسه زيادة في إذلاله[4].

*الغفـارة: هي في الأصل خرقة تضعها المرأة على رأسها تقي بها الخمار من الدهن[5]، وفي الأندلس كانت تشير هذه الكلمة إلى طاقية يلبسها الرجال تشبه القلنسوة، يرتدونها تحتها أحيانا ويتدلى شيء منها على القفا، تصنع غالبا من الصوف؛ يلبسونها حمراء أو خضراء أما الصفراء فمخصوصة باليهود[6].

وانطلاقا من الأمثال الشعبية نقف على أن الغفارة لباس خاص بالمثقفين والعلماء، وليس مما ترتديه العامة إذ جاء في أمثالها:" ثلاثة من الناس مايلباس غفارة: صياد بصناره، وميار بحماره، وجنام بخطارة."[7]

*الطيلسان: كلمة فارسية معربة أصلها تالشان، وهو ضرب من الأكسية مدور أخضر لا أسفل له لحمته أو سداه من الصوف، يلبسه الخواص من العلماء والمشايخ، يطرح على الرأس والكتفين أو يلقى على الكتفين فقط، وهو خال من الصنعة كالتفصيل والخياطة[8].

"لا تجد في خواص الأندلس وأكثر عوامهم من يمشي دون طيلسان، إلا أنه لا يضعه على رأسه منهم إلاّ الأشياخ المعظمون"[9]

ب- ألبسة البدن:

تتمثل الداخلية منها في:

---

[1]- سحر السيد عبد العزيز سالم: ملابس الرجال...ص167.

[2]- رينهارت دوزي: المعجم المفصل لأسماء الملابس عند العرب، ترجمة: أكرم فاضل، مجلة اللسان العربي، المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي، د.ط، الرباط، د.ت، ص183.

[3]- الخشني: المصدر السابق، ص 55.

[4]- ابن عذارى: المصدر السابق، ج3، ص 72.

[5]- ابن منظور: المصدر السابق، ص3274.

[6]- المقري: المصدر السابق، ج1، ص213.

[7]- الزجالي: المصدر السابق، ص170.

[8]- رجب عبد الجواد إبراهيم: المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث، دار الآفاق العربية، ط1، القاهرة، 2002، ص306.

[9]- المقري: المصدر السابق، ج1، ص213.

*الـرداء: ثوب مستطيل الشكل، يوضع على المنكبين والكتفين، يتلازم لبسه مع الإزار فيما يعرف بالحلة، وهو أطول منه، وقد يلبس مع القميص أو معهما معا[1].

*القـميص: ثوب مخيط بكُمين غير مفرج يُلبس تحت الثياب[2]، كمه إلى الرسغ وطوله إلى نصف الساق، يكون غالبا أبيض اللون[3]، يصنع من الكتان أو القطن أو الشاش الموصلي أو الحرير، تزركش الحواشي عادة وتطرز بالحرير[4].

*الإزار: ثوب يسدل على إزر الإنسان، أي وسطه وكشحه[5]؛ يمتد إلى منتصف ساقيه، ومن أنواعه الإزار المهدب، أي الذي تتدلى منه شراشف إما في الأسفل أو على الجانبين، شاع استعماله من طرف الغرناطيين صيفا[6].

*السـروال: كلمة فارسية معربة أصلها شلوار، وتعني ثوبا فضفاضا يغطي أسفل البدن حتى القدمين[7]، له تِكَّة، شاع استخدامه في الأندلس، فابن عذارى قال في حديثه عن مصرع عبد الرحمن شنجول أن جثمانه كسي قميصا وسروالا وسُمر على خشبة طويلة بباب السدة تنكيلا به[8].

تربط هذه السراويل حول مدار السرة بالتكة، وهي حزام من الحرير مطرز موشى[9].

أما الملابس الخارجية فتتجلى في:

*المِـلحفة: "اللحاف والملحف والملحفة اللباس الذي فوق سائر اللباس من دثار البرد ونحوه...والملحفة عند العرب الملاءة السِّمط فإذا بُطِّنت ببطانة أو حُشيت فهي عند العوام ملحفة"[10] تسمى أحيانا المبطن تلبس على القميص أو مع الإزار، تكون إما معصفرة أو صفراء أو حمراء أو موردة[11].

*المُـلاءة: هي الملحفة والجمع مُلاء[12]، شقة من القماش القطني المخطط بخطوط زرقاء وبيضاء، ، طولها

---

[1]- صالح أحمد العلي: المنسوجات والألبسة العربية في العهود الإسلامية الأولى، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط1، بيروت، 2003 ص190.

[2]- رجب عبد الجواد إبراهيم: المرجع السابق، ص404.

[3]- أبو طلحة يونس بن عبد الستار: لباس الرسول ﷺ والصحابة والصحابيات رضى الله عنهم أجمعين، مطابع الوحيد، ط1، مكة المكرمة، 2003، ص31.

[4]- دوزي: معجم الملابس...ص183.

[5]- أبو طلحة يونس بن عبد الستار: المرجع السابق، ص40.

[6]- ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص135.

[7]- سحرالسيد عبد العزيز سالم: ملابس الرجال...، ص174.

[8]- ابن عذارى: المصدر السابق، ج3، ص73.

[9]- دوزي: معجم الملابس...، ص14.

[10]- ابن منظور: المصدر السابق، ص4008.

[11]- سحرالسيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص175.

[12]- ابن منظور: المصدر السابق، 4253.

ثماني أقدام وعرضها أربعة أقدام، وتستعمل استعمال المعطف، وإذا لم تكن الملاءة لِفقين فهي رَيطة[1].

*القَبَـاء: كلمة فارسية معربة؛ أصلها قُباى وتعني ثوب مفتوح من الأمام[2]، له أكمام ضيقة، يلبس فوق الثياب أو القميص ويُتمنطق عليه[3]، وانطلاقا مما أورده دوزي في معجمه فهو ثوب يضيق في الوسط ثم يبدأ في الاتساع، يمر مرتين فوق البطن، يُشد في الأولى تحت الذراع اليسرى ثم اليمنى شدة فوقية، ويربط بعدها بحزام عرضه أربعة أصابع[4]، يحبذ لبسه في السفر أو الحرب لأنه يساعد على الحركة[5].

يكون إما من سندس آو خزّ أو ديباج أو سمور أو كتان[6]، إذا كان له شق من خلفه فهو فرُّوج، أما إذا كان مبطنا فهو القردُمان[7].

لبسه جند الأندلس في عصر الخلافة، فابن حيان ذكر أن فرقة من جند طليطلة قدمت على الخليفة المستنصر لابسة الأقبية البيض[8].

*الجُـبة: ضرب من مقطَّعات الثياب تُلبس[9]، مفتوحة الصدر إلى الذيل، وسميت جبة لأنها تُجب من الأمام أي تُشق[10]، ضيقة الأكمام طولها إلى المعصم، فقد روى عروة بن المغيرة عن أبيه ﷺ قال:كنت مع النبي ﷺ ذات ليلة في سفر، فقال: (أمعك ماء؟) قلت : نعم، فنزل عن راحلته فمشى حتى توارى عني في سواد الليل، ثم جاء، فأفرغت عليه الإداوة، فغسل وجهه ويديه، وعليه جبة من صوف، فلم يستطع أن يخرج ذراعيه منها، حتى أخرجهما من أسفل الجبة، فغسل ذراعيه ، ثم مسح برأسه ثم أهويت لأنزع خفيه، فقال: (دعهما، فإني أدخلتهما طاهرتين) فمسح عليهما. "أخرجه البخاري ومسلم.

استعملها الأندلسيون خواصا وعواما على حد السواء، وكانت لباسهم المفضل، وتهادوها فيما بينهم، فهذا الحكم المستنصر أرسل إلى قائده غالب بن عبد الرحمن أعدادا جمة من الجبب العبيدية والطرازية ليخلعها على الخارجين إليه من وجوه القبائل المنحرفين عن حسن بن قنوان[11].

*المِطرَف: رداء من خز مربع له أعلام، مشتق في اللغة من أُطرف أي جعل في طرفه العلمان[12]، أشبه

---

[1]- ابن سيدة: المصدر السابق، ج4، ص77.

[2]- رجب عبد الجواد إبراهيم: المرجع السابق، ص378.

[3]- يحي الجبوري: الملابس العربية في الشعر الجاهلي، دار الغرب الإسلامي، د.ط، بيروت، 1989، ص262.

[4]- دوزي: معجم الملابس...ص179.

[5]- يحي الجبوري: المرجع السابق، ص263.

[6]- صالح أحمد العلي: المرجع السابق، ص201.

[7]- المرجع نفسه، ص86.

[8]- ابن حيان: المصدر السابق، القسم الخاص بالمستنصر، ص89.

[9]- ابن منظور: المصدر السابق، ص532.

[10]- أبو طلحة يونس بن عبد الستار: المرجع السابق، ص44.

[11]- ابن حيان: المصدر السابق، ص81.

[12]- ابن منظور: المصدر السابق، ص2660-2661.

بالجبة يلبس معها أو مع القباء أو البرنس[1]، ألوانه متعددة من أحمر إلى أخضر إلى أصفر إلى أدكن...وهو لباس المترفين والطبقة الميسورة[2].

كانت المطارف من بين ما قدمه ابن شُهيد للخليفة الناصر -ضمن الهدية التي سبق ذكرها- وعددها ستة مطارف عراقية[3].

*الدُّرّاعَة: جبة مشقوقة المقدم[4]، من النحر إلى أسفل الصدر، مزررة بأزرار وعرى، مفرطة في السعة، تصنع من الديباج وتزين بخيوط الذهب، ويرصع صدرها بأنواع اليواقيت والجواهر[5]، ألوانها متعددة، والمصنوعة منها من الصوف تعرف بالمِدرَعة[6].

شاع استخدامها في الأندلس بتأثير زرياب، وكانت من الخلع الخلافية، فقد خلع الناصر على حميد بن يصل والقرشي السليماني دراريع الخز والديباج[7]، وبأمر من الخليفة المستنصر خلع المصحفي على الملك أردون دراعة منسوجة بالذهب[8].

ووجدت في الزهراء طبقة من الجند الرماة الأحرار والمماليك يلبسون المدارع الملونة، ويصطفون إلى أول أبواب الأقباء وبأيديهم السلاح الشاك[9].

*البُرنس: هو كل ثوب رأسه منه ملتصق به، وهو قلنسوة طويلة كان النساك يلبسونها في صدر الإسلام[10] ينسج قطعة واحدة من الصوف أو القطن أو الحرير، يضيق حول العنق ويتسع في الأسفل، تتصل به قبعة مخروطية الشكل، وتُحاط كل جوانبه بحواشي وهدبات مطرزة بالحرير، تتعدد ألوانه بين الأبيض والأحمر والأسود...وغيرها[11].

تذكر المصادر أن هشام المؤيد كان يخرج لنزهاته متلحفا ببرنس، وهو في الأندلس لصيق بالبربر أكثر، لأنه من ألبستهم المميزة، ويسمى برنس الصبيان "القنبعة".

جـ- الأحــذية: تختلف حسب الشكل ومادة الصنع، فنجد:

---

[1]- سحر السيد عبد العزيز سالم: ملابس الرجال...ص175.

[2]- صالح أحمد العلي: المرجع السابق، ص203-204.

[3]- المقري: المصدر السابق، ج1، ص344.

[4]- ابن منظور: المصدر نفسه، ص1361.

[5]- رجب عبد الجواد: المرجع السابق، ص171. دوزي: معجم الملابس...ص43-44.

[6]- ابن منظور: المصدر نفسه، ص1361.

[7]- ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص319.

[8]- المقري: المصدر السابق، ج1، ص376.

[9]- ابن حيان: المصدر السابق، ص80.

[10]- ابن منظور: المصدر السابق، ص270.

[11]- دوزي: معجم الملابس...ص49.

*الخُفّ: فارسية معربة، مشتقة من اللفظة "كفش" وتعني نوع من الأحذية الجلدية يلبس فوقه حذاء آخر[1]، لأنه ليس له نعل، يحيط بالقدم ويغطي الكعبين، لذا فهو أقرب للجورب؛ وإن كان هذا الأخير يصنع من القطن.

ومن ضروب الخفاف هناك: المزْد والمُوق وهو خف غليظ يلبس فوق خف أدق منه.

يُزركش الخُفّ عند نساء الطبقات الميسورة بالحرير والذهب ويرصع بالدر والجوهر[2].

*القَبقاب: هو النعل المتخذ من خشب[3]، شراكه من جلد أو ما شابه، قال ابن هاني الأندلسي:

كنت غصنا بين الرياض رطيبا مائس العِطْف من غناء الحمام
صرت أحكي عِداك في الذل إذ صِرت برغمي أُداسُ بالأقدام[4]

تُقور القباقيب تقويرا شديدا من الباطن في الوسط، بين القطعتين الخشبيتين اللتين تمسان الأرض، وترتفع عنها بأطوال مختلفة قد تصل إلى خمسة عشر سنتيمترا، لذا يلبسها البعض ليبدو أكثر طولا، تزركش بالفضة وتزين بالأصداف واللآلئ، كما تطلى بعدة ألوان في تناغم زخرفي جميل، تستعمل غالبا داخل البيوت والحمامات[5].

*النَّعل: ما وقيت به القدم من الأرض[6]، وتعني الصندل، تصنع من جلود الإبل، تربط بشراكين يمر الأول منها على وسط القدم، والآخر بين السبابة والإبهام[7]؛ ويسمى الشِّسع.

*المركوب: حذاء جلدي مدبب الأمام لا رباط فيه. يُصنع غالبا من الجلد الأصفر.

*الكَنْدَرة: اللفظة في أصل اشتقاقها فارسية من كلمة "كَنْدوره" التي تعني الجلد، وقد عمم اللفظ وصار يعني النعل[8].

الشائع أنهم في فصل الشتاء يلبسون الجوارب الصوفية الطويلة لكسوة الساق حتى أعلى الركبتين والخفاف المبطنة باللباد، أما صيفا فالقباقيب التي تعرف عندهم بالقُرْق[9]، وهو حسب دوزي صندل قاعدته الداخلية من الفلين[10].

[1] - رجب عبد الجواد ابراهيم: المرجع السابق، ص152.
[2] - دوزي: معجم الملابس...ص35.
[3] - ابن منظور: المصدر السابق، ص3508.
[4] - رجب عبد الجواد ابراهيم: المرجع السابق، ص373-374.
[5] - دوزي: المرجع السابق، ص174.
[6] - ابن منظور: المصدر السابق، ص4477.
[7] - رينهرت دوزي: المرجع السابق، ص203.
[8] - رجب عبد الجواد ابراهيم: المرجع السابق، ص441.
[9] - ثريا محمود عبد الحسن: المرجع السابق، ص72.
[10] - دوزي: المرجع السابق، ص179.

د- الأزياء العسكرية: تأثر الأندلسيون في هذا الجانب بجيرانهم النصارى، وأخذوا عنهم أنواعا من الملابس والأسلحة، وعموما تجلت في:

*البيضة: هي الخوذة تسمى أيضا بالطاشتان، تصنع من الحديد لحماية الرأس[1]، كما يُشد بها الرَفرف وهو زرد يطرحه الرجل على ظهره، وفيها يقول الشاعر علي بن أبي الحسين:

وأشباه بيضات الأداحي كأنما   على أرؤس الفتيان منها المشاعل
شموس إذا ما الدجن أرخى سدوله   وأقمار ليل حين تدجوا الغياطل[2]

*المِغفَر: درع زرد ينسج على قدر الرأس؛ يلبس تحت القلنسوة[3]، يحمي الرأس والرقبة والأذنين، وفي بعض الأحيان الأنف أيضا، ثم تطور مع الوقت حتى أصبح يغطي الوجه كاملا إلا العينين بما يسمى المغافر المسبلة[4].

*الـزَّرد: هو الدرع المصنوع من حلق الحديد المنسوجة مع بعضها البعض، في شكل قميص يرتديه المقاتل يمتاز بالخفة والمرونة، وصف الشاعر أبو القاسم الأسعد بن إبراهيم الجند المتدرعين به قائلا:

لبسوا من الزَّرد المضاعف نسجه   ماءً طفت للبيض فيه حَباب
صفٌّ كحاشية الرداء يؤمه   صفُّ القَنا فكأنه الهُدَّاب[5]

وتسمى الدرع التامة لأمة[6]، قال يوسف بن هارون:

وما استلأَموا حرزا ولكنَّ لأمُهم   بُرودُهم في المعْرَك المتلاحم[7]

*الجوشن: درع صدري من الزرد بدون ظهر، تضاف بين ثنايا حلقاته صفائح معدنية لتقويته. قال علي بن أبي الحسين:

ومسرودة من نسج داود تحتها   أُسودٌ لها منها عليها غلائل
تخال بها موجا من الزُغف سائلا   له الأرض بحر والبحار سوائل
كأن متون الرقش فوق متونها   وقد حملتها في الجنوب الحمائل
جواشن أمثال الحُلي كأنها   إذا اختال فيها اللابسون خمائل[8]

أما التي تحمل في اليد فهي:

---

[1] - أحمد مختار العبادي: صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس، منشأة المعارف، ط1، الإسكندرية، 2000، ص45.
[2] - ابن الكتاني الطبيب: المصدر السابق، ص207.
[3] - ابن سيدة: المصدر السابق، ج6، ص72.
[4] - العبادي: المرجع السابق، ص45.
[5] - ابن دحية: المصدر السابق، ص115.
[6] - العبادي: المرجع السابق، ص45.
[7] - ابن الكتاني الطبيب: المصدر السابق، ص207.
[8] - المصدر نفسه، ص206.

*المجن: تحمل باليد لاتقاء ضربات السيوف والسهام.

*الترُّس: صفحة من الفولاذ دائرية أو بيضوية تحمل لوقاية الوجه والرأس من الضربات.

*الدَّرقة: ترس من جلد لا خشب فيه ولا عقب[1]، تسمى أيضا الحَجَفة.

انتشر بينهم لبس البياض رمز الطهر والنقاء، فقد قدم على الخليفة الحكم المستنصر من طليطلة ألفا وسبعمائة جندي في الزي الجميل والشكل التام لابسين الأقبية البيضاء، وذلك سنة 362هـ[2]، قال ابن هذيل يصفهم في زيهم الأبيض:

كأن الدروع البيضَ والبيضُ فوقها   غمائم غرٌّ أفرجت عن بوارق[3]

2- ملابس النساء:

وصف ابن الخطيب نساء غرناطة قائلا: "حريمهم حريم جميل موصوف بالسحر وتنعم الجسوم واسترسال الشعور، ونقاء الثغور وطيب النّشر، وخفة الحركات، ونبل الكلام وحسن المحاورة، إلا أن الطول يندر فيهن"[4]، ويمكن تعميم هذا الوصف على نساء الأندلس، اللواتي اتصفن –إضافة إلى ذلك- بالولوع بالتأنق، والاهتمام البالغ بالزينة، لذا تخيرن من القماش أجوده، وأكثرن من المصبغات، وتفنّن في الأزياء المفصلة والمزركشة ومما لبسنه:

أ- أغطية الرأس والوجه: وأخص ماتكون بالحرائر، وهي:

*الغِفارة: تعرف أيضا بالصِّقاع، وهي خرقة تضعها المرأة على رأسها تُوقِّي بها الخمار من الدهن، استعملها الرجال كذلك كما سبق شرحه.

*الخمار: وقد تُسمى العمامة أيضا خمارًا لأن الرجل يغطي بها رأسه[5]، وفي الأندلس أطلق الخمار على شقاق الحرير فقط[6]، ومن أسمائه أيضا:

- النَّصيف.

- القناع: ويعرف أيضا بالمقنعة أو ربما هو أوسع منها، يقول ابن شُهيد:

وناظرة تحت طي القناع   دعاها إلى الله والخير داع[7]

وقال آخر:

---

[1]- ابن منظور: المصدر السابق، ص1363.

[2]- ابن حيان: المصدر السابق، القسم الخاص بالخليفة الحكم المستنصر، ص73.

[3]- ابن الكتاني الطبيب: المصدر السابق، ص209.

[4]- ابن الخطيب: الإحاطة...ج1، ص139.

[5]- ابن منظور: المصدر السابق، ص1261.

[6]- رجب عبد الجواد: المرجع السابق، ص159.

[7]- ابن شُهيد: المصدر السابق، ص93.

كلَّما مِسْت في الرِّداء توارت   بقنــاع غــزالة الأبــراج[1]

ووضع الخمار على الرأس يأخذ أشكال عدة منها القُبّة، إذ تُقبب المرأة خمارها حتى يصبح شبيها بالقبة[2] وهناك الكِوارة والتَّصليب[3].

*الطَّرحة: هي خمار يوضع على الرأس ويتدلى إلى الوراء، تعمل من الكتان أو القطن أو الشاش الموصلي الأبيض المطرز بالحرير الملون، وتزين بخيوط الذهب.

طرحة النساء أطول نسبيا من طرحة الرجال، التي يلبسها القضاة غالبا فوق العمامة وتترك منسدلة على الظهر[4].

*العِصابَة: هي ما يُشد به الرأس، وتسمى العمائم أيضا عصائب[5]، ويعرفها دوزي في معجمه نقلا عن إدوارد لين من كتابه "المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم" قائلا:" إن العصابة تشير إلى طرحة من الحرير مربعة الشكل سوداء اللون، لها حاشية حمراء وصفراء، وهي تبطن بصورة منحرفة، ثم يلف بهذا الرأس وتتدلى من الخلف عقدة وحيدة منها."[6]

*الجِلباب: هو ثوب أوسع من الخمار وأصغر من الرداء، تغطي به المرأة رأسها وصدرها، وهناك من قال أنه الملحفة أو الملاءة التي تشتمل بها[7].

*الصِّدار:" ثوب رأسه كالمقنعة وأسفله يغشى الصدر والمنكبين"[8]

*القُنزُعة: تتخذها المرأة على رأسها[9]، أما أهل الأندلس فهم يضمون القاف ويفتحون الزاي (قُنزَع) والأصح ضمها(قُنزُع) وهي عندهم ما يوضع على الرأس ليقيه حرّ الشمس[10].

* البُرقُع: غطاء للوجه فيه فتحتان للعينين[11]، وبه خيطان تشدهما المرأة في قفاها يعرفان بالشِّباماِن، إذا أدنته المرأة من عينيها فهي الوَصوصة، أما إذا أنزلته دون ذلك إلى المحجر فهو النِّقاب[12].

قال شاعر:

---

[1]- ابن الكتاني الطبيب: المصدر السابق، ص125.

[2]- رجب عبد الجواد: المرجع السابق، ص373.

[3]- ابن سيدة: المصدر السابق، ج4، ص39.

[4]- رجب عبد الجواد: المرجع السابق، ص300.

[5]- ابن منظور: المصدر السابق، ص2964.

[6]- رينهرت دوزي، معجم الملابس...ص158.

[7]- ابن منظور: المصدر السابق، ص649.

[8]- ابن سيدة: المصدر السابق، ج4، ص39.

[9]- ابن منظور: المصدر السابق، ص3750.

[10]- رجب عبد الجواد: المرجع السابق، ص407.

[11]- أبو طلحة: المرجع السابق، ص88.

[12]- ابن سيدة: المصدر السابق، ج4، 39. ابن منظور: المصدر السابق، ص4514.

وبيني وبين المستقلة بالنَّوى دموعي ونور ساطع تحت بُرقع[1]

*المِعْجَر: أو العِجار، ثوب تلفه المرأة على استدارة رأسها، ثم تجلبب فوقه بجلبابها[2]، يصنع من الحرير الشفاف.

قال أبو يحي خلف بن فرج الألبيري الملقب بالسميسر:

وإذا تأملت المعا جر تحتها دعج المحاجر[3]

يعني هذا أن المعاجر شفافة تغطي كامل الوجه، ولشفافيتها يمكن رؤية العينين من تحتها.

ب- ألبسة البدن:

*الغِلالة: ثوب يلبس تحت الثياب، وسميت غلالة لأنه يُتغلَّل فيها أي يُدخل[4]، تلبس على الجسم مباشرة ولا أكمام لها ، كانت أول الأمر مشتركة بين الرجال والنساء، ثمّ صارت خاصة بهن فقط[5].

قال أبو يحي بن صمادح:

وتحت الغلائل معنى غريب شفاء الغليل وبرء العليل

فهل لي من نيله نائل ولابن السبيل إليه سبيل[6]

* الإتب: ثوب أو برد يشق في وسطه تلقيه المرأة في عنقها من غير كُم ولا جيب، يصل إلى نصف الساق مفتوح الجوانب من الأعلى إلى الأسفل، يُعمل غالبا من قطعة قماش مخططة[7].

إضافة إلى هذه الأزياء وجدت أخرى مشتركة بين النساء والرجال منها: القميص والسروال والإزار فهذا السميسر يقول:

بين الأزرة والمآزر حسن يحن له الأكابر

فإذا نظرت إلى الخدو د رأيت أنواع الأزاهر[8]

ونذكر أيضا: المطرف الذي يتميز عندهن بذيله الطويل[9]، والدراعة، والبرنس الأثير على قلوبهن، خاصة لدى الجواري[10].

---

[1]- ابن الكتاني الطبيب : المصدر السابق، ص154.

[2]- ابن منظور: المصدر السابق، ص2815.

[3]- أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، د.ط، بيروت، 1997، مج1، ق1، ص898.

[4]- ابن منظور: المصدر السابق، ص3287.

[5]- يحي الجبوري: المرجع السابق، ص256.

[6]- ابن بسام: المصدر السابق، ص735.

[7]- دوزي، المعجم...ص36.

[8]- ابن بسام: المصدر السابق، ص897.

[9]- يحي الجبوري: المرجع السابق، ص303.

[10]- سحر سالم: ملابس الرجال...ص176.

ج- ألبسة التوشح: أهمها:

*الشَّال: كلمة فارسية معربة تعني حزام صوفي، والشال هو رداء من الصوف أو القطن يوضع على الكتفين[1].

*الوِشاح: كِرسان من لؤلؤ وجوهر منظومان مخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر، تتوشح[2] به المرأة ويُعرّف أيضا بأنه نسيج من أديم عريض يرصع بالجواهر تشده المرأة بين عاتقيها وكَشحيها[3].

والوشاح عند ابن سيدة مَحزم يُشد على الخصر، ولا يكون الوشاح وشاحا إلا إذا كان منظوما بالجواهر أو الودع[4].

*النِّطَاق: هو ما يشد الوسط من خيط أو حبل أو ما يُشاكِلهما، وهو أيضا ثوب يشبه الإزار فيه تِكَّة تشدها المرأة على وسطها، ثمّ ترفع وسط ثوبها وترسله على الأسفل عند معاناة الأشغال، لئلاّ تعثر في ذيلها[5].

هذا فيما يخص الملابس أما الأحذية فتجدر الإشارة أن أحذية النساء لم تختلف عن نظيرتها عند الرجال إلا من حيث المبالغة في التنميق والزركشة، كما لبست النساء الجوارب زاهية الألوان.

د- أدوات الزينة:

اتصفت الأندلسيات بالمبالغة في الزينة ولبس الحلي، فابن الخطيب يقول:"وقد بلغن من التفنن في الزينة لهذا العهد، والمظاهرة بين المصبغات، والتنفيس بالذهبيات والديباجيات والتماجن في أشكال الحلي إلى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها عين الدهر"[6]

أما الحلي فهي ما تتزين به النساء من مَصوغ المعدنيات والحجارة[7]، وتكون على أشكال عدة نذكر منها:

*الأخروق: يُرادف هذا اللفظ التاج في المشرق، يصنع من الذهب ويزين بالأحجار الكريمة، تضعه النساء فوق رؤوسهن للزينة[8].

*القُرط ما علق في أسفل الأذن والشَّنْف ما علق في أعلاها.[9]

*العقد: ما يطوق الرقبة، يكون غالبا من الأحجار الكريمة كالزبرجد والدّر والياقوت...وغيرها، قال أحمد

---

[1]- رجب عبد الجواد: المرجع السابق، ص253.

[2]- التوشح هو إخراج طرف الثوب الملقى على العاتق الأيمن من تحت اليد اليسرى، والملقى على العاتق الأيسر من تحت اليد اليمنى، ثمّ يعقد طرفاه على الصدر. (ابن سيدة: المصدر السابق، ج4، ص98.)

[3]- ابن منظور: المصدر السابق، ص4841.

[4]- ابن سيدة: المصدر السابق، ج4، ص98.

[5]- ابن منظور: المصدر السابق، ص4463. ابن سيدة: المصدر السابق، ج4، ص37.

[6]- ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص139.

[7]- ابن سيدة: المصدر السابق، ج4، ص40.

[8]- دوزي، معجم الملابس...، ص36.

[9]- ابن سيدة: المصدر السابق، ج4، ص43.

بن فرج:

كلمتني فقُلت دُرّ سَقيط فتأمَّلَت عِقدها هل تناثر

فـازدهـاهـا تبـسمٌ فـأرتـني عقد درٍّ من التبسم آخر[1]

وقال آخر:

غصبوا الصباح فقسموه خدود واستوعبوا غضب الأراك قدودا

ورأوا حظ الياقوت دون نحورهم فتقـلـدوا شـهـب النجوم عقـودا[2]

* الأساور: المصنوعة منها من الذهب والفضة تعرف بالدَمالج والجِبارة، أما المصنوعة بالخرز فهي الرَّسوة، ومن العاج مَسَكَة[3].

*الخواتم: منها التي لا فصوص لها تشبه الحَلق، تعرف بالفُتوخ[4]، ومنها ذات الفصوص المزينة بالأحجار الكريمة.

*الخلاخل: لها أسماء عدة، فهي الطَّلَق والخِدَام...تلبسها النسوة في الساق، لها صوت ووقع مميز.

ومع ذلك ظلّ الشعراء يمدحون المرأة التي استغنت بجمالها الطبيعي عن المجوهرات، فسميت بالعاطِل والغانية التي غنيت بحسنها عن الحلي[5].

فهذا مُحَمَّد بن مسعود البجاني يقول:

أغنته عند الـورى محـاسنه عـن اتخـاذ العقـود و الشّـنـف

يجول في خده الجمال كما جالت معاني البيان في صُحف[6]

واهتمام المرأة المبالغ فيه باقتناء الحلي عموما ليس من باب الزينة فقط، فهي شكل من أشكال الادخار وسند مادي لها في المجهول من الأيام، ووجب هنا مراعاة الفوارق الاجتماعية، فليست كل النساء في نفس المستوى المعيشي، وقدراتهن تختلف من واحدة إلى أخرى، وإن تقاسمن جميعهن حب الجمال كل حسب إمكانياتها، وسعين لإرضاء هذا الشغف باتخاذهن -إلى جانب الحلي- وسائل التجميل، واعتمدن طرقا عدة لزيادة حُسنهن، إما بمفردهن أو باللجوء إلى المُزينة، التي تسميها المصادر أيضا الماشِطة أو المُقيّنَة.

ومما استعملنه نجد:

[1]- ابن الكتاني الطبيب: المصدر السابق، ص144.

[2]- المقري: المصدر السابق، ج4، ص202.

[3]- ابن سيدة: المصدر السابق، ج4، ص48-49.

[4]- المصدر نفسه، ص49.

[5]- نفسه، ص19.

[6]- ابن الكتاني الطبيب: المصدر السابق، ص133.

*أدوات تجميل مستخلصة من الطبيعة كالكُحل والمِسواك، إذ تُسمى المعتادة له بالمِطِرة[1].

*الوشم: ترسمه المرأة بالإبرة ثم تحشوه بالسؤور وهو دخان الشحم[2].

*الحناء: توضع في اليدين والقدمين أو على الشَعر لتغطية الشيب خاصة، استعملها الرجال أيضا لتخضيب شعورهم ولحاهم بعد مزجها بالكَتَم، شاعت هذه العادة بصفتها سنة بين الأندلسيين على اختلاف مراتبهم، فأغلب أمراء وخلفاء البيت الأموي كانوا يفعلون ذلك كالأمير عبد الرحمن الأوسط وابنه مُحَّد والمنذر.

ويرى يحي الغزال أن الخضاب حل مؤقت، يغطي الشيب مدة ليظهر مجددا، فقد جاء في إحدى قصائده:

ما الشَّيب عندي والخضاب لواصف   إلاّ كشمس جُللت بضباب

تخفى قليلا ثم يقشعها الصَّبا   فيصير ما سُترت به لذهاب[3]

تسمى المرأة التي لا تتعهد يديها بالخضاب بالسَّلتاء[4]، لذا فالخضاب زينة محببة لهن، شائعة الاستعمال بينهن.

*إزالة الشعر بواسطة النُّورَة، وهي حجر يحرق ويسوى منه الكلس[5]، يُخلط بالماء ويطلى به المكان المراد نزع الشعر منه، استعملها الرجال كذلك، إذ يذكر صاحب كتاب أخبار مجموعة أن الرماحس بن عبد العزيز الكناني والي الجزيرة، الذي ثار على الداخل، وافته جيوش الأمير بعد عشرة أيام من عصيانه وهو في الحمام قد أطلى بالنورة؛ فطرحها وهرب بأهله حتى قدم على أبي جعفر المنصور[6].

ومن وسائل إزالة الشعر التي عرفوها أيضا الخيط(السلك) لنتف شعر الوجه، والمِنماص المسمى أيضا بالمِنقاش والمِنتاخ لشعر الحواجب[7].

كما قمن بتقشير الوجه ليصفو لونه[8].

*التضمّخ بالطيب والتعطر، وأشهر العطور الغالية، تصنع من مزيج الطيب والعنبر ودهن البان، وسميت بهذا الاسم لأن منتجاتها غالية الثمن[9]، استعملها السادة والأثرياء، فالأمير الحكم عندما وصلته أخبار هيجة

1- ابن سيدة: المصدر السابق، ج4، ص54.

2- المصدر نفسه، ج4، ص57.

3- يحي الغزال: ديوان يحي بن حكم الغزال، تحقيق: مُحَّد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، ط1، دمشق، 1993 ص39.

4- ابن سيدة: المصدر السابق، ج4، ص58.

5- ابن منظور: المصدر السابق، ص4573.

6- مجهول: أخبار مجموعة، ص102.

7- أبو بكر بن حسن الزبيدي: لحن العوام، تحقيق: رمضان عبد التواب، المطبعة الكمالية، ط1، القاهرة، 1964، ص22-23.

8- ابن سيدة: المصدر السابق، ج4، ص54.

9- يعقوب بن اسحاق الكندي: الترفق في العطر، تحقيق: سيف بن شاهين بن خلف المريخي، وزارة الثقافة والفنون والتراث، ط1، الدوحة، 2010، ص10. (للتعرف على طريقة صنع الغالية وأصنافها يُنظر: المصدر نفسه، ص ص53-58.)

الربض تغلّل بالغالية، ولما سأله فتاه عن ذلك مستغربا أجابه:"هذا يوم وطنت نفسي فيه على الموت أو الظّفر بعدوي، فأردت أن يُعرف رأس الحكم من بين رؤوس من يقتل معه."[1]

إن ردَّه يقف دليلا على أن الغالية من أفخر العطور؛ لا يُتاح استعمالها للعامة نظرا لثمنها المرتفع، حتى أن الأمير الحكم جعل منها شارة لتمييز جثته.

وهذا شاعر يهجو زرياب قائلا:

تبـارك من أذلّ الخـز حتى   تمـعَّك فيـه أفـواه الكـلاب
ومن جعل الغوالي سائلات   على أصداغ أسود كالغراب[2]

نستشف من هذين البيتين مكانة زرياب الاجتماعية، فاستعماله للغالية دليل على رفعة شأنه، وإن كان الشاعر يراه غير جدير بها.

واتخذوا مزيل العرق الذي صنعوه أول الأمر من ذرور الورد وزهر الريحان وما شاكل ذلك، ثم علمهم زرياب استعمال المرتك المتخذ من المرداسنج لأنه لا يترك أثرا على الثياب[3].

كما كانت الملابس تعطر بتبخيرها بأنواع الطيب وأصوله خمسة هي: المسك، الكافور، العنبر، الزعفران والصبر(عود الند)، فاقت الأندلس الهند بزعفرانها وعنبرها، اللذين كانا يصدران إلى أرجاء العالم، ويجوبان قلب أوروبا، واشتهرت الأندلس أيضا خاصة دلاية بعود اليلنجوج الذي يفوق العود الهندي ذكاء عطر وطيب رائحة[4].

يصف أبو الفضل الدارمي البغدادي؛ الوافد على الأندلس والمتوفي فيها جارية تتبخر بالند قائلا:

ومحطوطة المتنين مهضومة الحشا   مُنعَّمة الأرداف تُـدمى من اللمس
إذا ما دخان الند من جيبها علا   على وجهها أبصرت غيما على شمس[5]

وقال آخر:

لاحَ وفاحت روائح النَّد   مُهتصر الخصر أهيف القد[6]

كما كانوا يحفظون ملابسهم في أماكن معطرة لتفوح بأريج عبق عندما يلبسونها.

* بتصفحنا لكتب الطب نجد اهتماما شديدا من الأطباء بما أسموه طب الجمال، فالزهراوي أفرد في مقالته التاسعة عشر من كتابه **التصريف لمن عجز عن التأليف** فصلا كاملا حول مستحضرات التجميل، وعدها فرعا من فروع الطب، إذ تحدث عن العناية بالجلد والشعر والفم وغيرها من أجزاء البدن، فوصف مراهم

1- مجهول: المصدر السابق، ص119.
2- ابن الكتاني الطبيب: المصدر السابق، ص285.
3- المقري: المصدر السابق، ج4، ص127.
4- ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص98.
1- المقري: المصدر السابق، ج4، ص114.
6- أبو الخطاب عمر بن دحيه: المطرب من أشعار أهل المغرب، المكتبة العصرية، ط1، بيروت، 2008، ص31.

لحماية الجلد من أشعة الشمس، ومحاليل لتسبيل الشعر الأجعد[1]، كما تطرق للجراحة التجميلية، ففي مجال العناية باللثة وتنظيف الأسنان و تقويمها يحث على أهمية جرد الأسنان مما يتراكم عليها من الداخل والخارج لأنه يقبحها، وهو ما نسميه الجير الذي يضر بالأسنان واللثة، كما يقول بضرورة نشر الأضراس النابتة على غيرها، لأنها إذا نبتت على غير مجراها الطبيعي "قبحت بذلك الصورة، ولا سيما إذا حدث ذلك في النساء والرقيق"[2]، كما استعملوا معجون الأسنان وكان لزرياب فضل تعريف الأندلسيين به.

إن الاهتمام بهذا الفرع من فروع الطب، والبراعة فيه كغيره من التخصصات دليل على ولع المجتمع بالجمال وسعيه الدؤوب إليه، ولكن لا وجه للمقارنة بين ذلك العصر وعصرنا المهووس بمثالية الصورة والشكل، فغالبا كان اللجوء للعمليات التجميلية من أجل تقويم خلل أو علاج علة.

أما فيما يتعلق بأزياء الأطفال فإن ملابس الرضع تمثلت أساسا في لفائف الكتان التي تحيط بالجسد يدار عليها القماط، وهناك البيطر لحماية الصدر من البلل.

وتجدر الإشارة إلى أنه فرضت على أهل الذمة أزياء خاصة تمييزا لهم عن المسلمين، من أجل تسهيل تطبيق الحدود وتجنبا لمعاقبة الذمي على ما يباح له، من ذلك الرقاع على الأكتاف والزنار في الوسط، وغالبا كان يُتساهل في الأمر، لذا كثر حديث كتب الحسبة على ضرورة التمييز في اللباس لأنها غالبا تتحدث عما يجب أن يكون وليس ما هو كائن، فتركيزها على ظاهرة معينة هو سعي منها لتصحيح الخلل والعودة إلى الوضع الصحيح.

ومما تميز به الأندلسيون اتخاذهم اللون الأبيض للحزن والحداد، استنوا ذلك في عهد بني أمية مخالفة للعباسيين الذين لبسوا السَّواد، قال شاعر:

إذا كان البياض لباس حزن   بأندلس فذاك من الصواب
ألم تربي لبست بياض شيبي   لأني قد حزنت على الشباب[3]

وقال آخر:

ألا يا أهل أندلس فطنتم   بلطفكم إلى أمر عجيب
لبستم في مآتمكم بياضا   فجئتم منه في زي غريب
صدقتم فالبياض لباس حزن   ولا حزن أشد من المشيب[4]

[1]– سليم الحسيني: ألف اختراع واختراع، التراث الإسلامي في عالمنا، مؤسسة العلوم والتكنولوجيا وناشيونال جيوغرافيك، د.ط، لندن، 2011، ص 21.

[2]– عباس بن خلف الزهراوي: كتاب الزهراوي في الطب لعمل الجراحين، المقالة الثلاثون من التصريف لمن عجز عن التأليف (العمل باليد) تحقيق: مُحَمَّد ياسر زكور، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ط1، دمشق، 2009، ص204،195.

[3]– ابن دحية: المصدر السابق، ص79.

[4]– ابن سيدة: المصدر السابق، ج4، ص38.

كما اختلفت ألبستهم حسب المناسبات والفصول، فقد تعلموا من زرياب ارتداء المحاشي المروية والثياب الملونة ذوات الحشو والبطائن الخفيفة في الخريف، لينتقلون في الشتاء إلى الأثخن منها التي يستظهرون تحتها صنوف الفراء إذا احتاجوا لذلك، ويتفشى بينهم لبس الملف المصبوغ في هذا الفصل،كما أن هناك معاطف تصنع من الصوف تقي من المطر تسمى المِمْطَر[1]، تشمع لتمنع تسرب الماء، يُذكر أن ابن الشِّمْر عاد مع عبد الرحمن الأوسط من إحدى غزواته فأمطرت وهم في طريقهم إلى قرطبة فشكا ابن الشمر نفوذ الماء لغفارته التي كان يتوقاه بها ووصوله إلى جسده فأمر له الأمير بممطر من مماطره وقنزعة من قنازعه[2].

أما في الربيع فيرتدون جباب الخز والملحم والمحرر والدراريع التي لا بطائن لها، وفي الصيف يلبسون الثياب البيضاء من أواخر شهر جويلية إلى أول أكتوبر[3]، فاللون الأبيض مُحبب إليهم، يؤثره الجنود وبعض أمراء البيت الأموي، وكان القاضي سعيد بن عثمان بن سليمان يجلس للحكم في المجلس الجامع مرتديا جبة صوف بيضاء وعلى رأسه أقروف أبيض من نفس القماش.

إلى جانب حبهم للون الأبيض لبسوا المصبغات بشتى ألوانها من أصفر وأحمر وأزرق وأسود وأخضر... إلخ، قال يوسف بن هارون:

ياثوبه الأزرق الذي قد فـات العراقي في السناء
يكـاد وجه الـذي يراه يكسى بياضا من الضياء
كـأنـه فيك بـدر تـمٍّ يقطع في زرقة السمـاء[4]

قال عبد الملك بن جهور:

أقبَلْتِ في ثوب عليكِ بنفسجي كالسوسن الأرجِ النقيِّ الأبْهجِ
كالروض حسنا قد تشرَّب ماؤه فبدا به من كل حسنٍ مبهجِ[5]

يُحاكي الأندلسيون في ذلك جمال بلادهم الفتان، فتخالهم "في المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المتفتحة في البطاح الكريمة."[6]، وكان لوفرة الأصباغ المشتقة من مواد طبيعية متواجدة في بيئتهم دور في شيوع المصبغات وانتشارها بينهم، والتي تفننوا في تنسيق ألوانها، فهم أصحاب همة في الملبس[7].

ولم يكن ذلك حكرا على فئة دون أخرى، فهاهو القاضي مُحَّد بن بشير يجلس في مجلسه في المسجد

[1]- دوزي: معجم الملابس...ص198.
[2]- ابن سعيد: المصدر السابق، ج1، ص127.
[3]- المقري: المصدر السابق، ج4، ص128. ابن الخطيب: الإحاطة، ص135.
[4]- ابن الكتاني الطبيب: المصدر السابق، ص134.
[5]- المصدر نفسه، ص142.
[6]- ابن الخطيب: المصدر السابق، ج1، ص135.
[7]- المقري: المصدر السابق، ج4، ص150.

الجامع بقرطبة مرتديا إزارا موردا ولمته مفرقة، حتى أن أحد المتقاضين لديه ظنه زامرا، لكن إذا طُلب ما عنده وُجد أفضل الناس وأورعهم وأزهدهم[1]، فاللباس يعود لذوق كل واحد وقناعته، إذ لم يكن هناك زِيٌّ موحد يلتزم به القضاة، وإن وجدت لأرباب الصنائع أزياء خاصة تيسر أداء عملهم، فالبيازرة مثلا يلبسون قمصانا تغطي الركبتين تحتها سراويل تصل إلى الأقدام وتكاد تلتصق بالسيقان، بحيث تبدوا كما لو كانت جوارب ولعل هذه السروايل هي التي سماها المقري الإشكرلاطة[2]. أما الخباز كما الطباخ فهو ملزم بارتداء المأزر وتغطية الرأس حرصا على نظافة ما يطهون.

مثلما تنوعت الألوان وتعددت تنوعت الخامات التي حيكت منها ملابسهم أيضا، فهناك الصوف المُشتهر بكونه لباس الفقراء والمتصوفة والزهاد[3]، وهناك القطن والكتان والحرير، الذي يتصل به الإبريسم والقز والخز سداه الحرير ولحمته القطن، والديباج الذي يكون في الغالب مزخرفا، إضافة للجلود والفراء وأشهر الجلود القرطبي المصنوع من جلد الماعز، يمتاز بجودته وليونته، ويصبغ غالبا بالأحمر ويزين بالذهب[4] أما الفراء فمنه المرعزي المصنوع من شعر الماعز، وفراء الفَنك والأرانب والقَنْلِية...وغيرها، أغلاها فراء السمور، تشتهر سرقسطة بصناعته، وفراء يتساقط من حيوانات بحرية تعرف بأبي قلمون، اشتهرت بطليوس بصناعته، وهو يجمع بين لين الخز وبريق الذهب، وقد ساعد هذا التنوع والتعدد على ثراء أزيائهم وزخمها.

زاد من أبهة الأندلسيين وبهائهم حبهم الشديد للنظافة، فهم "أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون، وغير ذلك مما يتعلّق بهم، وفيهم مَن لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه، فيطويه صائما، ويبتاع صابونا يغسل به ثيابه، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها"[5]، أذكى هذه الروح الدين الإسلامي الذي يحث على الطهارة بشتى أنواعها، فالصلاة لا تتم إلا بالوضوء، والاغتسال من الجنابة فرض، وهو سنة أيام الجُمع، وقد رغبوا في أن يكونوا نظيفين حقا لذا استعملوا الصابون ولم يكتفوا برش الماء فقط[6]، وهذا يبرر انتشار الحمامات بكثرة في الأندلس، فهي من أهم المنشآت المدنية، لذ لا تخلوا مدينة من الحمامات العامة، ففي قرطبة وحدها وُجد 300 حمّام، وتقول مصادر أخرى أنها بلغت عندما تناهت في الاتساع 900 حمّام، وقس على ذلك في أرجاء الأندلس الواسعة.

تتفرد الحمامات بهندسة معمارية مميزة، فالحمام غالبا يتألف من مدخل ثم ثلاث أو أربع غرف أساسية مقببة، لأن السقف الخشبي معرض للتلف السريع، كما أنه يساعد على تسرب الحرارة للخارج.

---

[1]- مجهول: أخبار مجموعة، ص115.

[2]- ثريا محمود: المرجع السابق، ص68.

[3]- صالح أحمد العلي: المرجع السابق، ص28.

[4]- أوليفيا ريمي كونستبل: المرجع السابق، ص224.

[5]- المقري: المصدر السابق، ج1، ص214.

[6]- سليم الحسيني: المرجع السابق، ص21.

يُدخل إلى الحمام عبر باب منخفض يؤدي إلى الأسطوان، وهو ممر ضيق متعرج يقود إلى البيت البارد الذي يخلع فيه المستحمون ملابسهم؛ ثم يأخذون المناشف وينتعلون القباقيب التي تجنبهم السقوط والحرارة، يتصل به البيت الوسطاني وهو القاعة الأكبر، في وسطها فضاء مربع مغطى بقباب تحملها أعمدة وتيجان تنتهي بأقواس على شكل حذوات، ومنها تصل إلي البيت الساخن، وهو حجرة ضيقة وطويلة، في صدرها قدر كبير من النحاس يتمّ فيه تسخين الماء، تخرج منه الأنابيب الرصاصية حاملة الماء الساخن إلى الصهاريج، وهي عبارة عن أحواض رخامية أو حجرية في الغرفة الساخنة، وقد تغطى أحيانا في تجاويف حائطية، كما توجد أبنية أخرى للماء البارد.

هناك حجرة ملاصقة للقدر مخصصة للوقود تسمى أفنية، لها مدخلها المستقل ولا يوجد أي اتصال بينها وبين الحجرات السابقة.

تضاء هذه الغرف نهارا بفتحات في السقف نجمية الشكل مغطاة بالزجاج الملون تسمى المضاوي، أما ليلا فبالشموع.

جدرانها من صفوف حجرية منظمة، تُغطى أسافلها بالخزف في الحمامات المترفة، وتكسى أرضياتها بلوحات الرخام، كما تزين بالتماثيل[1]، ففي إحدى حمامات إشبيلية المعروف بحمام الشطارة نقل إليه تمثال روماني لجارية معها صبي وكأن حية تريده، وُجد في إقليم طالقة، سحر العوام جماله فكانوا يطيلون النظر إليه والتأمل[2]، كما ألهم الشعراء واتخذوا منه موضوعا لقصائدهم الوصفية، ومما قيل فيه ما جاء به ابن الأثير الجزري:

ودمية مرمر تزهى بجيد تناهى في التورد والبياض
لها ولد ولم تعرف حليلا ولا ألمت بأوجاع المخاض
ونعلم أنها حجر ولكن تتيـمنـا بـألحاظ مــراض[3]

يرتاد الحمّامات الرجال كما النساء كل في يومه المخصوص، ويدفعون مقابل ذلك مبلغا زهيدا، ولها آداب تُضبط فيها، إذ يكلف القائم عليها بالحفاظ على نقائها الدائم، فالمحتسب يأمر الخَدمة في الحمامات أن يبيتوا محاكهم في الماء والملح حتى لا تكتسب روائح نتنه، وعليهم غسل ميازرهم كل عشية بالصابون[4] مع ضرورة تغطية الصهاريج حفاظا على طهارة الماء، ومنع المسلم من حكّ اليهودي أو النصراني[5]، ولهذا

[1]- خلاف عبد الوهاب: قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر للميلاد/ الخامس هجري، الحياة الاقتصادية والاجتماعية، الدار التونسية للنشر والتوزيع، ط1، تونس، د.ت، ص ص 30-32. السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، ج2، المرجع السابق، ص ص24-26.

[2]- المقري: المصدر السابق، ج1، ص158.

[3]- المقري: المصدر السابق، ج2، ص

[4]- السقطي: المصدر السابق، ص67.

[5]- ابن عبدون وآخرون: المصدر السابق، ص48.

الأمر دلالته فهو يشير إلى أن أهل الذمة لم يمنعوا من ورود حمامات المسلمين، فالحمامات لكل المواطنين دون تمييز.

وللقصور والدور الكبيرة حمامات خاصة ملحقة بها، وإن لم يمنع هذا ارتياد الحمامات العامة إذا طرأ ظرف ما يعيق اغتسالهم في الحمام الخاص، فكانوا يحجزون الحمام الذي يفرغ من كل رواده في الوقت المحدد ليخلو الجو للسيد.

خرجت الملابس في العديد من الحالات عن كونها مجرد حاجة أساسية للإنسان، لتكتسي مآرب سياسية، فالحكام كتبوا أسماءهم وعبارات للفأل على ملابسهم فيما يسمى بالوشي، وهي شارة من شارات الملك، لذا ألحقوا بقصورهم دور الطراز التي تنسج لهم ثيابهم، وكان القائم عليها يسمى صاحب الطراز وهو من المناصب الرفيعة يُقلد لخواص الدولة[1]، ومما يدل على المكانة العالية التي يحتلها صاحب الطراز ما أورده ابن حيان إذ قال: "وفي صدر محرم من[سنة إحدى وستين وثلاثمائة] رحَّل الخليفة الحكم خليفته المتقدم في خصوصيته فائقا الفتى الكبير الصقلبي، صاحب البُرد والطراز، من داره بالمصاف الشرقي من قصر الزهراء إلى دار الحاجب جعفر بن عثمان بن عبد الرحمن الصقلبي المتوفَّ في سنة ستين قبلها، الجليلة القدر بالمصافّ الغربي قربه، عندما اعتلت منزلته لديه، تنويها وتشريفا له."[2]

وقد عُدت أيضا شكلا من أشكال التشريف من خلال الخلع، وهي حلل موشية كان الأمراء والخلفاء وخَاصةُ القوم يخلعونها على الموالين لهم والمقربين منهم والمتحالفين معهم، إعلاء لقدرهم وتكريما وتقريبا لهم فكأنها شارة لحسن الولاء، تنويها بلابسها، ويعسر هنا حصر الأمثلة والنماذج لكثرتها وتعددها، فالخلع سنة جارية لا تقتصر على فترة دون أخرى، ومع ذلك نورد بعض النماذج –على سبيل المثال لا الحصر– ففي سنة 361هـ لسبع بقين من جمادى الأولى توصّل إلى الخليفة المستنصر يحي بن هذيل وبن رزين وبنوه وبنو أخيه مروان الأربعة، الذين قسم عليهم عمل والدهم وهو ما قام به مع أبناء عمريل بن تيملت المغربي في آخر رجب من نفس السنة، وعمَّ جميعهم بالخِلع ورُدُّوا بالسيوف الحالية[3].

وقُدمت كعطايا للشعراء دليلا على الإعجاب بما تجود به قرائحهم، وتقريبا وتنويها بهم.

وعند التولية كان الحكام يوزعون عطايا وملابس على الرعايا، فعبد الرحمن الأوسط عند توليه وزع على من كان معه الأموال و الكسي على قدر أقدارهم[4].

وإجمالا الأزياء الأندلسية لم تخرج عن النمط المألوف للأزياء في بقية الأقطار العربية، وإن كانت قد تأثرت في بعض جوانبها بأزياء النصارى، خاصة فيما يتعلق بالأزياء العسكرية وفق شهادات المؤرخين.

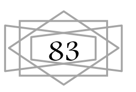
---

[1]– نادر فرج زيارة: الترف في المجتمع الإسلامي (92هـ/711م=668هـ/1269م)، رسالة مقدمة للحصول على درجة الماجستير، في قسم التاريخ والآثار، الجامعة الإسلامية، غزة، 2010م، ص116.

[2]– ابن حيان: المقتبس، القسم الخاصة بالمستنصر، ص48.

[3]– المصدر نفسه، ص52.

[4]– ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص91.



وبما أن الزِّي يُعد شكلا ثقافيا فإن الملابس اختلفت وتمايزت تبعا لفئات المجتمع، فأزياء طبقة الخاصة مثقلة بالوشي والتطريز بخيوط الذهب، ينقشون أسماءهم أو أبيات من الشعر والفأل عليها، وحتى أزياء العامة لم تخلوا من تفاصيل الجمال والألوان، وإن كان الأهم فيها غالبا عمليتها وتوافقها مع الجو، وكما كانوا يتفاءلون بما يرقمون عليها تشاءموا من بعض أوجه ارتدائها، فدليل النحس لبس الجبة تحت القميص خلافا للمعتاد، أو قلبها في غير صلاة الاستسقاء[1].

إن اللباس مع كونه ضرورة فهو أيضا صورة حية عن المجتمع، تستلزم قراءة مطولة لا تتيحها لنا المصادر التي تورد لنا لمحات متناثرة فقط، تستوجب الكثير من الجهد لاستقرائها، لذا تعلوا هذا الجانب ضبابية يستحيل تبديدها كلية.

[1]- من أمثال العامة في هذا المعنى: "النحس النحيس الجبة تحت القميص"، "ثلاثة تدل على النحس: إذا لبس ثيابه يجيه الأمام للورا وإذا رمى بقرقة ليلبسه يجي وجه إلى الأرض وإذا جلس قطه يرد صلبه إليه" (الزجالي: المصدر السابق، ج2، ص48، 172.)

- طرق العلاج والتقاليد الجنائزية:

الحفاظ على الصحة وقهر المرض والآلام المصاحبة له؛ لممارسة الحياة دون خوف أو وجل، هدف سعى إليه الإنسان منذ الأزل، فتبنى لأجل ذلك طرقا شتى؛ تلاشى بعضها واختفى، بينما تطور البعض الأخر وارتقى بتقدم العلم ورسوخ قدم الإنسان في الحضارة، ليظل بعضها الآخر على بدائيته، فأصبح بهذا العلاج يقوم عموما على طريقتين: تقليدية شعبية متوارثة عبر الأجيال، وحديثة تعتمد العلم ركيزة وسندا.

في الأندلس تلك البيئة التي تقدس العلم وتبجله نمت غراسه وترعرعت لتزهر إبداعا تفتحت أكمامه إنتاجا فكريا في شتى الفروع، مؤكدة على العطاء الأندلسي في العديد من الميادين لعل أبرزها الطب؛ الذي يعرفه ابن خلدون بالقول: هو"صناعة تنظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح، فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية"[1]، فهذا العلم مهم جدا بأهمية حياة الإنسان التي يسعى للحفاظ عليها، وهو بهذا المفهوم وقائي يهدف أولا لدرء الداء قبل وقوعه، ثم العلاج عند المرض بالأدوية من جهة وبالأغذية من جهة أخرى.

وانطلاقا من الميراث الفكري الذي خلفه هؤلاء الأطباء يمكننا الوقوف على مستوى الرعاية الصحية وطرق العلاج لدي المجتمع الأندلسي، الذي لجأ بالموازاة مع هذا إلى الطب الشعبي، فالطبيعة كانت ولازالت المورد الأساسي الذي يمد الإنسان بجُل احتياجاته، إذ عُدت الأعشاب الطبية الوسيلة الأولى المستعملة في العلاج -وحتى في عصرنا الحالي يلجأ إليها البعض بين الفينة والأخرى- وكانت تباع عند العطارين، ومنها تركب الأدوية، وقد حذر المحتسبون من كثرة الغش والتدليس في هذه المهنة وصعوبة كشفه[2]، ولا يفوتنا التنويه إلى ما أشرنا إليه سابقا من أن الغذاء استعمل في حد ذاته كعلاج، وكانت الأسرة تصنع في مطبخها الأشربة والمعاجين الموظفة لهذا الغرض.

ومن طرق العلاج البدائية التي اعتقد الناس بنجاعتها أيضا "الطب الروحاني"، فلجؤوا إلى الأولياء الصالحين طمعا في الشفاء، وقصدوا الحمامات لعلاج أمراض كالفالج وألام المفاصل...وغيرها، خاصة وأن الأندلس تعجُ بالحمامات المعدنية، وهناك من لجأ إلى العيون للاستشفاء، نظرا لاعتقادهم بدور مياهها في تطهير الأبدان[3].

وفي المقابل وموازاة مع الطب الشعبي كان الطب كعلم يخطو خطوات عملاقة في مجال علاج الأمراض فالزهراوي سما بالجراحة أو ما كان يسمى في ذلك الوقت "عمل اليد" إلى مراتب راقية، مهدت الطريق للتطور والنهضة التي نشهدها اليوم، فدقته في التشخيص والعلاج مشهودة لمختلف الحالات التي كانت مستعصية وشبه مستحيلة فيما سبق، كما أن الأدوات الجراحية التي ابتكرها مشابهة جدا للمستعملة

---

[1]- ابن خلدون: المصدر السابق، ص405.

[2]- السقطي: المصدر السابق، ص31.

[3]- ابراهيم القادري بوتشيش: المغرب والأندلس...ص104.

اليوم بل من شدة حرصه على مرضاه اخترع مشرطا بشفرة مخفية كي لا يخيفهم ، وصنع الدواء في شكل أقراص مغلفة، وصنع الزراقة وهي الحقنة، وربط الشرايين لمنع النزيف أثناء العمليات الجراحية، كما ابتكر طريقة الخياطة الداخلية بإبرتين وخيط واحد يصنع من أمعاء القطط فيما أسماه بإلمام الجروح تحت الأدمة وهي لا تترك أثرا، وغير هذا كثير جدا.

لم يكن الزهراوي طفرة بل هو نتاج بيئة اعتلى فيها العلم الذروة والسنام، فالأندلس شعبها محب للمعرفة ساعٍ إليها، زاد هذا النهم ولاة الأمر الذين أحاطوه بالكثير من الرعاية والاهتمام، ويكفينا الحكم المستنصر كأنموذج يختصر في شخصه وسيرته الكثير من الكلام، أبسطها أنه هو الذي جمع من نفائس الكتب "ما كاد يضاهي ما جمعته ملوك بني العباس في الأزمان الطويلة، وتهيأ له ذلك لفرط محبته للعلم وبعد همته في اكتساب الفضائل وسمو نفسه إلى التشبه بأهل الحكمة من الملوك فكثر تحرك الناس في زمانه إلى قراءة كتب الأوائل وتعلم مذاهبهم"[1] لذا نمت مختلف الفنون والعلوم ومنها الطب، فبعدما كان قوم من النصارى يتطببون إبان سني الفتح الأولى[2]؛ تغير الأمر باستتباب الأوضاع واستقرارها لتبدأ طبقة من الأطباء الأندلسيين في الظهور، ووجب الإشارة إلى موسوعية العلماء في تلك الفترة، إذ لم يقتصروا على فرع واحد من العلوم، فنجد الطبيب عارفا بالصيدلة متفننا في تحضير الأدوية وتجهيزها، ملما بالفلك والحساب والفقه، إذ لم يكن التخصص شائعا كما نعرفه الآن.

وبجولة في المستشفيات التي عرفت آنذاك بالبيمارستانات والمقدر عددها في قرطبة وحدها بخمسين مستشفى نأخذ نظرة أوفى وصورة أوضح على الصحة، فالمتعارف عليه في الأقطار الإسلامية أن البيمارستان يبنى وفق نمط محدد، تتدفق فيه المياه الجارية، وتنمو الأزهار والأشجار متألقة زاهية بخضرتها وله قوانين ونظام صارم، فعند دخول المريض إليه يتم تجريده من ملابسه ليُحمم ويسلم ملابس أخرى نظيفة ثم يستلقي في السرير المخصص له ليبدأ دورة العلاج القائمة على التفقد والمراقبة المستمرة، مع الاستشفاء بالغذاء والدواء المناسب لكل حالة، ووجد فيها نظام العزل للأمراض المعدية، والفصل بين النساء والرجال أغطيتها وثيرة ونظيفة، وتُدفأ في ليالي الشتاء الباردة، للموسيقى مساحتها العلاجية أيضا، وعند خروج المريض من المشفى يسلم له راتب يعيل به نفسه في فترة النقاهة لأنه لا يكون قادرا على مزاولة عمله حتى تتحسن صحته تماما، أما إذا كان المريض لا يحتاج معالجة دائمة فتعطى له وصفته ويحصل بموجبها على الدواء من صيدلية البيمارستان[3]، وقد كان العلاج مجانيا ومتاحا للجميع دون تمييز.

وهي إلى جانب هذا مؤسسات تعليمية أشبه بكليات الطب المعاصرة، تجمع بين التعليم النظري والتطبيقي

[1]– أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد: طبقات الأمم، تحقيق: لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، د.ط، بيروت، 1912، ص66.

[2]– أبو داود سليمان بن حسان بن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق: فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، 1985، ص92.

[3]– زيغريد هونكه: شمس العرب تستطع على الغرب أثر الحضارة العربية في أوربا، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الجيل ودار الآفاق الجديدة، ط8، بيروت، 1998، ص227-128.

مزودة بقاعات المحاضرات والمكتبات، وكان رئيس الأطباء يلقي فيها دروسه على طلبته.

ونظرا لحساسية هذه المهنة واتصالها بحياة الإنسان فقد نظمت مزاولتها وغلفت ممارستها بإطار من التقاليد السامية والأخلاق الرفيعة، لضمان عدم استغلال الإنسان، وكانت تُسلم شهادات معتمدة تسمح لحاملها بممارسة المهنة.

رغم هذا التطور المشهود للعلاج في الأندلس خاصة إذا قارناها بغيرها من الدول الأوربية التي لم تكن مستشفياتها غير أديرة تتراكم فيها أحيانا أشلاء الموتى مع المرضى، تفوح فيها الروائح النتنة، وينقض البعوض على اللحم العفن نهشا وأكلا[1]، إلا أن المرض لم يكن وضعا مستساغا، بل بلغ رفض البعض له حدّ محاولة الانتحار مثل ما فعل ابن شُهيد وهو الشاعر المثقف بعد فالج أصابه وفي ذلك يقول:

أنوح على نفسي وأندب نُبلها إذا أنا في الضراء أزمعت قتلها[2]

فما بالك بمن دونه حظا وعلما؟!

وفي أحيانا أخرى كان المريض يتجلد ويتصبر، ويتخذ من دائه محطة للتنقية يستعد بعدها للقاء ربه راضيا تائبا.

ويبقى الموت النهاية الحتمية لكل الكائنات، لا يملك الإنسان أمامه إلا الصبر والخضوع برضى لقضاء الله المحتوم، مهما كان حجم الألم الذي يخلفه الفقد، لكن الزمن كفيل بتخفيفه والتقليل من حدته شيئا فشيئا.

وقد كان للدفن طقوسه المتقاطعة مع ما نعرفه اليوم لأنها مستمدة في الأساس من تعاليم الدين الحنيف وإن طرأت عليها تغييرات فرضتها البيئة والظروف، يُدخلها المحتسبون في الكثير من الأحيان تحت باب البدع المستهجنة.

كانت الخطوة الأولى في الدفن تغسيل الميت وتكفينه، ثم الصلاة عليه ليسير به المشيعون إلى المقبرة ليوارى جثمانه الثرى، والأصح أن السير يكون بخطى متسارعة، غير أن الأندلسيين عمدوا إلى التراخي والتثاقل في خطوهم، كما كانوا يجهرون بالتهليل والتصلية والتبشير والتنذير على صوت واحد أمام الجنازة[3] ومن العادات الإعلان عن الوفاة بارتقاء أحدهم إلى مئذنة الجامع قارئا شيئا من الذكر الحكيم، ذاكرا بعض الابتهالات ثم يعلن وفاة فلان وتوقيت جنازته[4].

ويكره دفن الميت في تابوت لأنها عادة النصارى[5]، أو البناء على قبره، وإن لم تقف هذه الكراهة والنهي

[1]- زيغريد هونكه: المرجع السابق، ص226.

[2]- ابن شُهيد: المصدر السابق، ص36.

[3]- كمال السيد أبو مصطفى: جوانب من حضارة المغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي، مؤسسة شباب الجامعة، د.ط، الإسكندرية، 1997، ص41.

[4] المرجع نفسه، ص42.

[5]- المرجع نفسه، ص43. الطرطوشي: المصدر السابق، ص154.

حائلا أمام تكليس القبور وتبليطها، وتفشت هذه الظاهرة وسرت بين الأعيان الذين كانوا يدفنون في مقابر خاصة، فبالنسبة للأسرة الأموية الحاكمة وجدت مقبرة الروضة الملحقة بقصر قرطبة، وكثيرا ما كان العلماء يدفنون في دورهم[1].

ولكن في الظروف الاستثنائية كالفتنة في قرطبة أواخر العهد الأموي صار الدفن غير متاح بسبب الاضطرابات وانعدام الأمن، فإما أن يستتر أهل الميت بعتمة الليل أو يدفنوا ميتهم في بيته.

وإذا مات الرجل فإن النسوة من أهله وأقاربه والجيران يتبعن الجنازة، كما تتعهد المرأة قبر زوجها أو ولدها بالزيارة خلال الجمع والأعياد، وكان هذا الفعل مستهجنا؛ نادى الفقهاء مرارا بضرورة التوقف عنه ولكن وككل العادات المترسخة يصعب القضاء عليها سريعا.

حُرمت النياحة على الميت وشق الجيوب واللطم حتى بلغ الأمر سجن النائحات قمعا للظاهرة وحدا من تفشيها[2]، فالحزن والبكاء مباح للتعبير عن لوعة الفراق؛ لكن لا يجب أن يبلغ هذا المدى ليصير اعتراضا على قضاء الله وقدره، وكما أشرنا سابقا فإن لبس البياض شارة من شارات الحداد والحزن.

و التعزية من السنن المرغوب فيها، ولكن التصدي لها بدعة، يعزي الكبير والصغير والرجل والمرأة إلا أن تكون شابة فلا يعزيها إلا ذو رحم[3].

كان يُبعث لأهل الميت بالطعام لأن مصيبتهم تشغلهم عن كل شيء، وهذا من السنة والبر بالأهل والجيران، وفي سابع الميت يصنع أهله طعاما للقراء والفقراء والأقارب للترحم على الميت، ويسمى هذا الطعام عشاء القبر، كما يستأجرون أحد القراء لتلاوة ما تيسر من القرآن على القبر، وقد يكون في اليوم الثاني أو الثالث أو بعد شهر أو سنة، والمآتم أيا كان توقيتها ممنوعة بإجماع العلماء[4].

يكتبون أبيات من الشعر لتنقش على شواهد قبورهم مثال ذلك المنصور بن أبي عامر الذي أوصى بأن يكتب على قبره ما يلي:

أثارك تُنبيك عن أخبارك   حتى كأنك بالعيون تراه
تالله ما ملك الجزيرة مثله   حقا ولا قاد الجيوش سواه[5]

كما كان يجمع الغبار العالق في ملابسه من غزواته العديدة ويجمع في كيس أمر بأن يدفن معه، ولابن شُهيد أيضا أبيات شعر طلب كتابتها على قبره منها:

يا صاحبي قم فقد أطلنا   أنحن طول المدى هجود
فقال لي: لن تقوم منها   ما دام من فوقنا الصعيد

---

[1]- ميتز: الحضارة الإسلامية...، ج2، ص235.
[2]- المرجع نفسه، ص233.
[3]- الطرطوشي: المصدر السابق، ص170.
[4]- نفسه. كمال أبو مصطفى: الرجع السابق، ص42.
[5]- ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، 301.

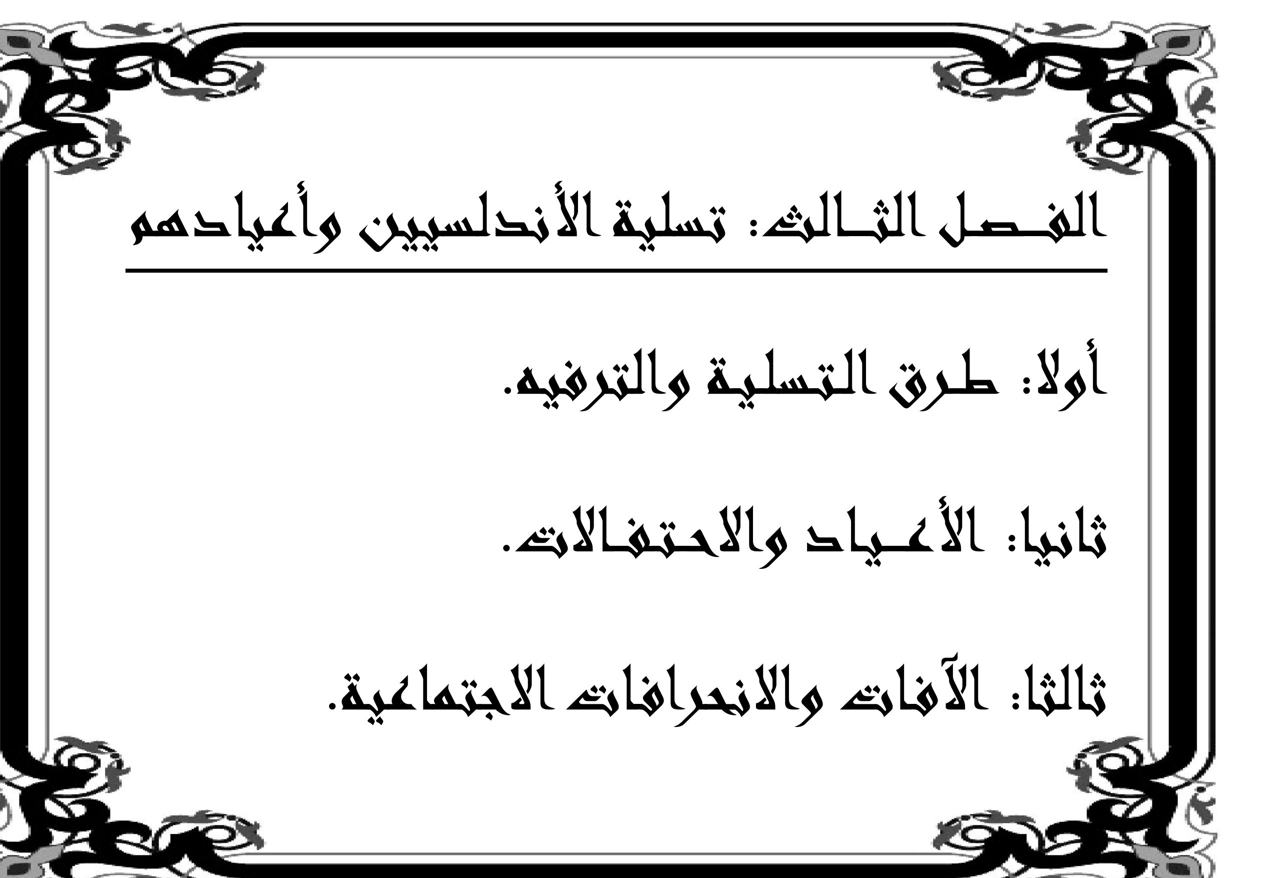
تذكر كم ليلة لوهنا   في ظلها والزمان عيد

....

يارّبِ عفوا فأنت مولى   قصَّر في أمرك العبيد[1]

هذه أبرز العادات والتقاليد المتغلغلة في يوميات الأندلسيين، نقترب من خلالها لفهم المجتمع والإحاطة قدر المستطاع بخصوصيته، لتشكيل صورة تقريبية وإن لم تكن مكتملة الملامح، بحكم سكوت المصادر عن التفصيل والاسترسال في هذا الجانب.

[1]- ابن شُهيد: المصدر السابق، ص67.



الفصل الثالث: تسلية الأندلسيين وأعيادهم

أولا: طرق التسلية والترفيه.

ثانيا: الأعياد والاحتفالات.

ثالثا: الآفات والانحرافات الاجتماعية.

لا تمر حياة الإنسان على نسق روتيني واحد، بل تتخللها الكثير من الأحداث المناسباتية والممارسات الرامية إلى نشر البهجة والترفيه.

طرق التسلية والترفيه:

تبنى الأندلسيون طرقا شتى ووسائل مختلفة للترويح عن النفس وكسر روتينية الأيام؛ والتخفيف من أعبائها التي تثقل الروح وترهقها، فطبيعة النفس البشرية أنها تمل، لذا تحتاج للتغيير بين الفينة والأخرى كي تكون أقدر على خوض غمار الحياة، وزاد من هذا الميل جمالية الأندلس وسحر طبيعتها الفتان فهي تفتح نفس سكانها على الحياة ليقبلوا على ملذاتها ومباهجها كأنما روح الطبيعة سُكبت في أرواحهم، أضف إلى ذلك رفاهية العيش ورقي الحضارة، فالمتعارف عليه أن الإنسان كلما رسخت أقدامه في المدنية مال إلى حياة الترف والدعة الناتجة عن التطور، زيادة على أن طباع سكان بعض المناطق لونت حياتهم بأطياف من البهجة والصخب فالمقري يقول عن أهل إشبيلية:" بأهلها يضرب المثل في الخلاعة، وانتهاج الساعة بالساعة".

وعموما لم يكن أهل الأندلس طفرة، فأساليبهم المتبناة مأخوذة من المعتاد عند الشعوب العربية مطعمة بتأثيرات من جيرانهم، وقد تنوعت وسائل الترفيه والتسلية تبعا لمكانة الفرد وثقافته ومستواه المعيشي، ونذكر منها:

– **الفروسية وسباق الخيل** : الخيل عند العربي امتداد له وجزء لا يتجزأ منه، لها في النفس مكان لا ينازعه أحد، فلا عز إلا بها، وقد انتقل هذا الاهتمام و التبجيل مع الفاتحين الذين أدخلوا معهم خيولهم العربية الأصيلة التي حافظوا على سلالتها كونها الأفضل، و بتهجينها ولد الحصان الاسباني.

وكان ترويض الخيول وتربيتها مُتَفش بين فئات المجتمع، فالحكام يتلَهون بتربيتها وركوبها، كالحكم المستنصر الذي كان له في رحاب قصوره قرابة عشرين ألف جواد[1]، وقبله امتلك الحكم الربضي ألف فرس مرتبطة بباب قصره على جانب النهر[2].

ويُولي الأثرياء اهتماما وعناية بالغة بالأفراس، حتى أصبحت محط أنظار ذوي السلطة والمكانة فالخيول لا تتخذ للركوب فقط بل أيضا للزينة والمباهاة، فهي دليل على الجاه والسلطان والغنى[3].

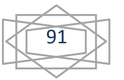
وتعد الفروسية فسحة لإبراز المواهب، وتأكيد الشجاعة، تقام ألعابها في ساحات عمومية، منها بمدينة غرناطة ساحة باب الرملة و ساحة باب الطوابين، تُجرى فيها المبارزات الفردية والجماعية، والرماية التي تتم بقذف الفرسان لرماحهم نحو دائرة خشبية تسمى الطبلة [4]، وسباقات الخيل التي وصف مضاميرها

[1]– مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص172.

[2]– ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص79.

[3]– نادر فرج زيادة: المرجع السابق، ص166،177.

[4] – بوتشيش: المغرب والأندلس...، ص96.



شاعر فقال:

ترى من يرى الميدان يجهل أنه لأهل التباري في الشطار ميدان
كأن الجياد الصافنات وقد عدت سطور كتاب والمقدم عنوان[1]

وفي هذه السباقات تتم المراهنة على الحصان الفائز.

– **الصيد**: ظلّ الصيد محتفظا بالصدارة كأفضل تسلية أحبها الخاصة كما العامة وشغفوا بممارستها، فكانوا يستمتعون باصطياد الطيور مثل: الحجل والحمام البري والغرنق والطيور الجارحة وغيرها، إضافة إلى الحيوانات البرية كالأرانب والغزلان والأيائل والمها وحمار الوحش، يستعملون في ذلك الفخاخ أو الكلاب أو الباز أو الصقور التي تربى في مناطق كثيرة من الأندلس خاصة لبلة وأشبونة[2].

شُغف الأندلسيون عموما والأمويون خاصة بهذه الهواية، وكان خروجهم في رحلات الصيد خروجا ضخما مصحوبا بالخدم والأصدقاء وبعض رجال الدولة، و حتى أن الأمير عبد الرحمن الداخل في بعض غزواته أتاه آت ممن يعرف كلفة بالصيد فأخبره أن هناك مجموعة من الغرانيق واقفة في جانب المعسكر وحرّكه على الخروج إلى اصطيادها فرد الداخل قائلا:

دعني وصيد وُقّع الغرانق فإن همي في اصطياد المارق
في نفق إن كان أو في حالق إذا التظت لوافح الضّوائق[3]

وما كان ليُستحث وهو في غزوة لو لم يكن ولوعه بالصيد شديد، وقد شاركه هذا الميل والحب أمراء وخلفاء البيت الأموي، حتى أن الفقهاء اتخذوه ذريعة لإثارة الناس ضد الحكم الربضي.

وكان للأمير هشام رحلات منظمة في جهة عدوة النهر الأعظم بقرطبة، جعلت العامة تتهمه حين جدد قنطرة الوادي بأنه فعل ذلك من أجل تصيده ونزهته، فحلف ألا يجوز عليها إلا لغزو أو مصلحة[4].

الأكثر من ذلك أن هذا الشغف كان سببا في الهلاك، إذ أن الثائر مطروح الذي شقّ عصى الطاعة على الأمير هشام وانزو بسرقسطة ثائرا، عندما طال به الحصار دفعه الضجر إلى الخروج متصيدا، فلما أرسل بازيه على طائر ونزل على الصيد تغاورته السيوف حتى قتل واحتزّ رأسه سنة 175هـ[5].

وقد لقبت العامة الأمير عبد الرحمن الأوسط بأبي الغرانيق[6] نظرا لولوعه بصيدها، فحتى برودة الشتاء لم تقف حائلا بينه وبين ممارسته للهواية التي يحبها، إذ ذكر الرازي أنه خرج لصيدها يوما فأبعد والفصل شتاء

---

[1] – الحميدي أبو عبد الله محمد بن أبي نصر بن فتوح بن عبد الله الأزدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر،د.ط، 1966، ج1، ص152.

[2] – عبد الوهاب خلاف: المرجع السابق، ص308.

[3] – ابن الأبار: المصدر السابق، ج1، ص41.

[4] – ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص63.

[5] – نفسه.

[6] – تقول العامة في أمثالها "أيام أبو الغرانيق" كناية عن عهده، أنظر: الزجالي: المصدر السابق، ص76.

وكان معه نديمه الشاعر عبد الله بن الشِّمْر فقال واصفا الموقف:

ليت شعري أمن حديد خلقنا   أم نحتنا من صخرة صماء
كل عام نحن في الصيف غزاة   والغرانيق غزونا في الشتاء
إذ نرى الأرض والجليد عليها   واقع مثل شقة بيضاء[1]

– **لعبة الصولجان**: تعرف حاليا بالبولو، فارسية الأصل تتم بضرب كرة خفيفة بعصا عقفاء، تبلغ الواحدة منها نحو أربعة أذرع طولاً، من على صهوات الخيل[2]، مارسها الأمراء والخلفاء في ميادين قصورهم، فقد جاء الحكم الربضي خبر مُحاصرة جابر بن لبيد لجيان وهو يلعب بالصولجان في القصر[3]، وفي وصف الشاعر عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم (ت 420هـ) لهلال يقول:

لما رأيت الهلال منطويا   في غرة الفجر قارن الزهرة
شبهته والعيان يشهد لي   بصولجان أوفى لضرب كرة[4]

– **الشطرنج** : هي"لعبة قديمة يلعبها شخصان على رقعة مربعة بها 64 مربعا، ذات لونين مختلفين أحدهما فاتح، والآخر غامق، وتوضع الرقعة بشكل يجعل اللون الفاتح إلى يمين اللاعب، ولكل لاعب 16 قطعة يلعب بها...والقصد من اللعبة هو حصر أو إخراج شاه الخصم من اللعب"[5].

يُرجح أن أصلها هندي، وصلت إلى العرب عن طريق فارس، وبواسطتهم دخلت الأندلس، وعبرها إلى سائر أوروبا.

أحبها الأندلسيون وأنفقوا الوقت الطويل في لعبها لذا استهجنها الفقهاء، وعابوا على اللاعبين تضييع الوقت فيها، وتأخرهم عن أداء الصلاة في وقتها؛ لاستغراقهم في اللعب الذي قد يأخذ النهار كله وفيها يقول الغزال ناصحا ابن أخته إبراهيم:

غَمَّنِي عِشْقكَ لِلشَّطْـ   ـرَنْج هَـذا يَابْـرَهِيمُ
عـمَـلٌ فِي غَيْـرِ بِـرٍّ   واختِلافٍ وَلُـزومُ
إنَّـمَا أسَّسهَـا وَيْـ   ـحَكَ شَيْطَانٌ رَجيمُ
هَبكَ فِيهَا ألْعبَ النَّا   سِ فَمَاذّا يا حَكِيمُ ؟
لَعْبَـةُ الشَّطـرنج شُـؤمٌ   فَاجتَنِبْهَا يَاشَـؤومُ
....

[1] – ابن سعيد: المصدرالسابق، ج1، ص125.
[2] – آدم ميتز: المرجع السابق، ج2، ص175.
[3] – ابن عذارى : المرجع السابق، ج2، ص79.
[4] – أحمد يحي بن عميرة الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ط1، القاهرة، بيروت، 1989، ج2، ص511.
[5] – شفيق غربال : المرجع السابق، ص1084.

إنَّمَــا هــي لأنَـــاس شَأنُهم شَأنٌ عَظِيـم
مَلِـــكٌ يُجبـــى إليْـــه أو وَزيـرٌ أو نَــدِيـم!
أو رجـال وَرِثـوا الأمْـ ـوالَ للدهــر سلُـوم!
فَادّكر مَا بيدِ القَــا ئِم عنهـــا إذ يَقـُــوم
هـل سوى شيء يسيرٍ من سُرور لا يَــدُوم؟
فــإذا مَــا أبلـغ البيــ ـتَ فَمَحْسُورٌ مَلُوم![1]

فالغزال يرى كالكثيرين غيره أنها تشغل عن الكسب والعمل، لذا فهي أنسب للأغنياء أو ذوي الشأن الذين يستندون على ثروتهم، لأنه لا ربح يرجى من ورائها سوى سعادة مؤقتة تبددها الحسرة واللوم على الوقت الضائع فيها دون طائل منه، لذا قالت العامة في أمثالها: "أقل للنحس: أي تمشي؟ قال لشطرنجي إن مورَّك."[2]

ومن هذا الباب رأى بعض الفقهاء حرمتها ففي إحدى فتاوى ابن تيمية التي سئل فيها عن حكم لعب الشطرنج يرد:"منه ماهو محرم عند الجمهور ومكروه عند بعضهم...فإذا اشتمل اللعب بها على العوض كان حراما بالاتفاق...وكذلك لو اشتمل اللعب بها على ترك واجب أو فعل محرم"[3].

والغالب أن الفائز في الشطرنج يكافئه خصمه بهدية ما أو أكلة محببة، ورغم كل ما قيل فيها ظلت لعبة واسعة الانتشار والممارسة.

– النرد: النرد عبارة عن مكعبات من العاج أو العظم أو الخشب، وبكل وجه من الأوجه نقاط مرتبة من الواحد إلى الستة، وهي منسقة بحيث يكون مجموع النقاط في كل وجهين متقابلين سبعة، عرفتها الشعوب القديمة كالمصريين والبابليين، تتم اللعبة على رقعة بها اثنا عشر أو أربعة وعشرون منزلا بثلاثين حجرا أو فصين، تدور على الصدفة والاتفاق[4]، تلعب ابتغاء الكسب صراحة، أي يتم القمار بها.

– سباق الحمام: إلى جانب الدور البارز الذي شغله الحمام كوسيلة لإيصال الرسائل والبريد أستخدم في مجال اللهو عن طريق إجراء سابقات له، شُغف بها الأمراء والخلفاء وخاصتهم، وكانت أكثر شيوعا في المشرق منها في الأندلس[5].

ووجدت كذلك المهارشة بين الحيوانات من مناطحة كباش و مناقرة ديوك وكلاب...إلخ.

---

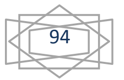
[1]– يحي الغزال: المصدر السابق، ص73-74.

[2]– الزجالي: المصدر السابق، ج2، ص22.

[3]– تقي الدين أبو العباس أحمد بن شهاب الدين بن تيمية: حكم الإسلام في النرد والشطرنج، تحقيق: عمرو عبد المنعم سليم وحسن زكريا فليفل، دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع الإسكندرية، د.ط، د.ت، ص25.

[4]– آدم ميتز: المرجع السابق، ج2، ص258.

[5]– عبد الوهاب خلاف: المرجع السابق، ص311.



ومن لعب الأطفال الشائعة في ذلك العصر:

– **الأرجوحة**:

– **الدوامة**: وهي قطعة خشبية مخروطية الشكل، يلف حولها خيط ثم يجذب بسرعة فتدوم على الأرض أي تدور[1]، وهي أشبه ما يعرف اليوم بالبلابل.

– **اللطمة والمقرع**: كانت تمارس بين االشبان والصبيان، نهى ابن عبدون عن لعبها لأنها نذير النفاق والهرج[2].

– **القِرْق**: تسمى السُّدَّر لعبة للصبيان يخطون في الأرض خطا ويأخذون حصيات فيصفونها[3]

– **المِقْلاء والقُلة**: المقلاء خشبة بقدر ذراع أما القلة أو القال فهي خشبة صغيرة طرفاها ناتئين عن الأرض، تنصب ويرمى بها في الجو بواسطة المقلاء، ثم تضرب في الهواء لتستمر ماضية، فإذا سقطت ضُرب أحد طرفاها لتستدير وترتفع مجددا[4].

– **الأُنبوثة**: يحفر الصبيان حفرة ويدفنون فيها شيئا ومن يستخرجه هو الغالب، فكأنها لعبة البحث عن الكنز، ومثلها **البُقيرة**[5].

– **الحَجُورة**: يرسم الأطفال دائرة يقف فيها واحد منهم ثم يحاولون إخراجه[6].

– **الخُذروف**: عود مشقوق في وسطه، يُشد بخيط ثم يدور فيصدر صوتا[7].

وتذكر قواميس اللغة الكثير من الألعاب غير هاته، تشترك جميعها في بساطة أدواتها، المستخرجة أساسا من البيئة التي يعيش فيها الطفل.

و في الشوارع والأسواق يتحلق الناس حول المهرجين متفرجين على خيالات الظل، لتتعالى ضحكات البعض الآخر متراقصة فرحا أمام الحاكية وهو يقلد في براعة صنوفا من الناس، وفي ناحية من النواحي ترى الأنظار مشدوهة في انبهار صوب خوارق الحُواة التي تحاكي السحر، لاهين عن أداء أعمالهم وقضاء مصالحهم، لذا عارض المحتسبون وجود الحواة في الشوارع، وأمروا بإخراجهم من البلد[8].

وأمام القصاص تسرح الأخيلة مع شخصيات الحكاية هائمة في تفاصيلها التي يرويها بأسلوب مشوق وممتع، فمرة يروي فصولا من السيرة النبوية وأخرى يقُص أخبار الملوك والأبطال أو حكايات تجري في

[1]– أحمد تيمور: لعب العرب، مطبعة دار التأليف، ط1، القاهرة، 1948، ص28.

[2]– ابن عبدون وآخرون: المصدر السابق، ص52.

[3]– ابن منظور: المصدر السابق، ص3602.

[4]– ابن سيدة: المصدر السابق، ج13، ص17.

[5]– المصدر نفسه، ص18.

[6]– نفسه.

[7]– تيمور: المرجع السابق، ص24.

[8]– ابن عبدون وآخرون: المصدر السابق، ص51.

الأوساط الشعبية[1]، وقد استهجن الفقهاء جلوس القاصِّ في المسجد ورأوا ذلك من البدع.
وتشخص الأبصار في وجل مُتسمرة أمام المروضين وهم يلاعبون في مضامير خاصة الأسود والنمور، فيما يشبه أعمال السيرك اليوم.
و للتسلية أيضا تدور الأحاجي والألغاز على الألسن ويتبادلها الشعراء والأدباء في تحد بينهم، فهي من جوامع الكلم ودلالات النباهة والذكاء.

ولأن الأندلسيين أهل "دعابة وحلاوة في محاوراتهم، وأجوبة بديهية مسكتة، والظُرف فيهم والأدب كالغريزة، حتى في صبيانهم ويهودهم، فضلا عن علمائهم وأكابرهم"[2] فقد تفشت روح الفكاهة وسرت بينهم، حتى أن الأمراء والخلفاء كانوا يبحثون عن الـمُضحكين والمهرجين لتسليتهم، فمثلا سليمان بن المرتضى بن مُحَّد بن عبد الملك بن الناصر وهو المحب المولع بالفكاهة التزم بخدمته المضحك المشهور بالزرافة وله معه نوادر مستطرفة ترويها الكتب[3]، وكانوا يتحرون أخذهم معهم في حلهم و ترحالهم، كما فعل شنجول الذي يصطحبهم معه في جولاته من متنزه إلى آخر[4].

– الخروج إلى المنتزهات: حوّل الأندلسيون ببراعتهم الزراعية بلادهم إلى فردوس يتوشح الجمال ويرفل فيه، إذ ساعدوا بذكائهم الطبيعة لتورق وتزهر[5]، وعملوا من خلال الحدائق التجريبية على أقلمة النباتات التي كان يؤتى بها من المشرق مع مناخ المنطقة، حتى صارت الأندلس كما وصفها ابن خفاجة جنة:

يا أهـل أندلس لله درّكـم ... ماء وظل وأنهار وأشجار
ماجنة الخلد إلا في دياركـم ... ولو تَخيرت هذا كنت أختار
لا تحسبوا في غد أن تدخلوا سقرا ... فليس تُدخل بعد الجنة النار

ولأنها جنة فقد طاف بها أهلها، وأقروا أعينهم بسحرها، لذا اتخذوا من التنزه في رياضها وبساتينها أسلوب حياة، فالندماء تحت ظلال الخمائل ينسجون من الحروف بُسطا تحاكي الحقول فتنة وروعة، ويرتشفون أقداح الرّاح ممزوجة بأنفاس الزهر، قال شاعر:

ويوم لدى التي في شاطئ النهر ... تُدار علينا الراح في فتية زهر
وليس لنا فرش سوى يانع الزهر ... يدور بها عذب اللمى أهيف الخصر
بفيه من الثغر الشنيب نظام[6]

[1] – عبد الوهاب خلاف: المرجع السابق، ص292.
[2] – المقري: المصدر السابق، ج1، ص209.
[3] – عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الأندلس...، ج2، ص96.
[4] – ابن عذارى: المصدر السابق، ج3، ص20.
[5] – جوزيف ماك كيب: المرجع السابق، ص42.
[6] – مُحَّد سعيد الدغلي: الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي وفي الأدب الأندلسي، منشورات دار أسامة، ط1، مصر، 1984، ص84.

حركت البيئة القرائح فسالت متدفقة فيما عُرف بشعر الطبيعة، يأخذك و أنت تقرأه على جناح الخيال إلى أندلس خضراء مزهوة بحسنها، تهيم فيها وأنت لم ترها، فما بالك بمن عاش في ربوعها؟ لذا لم يَبُزهم في هذا النوع من الشعر أحد.

والأسر تقصد المتنزهات المبثوثة في كل الأرجاء، فتراهم كأسراب الحمام يحطون في حير[1] الزجالي -الذي أوصى به أبو مروان الزجالي ليستجم به الناس إيذانا بميلاد الحدائق العامة[2]- أو عين الدمع...وغيرها، كما اتخذ الموسرون الحدائق و المنى يتنفسون شذى ورودها، ويتجردون فيها من متاعب الأيام، وأُلحق ببعضها ما يشبه حدائق الحيوان في عصرنا، ففي الزهراء اتخذ الناصر محلات للوحوش فسيحة الفناء متباعدة السياج، ومسارح للطيور مظللة الشبابيك، وبها أيضا برك الماء للاستجمام، ينزلون فيها أيام الحر للتبرد، مثلما كان يفعل الخليفة الحكم المستنصر، الذي جاءه في إحدى أيام الصيف القائضة القاضي منذر بن سعيد بعد صلاة الجمعة، و شكا له من شدة الحر، فأمره بالتخفيف من ملابسه، ولما لم يجد الأمر نفعا في تلطيف ما به، أمره أن ينزل في الصهريج، لكنه عارض استحياء ولم يدخله إلا بعدما سبقه إليه الحاجب جعفر[3].

يقصدونها للنزهة مع عائلاتهم وندمائهم وخاصتهم، فالخليفة عبد الرحمن الأوسط طلبت منه إحدى كريماته إخراجهن للنزهة على ما جرت العادة، فأمر حاجبه عيسى بن شُهيد بالنظر فيما تحتاج إليه هذه النزهة على أتم رسومها، بيد أنه مات في نفس اليوم قبل خروجه المقرر في اليوم الموالي[4].

ووجدت النزهات النهرية التي ضبطها المحتسبون بشروط فابن عذارى ينقل عن ابن حزم حديثه عن رحلة نهرية مع المنصور بن أبي عامر في زورق على النهر الذي بين يدي الزاهرة في نفر من وزرائه، في جو يعبق بشذى الأنس والمسرة[5].

- **مجالس الغناء والطرب**: اعتُبر فن الغناء والموسيقى والرقص منذ مطلع القرن الثالث الهجري أكثر وسائل اللهو شيوعا وتفشيا في المجتمع الأندلسي، فلا معنى لمجلس أنس دون صوت حسن صادح، متناغم مع عزف عود أو مزمار[6].

وامتازت مجالس الغناء؛ وكعادة الأندلسيين دوما بالبساطة "فهناك مغنية تغني على أنغام عود تضرب عليه، أو مزمار ينفخ فيه زامر، أو صنج تقوم مقام الزمرة، وذلك في حالة إذا ما اشتركت في المجلس

---

[1]- الحير: في اللغة هو مجمع الماء، ويعني أيضا الحديقة المسورة، وقد كان جزء أساسيا من قصور الأعيان.(إقبال حسن أحمد الراوي: منيات (منى) الأندلس، مجلة التراث العلمي العربي، مركز إحياء التراث العلمي العربي، بغداد، العدد الرابع، 2011، ص137.

[2]- نفسه.

[3]- أبو الحسن بن عبد الله بن أبي الحسن النباهي المالقي: تاريخ قضاة الأندلس "المرقبة العليا في من يستحق القضاء والفتيا"، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الأفاق الجديدة، ط5، بيروت، 1983، ص72.

[4]- ابن حيان: المصدر السابق، القسم الخاص بعبد الرحمن الأوسط، ص161.

[5]- ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص299.

[6] - عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الأندلس، ج2، ص78.

راقصة مع الزامر"[1]، ولكن زرياب أحدث تغييرات على المجالس فجعلها أكثر تنظيما وتناسقا، وابتكر المنصة التي يقف عليها المغنون والعازفون، وأسس مدرسة للموسيقى انتشرت في كامل الأندلس طغت بشهرتها على الموسيقى المدنية التي كانت سائدة قبلا[2].

تتخلل هذه المجالس فقرات للمهرجين والسيافين، ولم يتورع الحضور عن معاقرة الخمر حدّ السكر.

يوحي الزخم الكبير من الشعر الواصف لهذه المجالس بتفشيها بين فئات المجتمع قاطبة، فهم ذواقون بطبعهم؛ تنتشي أرواحهم بالحُسن كيفما تجلى، حتى أن ردّة فعل الواحد منهم غير متوقعة، وعجيب ذلك ما رواه أبو عمر بن سالم المالقي، ففي أحد أيام الصيف الحارة، عرج إلى مسجد "رابطة الغبار" ليستريح فوجد به الخطيب أبو مُحَمَّد عبد الوهاب بن على المالقي وحيدا، يرجوا الله أن يلج عليه إنسان، فلما دخل طلب منه أن يسمعه من روائع ما يحفظ من الشعر، فكان مما قاله أبو عمر :

غصبوا الصباح فقسموه خدود   واستوعبوا غضب الأراك قدودا
ورأوا حظ الياقوت دون نحورهم   فتقلدوا شهب النجوم عقودا
لم يكفهم حد الأسنة والظبا   حتى استعاروا أغيدا وخدودا

فصاح الشيخ، وأغمي عليه، وتصبب عرقا، ثم أفاق بعد ساعة، وقال: يابني، أعذرني، فشيئان يقهراني، ولا أملك نفسي عندهما: النظر إلى الوجه الحسن، وسماع الشعر المطبوع."[3]

ويُحاكي هذا الموقف ما حدث في أحد مجالس المنصور؛ إذ لـمَّا بلغ السرور بابن شُهيد كل مبلغ، قام يرقص متكئا على شخصين لنقرس أصابه، أقعده حتى عن الصلاة واقفا، فأنشد :

هاك شيخ قاده عذر لك   قام في رقصته مستمسكا
لم يطق يرقصها مستثبتا   فانثنى يرقصها مستمسكا
عاقه عن هزها معتدلا   نقرس أخنى عليه فاتكا
طرب اللهو وقد حق له   طربا أرمصه حتى اشتكى[4]

وتعد أشبيلية مركز الغناء في الأندلس كما كانت قرطبة جوهرة العلم ولؤلؤته، فقد قيل "إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية."[5]

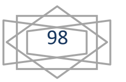
[1]- عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الأندلس، ص81.

[2]- العبادي: الأعياد في مملكة غرناطة، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مج 2، المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، العدد 1و2، 1954، ص145.

[3] - المقري: المصدر السابق، ج4، ص202.

[4] - المصدر نفسه، ص59.

[5] - المصدر نفسه،ج1، ص136.



والملاحظ أن الغناء شاع في الأندلس قاطبة كوسيلة للترفية، استمع له الجميع دون تمييز، حتى الفقهاء كانوا يطربون لذلك، ولا يخفون ما أحدثه السماع في نفوسهم من انطباعات وتفاعلات، فهذا أحمد بن مُحَّد بن عبد ربه (ت 328)، مرَّ ذات يوم بشرفة أحد الأعيان، فسمع بها صوت غناء عذب استوقفه، ليفاجأ بماء يُصب عليه من الشرفة، فتوجه صوب المسجد وكتب على بعض ألواح الصبيان:

يا من يضن بصوت الطائر الغرد　　ما كنت أحسب هذا البخل في أحد
لو أن أسماع أهل الأرض قاطبة　　أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد
فلا تظن على سمعي تقلده　　صوت يجول مجال الروح في الجسد
لو كان زرياب حيا ثم أسمعه　　لذاب من حسد أو مات من كمد
أما النبيذ فإني لست أشربه　　ولست آتيك إلا كسرتي بيدي [1]

ثم لما بلغت الرسالة صاحب الدار استدعاه وأكرمه، وغنت له الجارية التي أعجب بصوتها، ويُقال أنها مصابيح التي أخذت الغناء عن زرياب.

وقد شوهد أيضا قاضي الجماعة مُحَّد بن أبي عيسى في دار رجل من بني حدير مع أخيه في ناحية مقابر قريش وقد خرجا لحضور جنازة، فغنتهم جارية للحديري أبيات كتبها القاضي مُحَّد بن عيسى في يده شوهدت مكتوبة لما كبر للجنازة، والأبيات هي:

طابت بطيب لثاتك الأقداح　　وزهت بحمرة خدك التفاح
وإذا الربيع تنسمت أرواحه　　طابت بطيب نسيمك الأرواح
وإذا الحنادس ألبت ظلماءها　　فضياء وجهك في الدجى المصباح [2]

ولا يعني هذا أن الغناء وجد التأييد من طرف الفقهاء، بل نظروا إليه بعين السخط لا الرضا، ورأوا أن الانشغال به لا يليق إلا بالموالي والإيماء، ولم يقبلوا شهادة المغنين، ومنعوا بيع كتبهم علنا، بل يأمر المتشددون منهم بكسر آلات الموسيقى التي توجد مع المغنيين في الطرقات[3]، ومع ذلك وجد طريقه للانتشار كأحب وسائل اللهو والتسلية إلى أفئدة الأندلسيين.

---

[1] الحميدي، المصدر السابق، ص165-166. أنظر أيضا : الضبي : المصدر السابق، ص129.

[2] - الضبي: المصدر نفسه، ص126.

[3] - أنخل جنثالث بالنثيا: المرجع السابق، ص55.

2- الأعياد والاحتفالات :

أ- الأعياد: يتصل بعضها اتصالا وثيقا بالدين، بينما يرتبط بعضها الآخر بالسنة والفصول و الأرض، لذا تعددت وتنوعت وإن تشاركت في جماليتها وبساطتها، فهي تفيض بالبهجة والمسرة التي يتقاسمها المسلمون وأهل الذمة متجاوزين حدود الفوارق مكتفين بأندلسيتهم.

ومن الأعياد التي احتفل بها الأندلسيون نجد أن أهم عيدين لدى المسلمين هما:

- عيد الفطر: يأتي في أول شوال بعد شهر من الصيام، تُقدم في صباحه الصدقة قبل أداء الصلاة التي تتم بقرطبة مثلا في المصلى الخارج عنها، يقعد بعدها الخليفة في مجلسه لتلقي التهاني، ويصف لنا ابن حيان إحدى مجالس المستنصر قائلا: "أفطر أهل قرطبة ومن جاورها يوم الجمعة الذي كان اليوم الثامن عشر تموز، وقعد الخليفة المستنصر بالله بعد انقضاء صلاة العيد، لتسليم الجند عليه في محراب المجلس الشرقي من قصر الزهراء...قعودا فخما...شهده طبقات الناس، فكان صدره الإخوة وجنباته الوزراء وموسطتة أهل المراتب من طبقات أهل الخدمة، و سائره لوجوه الموالى وبياض رجال قرطبة...وظلت الخطباء والشعراء في هذا الحفل تناغي فيما ترجل من خطبها، وتنشد من أشعارها فتكثر وتجيد"[1]،كما يتبادل الناس خلاله التهاني والزيارات وتُرتدى الثياب الجديدة، في طقوس لا تختلف كثيرا عن المعتاد في وقتنا الحالي.

- عيد الأضحى: يكون في العاشر من ذي الحجة ، وهو فرصة للاحتفال والتأنق في المطاعم والمشارب، واتخاذ الزينة على تفاوت المستويات المعيشية، فقد كانت كل أسرة فقيرة أو غنية تحرص على تقديم الأضحية خروفا على الأقل[2]، يُشترى من السوق وينقله الحمال على رأسه إلى بيت الشاري، و تعطينا "مقامة العيد" للأزدي صورة تقريبية لأوضاع الأسرة عند اقتراب العيد، فحتى وإن كانت متأخرة زمنيا عن الفترة محل الدراسة إلا أنها تسلط الضوء على مجتمع لم تختلف ملامحه كثيرا بل يتقاطع في سماته مع الحاضر، ففيها نجد مواصفات الأضحية التي يتسابق الناس لاقتنائها "...كبش سمين، واسع الصدر والجبين، أكحل عجيب، أقرن...يعبق من أوداكه كل طيب، يغلب شحمه على لحمه، وسيل الودك من عظمه...لا بالصغير ولا بالكبير، تصلح عليه الألوان، ويستطرف شواه في كل الألوان، ويستحسن ثريده وقديده في سائر الأحيان"[3]، ونقف من خلالها على كراهتهم التضحية بالماعز وتحبيذهم للضان، وتُصور غيرة الجيران من بعضهم، وسعي كل واحد ليكون الأفضل بما يقتنيه. فضلا عن إشارتها للبيع والشراء بالتقسيط.

---

[1] - ابن حيان : المصدر السابق، القسم الخاص بالحكم المستنصر، ص19-20.

[2] - خلاف: المرجع السابق، ص303.

[3]- أحمد مختار العبادي، مقامة العيد لأبي محمد عبد الله الأزدي (ت 750هـ/1350م) صورة من صور الحياة الشعبية في غرناطة، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مج 2، المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، العدد 1و2، 1954، ص173.

وصباح العيد تنشغل كل الأسرة بالأضحية وإعدادها بعد الذبح، إذ يُرسل رأسها إلى الحارة ليشوط في الحفر المخصصة لذلك، لتستمتع الأسرة بعدها بالشواء ومختلف صنوف الطعام[1].

ومظاهر الاحتفال في هذا العيد – باستثناء نحر الأضحية – تحاكي نظيرتها في عيد الفطر من ارتداء الثياب الجديدة، صلاة العيد –التي كانت تشارك فيها النساء كذلك، وإن رأى الطرطوشي أنهن يخرجن للتفرج لا للصلاة[2]– تلاوة الذكر الحكيم، إنشاد الموشحات الدينية، تقديم التهاني للخليفة الذي ينشد الشعراء بين يديه القصائد المناسبة للمقام[3]، ويتبادل الناس التهاني فيما بينهم، زيارة الأهل والأقارب وحتى القبور، وما إلى ذلك من المظاهر التي تحاكي شبيهتها في أيامنا.

إلا أن الأوضاع غير العادية تفرض على الناس التخلي على جزء من عاداتهم مما يفقد العيد بهجته المألوفة، فإبان الفتنة لم يتمكن القرطبيون من الخروج إلى المصلى جزعا وخوفا[4]، وأي لذة لعيد يُحرم فيه الناس من أداء صلاته؟!

إضافة إليهما أُحتفل بمناسبات دينية أخرى هي:

– **الجمعة:** هي بمثابة عيد للمسلمين، يتخذها الأندلسيون عطلة، إذ يتوقف ارتياد الطلاب لمجالس الدرس من زوال الخميس حتى يوم السبت، يلبس خلالها المصلون حللا أنيقة ونظيفة، ثم يتوجهون لأداء صلاة الجمعة في المسجد الجامع، كما يُخرج فيها المحسنون الصدقات.

– **المولد النبوي:** أحتفل به تعظيما للرسول ﷺ وتبينا لقوة الانتماء الإسلامي، إذ اتخذوا من يوم مولده في 12ربيع الأول احتفالا محاكين في ذلك أهل المشرق.

حيث اعتاد الناس في هذا اليوم المبارك إيقاد الشموع، وارتداء أحسن الثياب، وإكثار الصدقات على الفقراء والمساكين الذين يُعد لهم الطعام، مع التوسعة على الأبناء في الأكل، كما كان الأثرياء من الفقهاء يحرصون على إقامة الولائم ودعوة الأصدقاء إليها.

وفي الكتاتيب يُشعل المعلمون الشموع ويجتمعون مع صبيانهم للصلاة على المصطفى، وتلاوة القرآن، وإنشاد المدائح[5].

– **عاشوراء:** وتكون في العاشر من شهر محرم، يصومون فيها ويُوسعون على أنفسهم وأولادهم في هذا اليوم، ويشترون الفواكه المتنوعة والحلوى[6]، وفي هذا اليوم كتب عبد الملك بن حبيب للأمير عبد الرحمن الأوسط:

1– عصمت عبد اللطيف دندش: المرجع السابق، ص325،326.

2– الطرطوشي: المرجع السابق، ص151.

3– أحمد مختار العبادي: الأعياد في مملكة غرناطة، ص147.

4 – ابن عذارى: المصدر السابق، ج3، ص107.

5– كمال السيد أبو مصطفى: المرجع السابق، ص44.

6– عصمت عبد اللطيف دندش: المرجع السابق، ص326.

لا تنس لا ينسيك الرحمن عاشوراء   واذكره لازالت في الحياء مذكورا
قال الرسول صلاة الله تشمله   قولا وجدنا عليه الحق والنورا
فارغب فديتك فيما فيه رغبنا   خير الورى كلهم حيا ومقبورا[1]

– **شهر رمضان**: له مكانته المرموقة بين الشهور، فهو شهر الصيام، يستعد الأندلسيون لاستقباله بشراء مختلف اللوازم والمتطلبات، وبشوق المترقب يتحرى الفقهاء هلاله، تتزين فيه المساجد بأبهى الحلل احتفاء بقدوم سيد الشهور، ففي المسجد الجامع بقرطبة على عهد المنصور كان يُستهلك من فتائل الكتان ثلاثة أرباع القنطار، ويحتاج من الزيت في العام خمسمائة ربع ونحوها، يُصرف منها في رمضان نصف العدد، وثلاثة قناطير من الشمع، وثلاثة أرباع القنطار من الكتان المُقصَّر لإقامة الشمع المذكور، توقد بجانب الإمام شمعة كبيرة تزن من خمسين إلى ستين رطلا، يحترق بعضها بطول الشهر ويعم الحرق لجميعها ليلة الختمة[2].

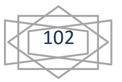
يُسارع فيه المسلم للطاعات تقربا لله وتزلفا، فيتحرى الإكثار من الصدقات[3]والكف عن الفواحش والموبقات، وختم القرآن عديد المرات، وتُتخذ لياليه فسحة للتعبد، بيد أنها عند البعض الآخر تستغل في في السهر والمرح، فالمتاجر تظل مفتوحة لوقت متأخر، مما يجعل الشوارع المضاءة مغمورة بالحركة والحيوية.

وفيه ليلة خير من ألف شهر؛ هي ليلة القدر التي يُحتفل بها **ليلة السابع والعشرين**، من خلال ابتياع الحلوى وختم القرآن في المساجد، حيث كانت تشارك فيه النساء كذلك[4]، والطرطوشي أنكر اجتماع الأندلسيين على ابتياع الحلوى في هذه الليلة ورآه من البدع[5].

ول**شعبان** الشهر الذي يسبقه أجواؤه الخاصة، إذ تقام المآدب التي تعرف بالشعبانية، ويشترون للأطفال الأبواق يتسلون بها[6].

إلى جانب أعياد المسلمين، ونظرا للتسامح الديني الشائع في رحاب الأندلس، احتفل المسلمون مع أهل الذمة بأعيادهم دون تمييز عقائدي، فالإسلام لا يجبر معتنقي الديانات الأخرى على التخلي عن عاداتهم وطقوسهم، وحتى الداخلين في الإسلام احتفظوا ببعض ممارساتهم وتمسكوا بها دون استشعار منهم لضرورة التخلي عنها وهي جزء من تفاصيل يومياتهم؛ فالأسرة الواحدة قد تضم في كنفها أكثر من عرق

[1]– المقري: المصدر السابق، ج1، ص338.
[2]– ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص287.
[3]– يذكر ابن حيان أن الحكم المستنصر كان من عادته عند دخول شهر رمضان إشاعة الصدقات، والتفتيش عن أهل الحاجات ومساعدتهم. (ابن حيان: المصدر السابق، القسم الخاص بالمستنصر، ص16.)
[4] – إبراهيم القادري بوتشيش: المغرب والأندلس...ص88.
[5]– الطرطوشي: المصدر السابق، ص150.
[6]– عصمت عبد اللطيف دندش: المرجع السابق، ص326.



ومعتقد، كما أن الامتزاج الحاصل بين مختلف أطياف المجتمع ولد هذا التشارك الذي كان عفويا لا تكلف فيه، وأشهر الأعياد:

– **عيد النيروز**: أختلف في أصل هذا العيد، فهناك من يقول أنه رأس السنة الفارسية، فنيروز تعني اليوم الجديد، مدته عندهم ستة أيام، ويسمون اليوم السادس النيروز الكبير، وهناك من يرى أنه يمثل رأس السنة القبطية، يحل في أول شهر توت سنويا، ويغلب على الظن أن عادة الاحتفال بهذا العيد قد انتقلت إلى الأقباط[1] عن قدماء المصريين، وهو بمثابة عطلة عامة[2]، تصنع فيه أطباق وحلويات خاصة كالزلابية والهريسة، تجهز قبل الصباح ويتبادلها الناس[3]، وكانت تحدث في كثير من المرات مشاحنات بين الأزواج في أواسط الأسر المسلمة؛ نظرا لإصرار المرأة على ابتياع لوازم هذا العيد مقابل تراخي الرجل وتساهله في ذلك لأن العيد لا يعنيه كمسلم.

وكانوا يتفاءلون بهذه الليلة ويتخيرونها لمناسباتهم، فالمنصور بن أبي عامر تزوج من أسماء بنت غالب في نيروز سنة 367هـ.

– **عيد يناير**: شبيه بالنيروز؛ تصنع خلاله أصناف كبيرة من الحلوى تسمى المدائن، وهي على شكل مدن ذات أسوار، تصنع فيها –حسب وصف ابن عبد الملك المراكشي– أشكال من العجين مركبة على البيض المصبوغ بالحمرة والخضرة أو غير ذلك من الألوان، ثم يفرم الجميع بالزعفران ويطبخ في الفرن يتباهى الناس بتجويد صناعتها والإنفاق عليها[4]، ويشترط تقطيعها وأكلها بالأيدي دون استعمال السكاكين، كما تُبتاع الفواكه ويخرج الرجال مع النساء للتفرج[5]، يلبسون فيه أحسن الثياب ويدعون أصدقاءهم لقضاء الليل في الاحتفال والسمر.

تقام فيه النصبات؛ وهي موائد كبيرة مملوءة بالحلوى والفواكه الطازجة والمجففة والمكسرات، وقد يربو ثمن الواحدة منها عن السبعين دينارا لما تحويه من سكر وفانيد وضروب التين والليمون والنارنج والتمر والجوز واللوز والقسطل والبلوط وقصب السكر، وروائع الأترج والنارنج، تنضد وتُعد في البيوت والحوانيت.[6]

– **العنصرة (المهرجان)**: هو عيد ميلاد يحي بن زكريا عليهما السلام؛ الذي يسميه الإسبان بسان خوان، يُحتفل به في 24 جوان من كل سنة.

[1] – هم سلالة قدماء المصرين، ويقصد بهم اليوم المسيحيون المصريون، والكنسية القبطية تأسست في أوائل ظهور المسيحية، على يد القديس مرقس، وإلى الكنيسة القبطية يرجع الفضل في تأسيس الرهبنة ونشرها (شفيق غربال: المرجع السابق، ج2، ص1369.)

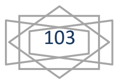
[2] – قاسم عبده قاسم: أهل الذمة في مصر العصور الوسطى، دار المعارف، مصر، د.ط ، 1977، ص162.

[3] – ابراهيم القادري بوتشيش: المغرب والأندلس...، ص92.

[4] – الزجالي: المصدر السابق، ج1، ص239.

[5] – الطرطوشي: المصدر السابق، ص151.

[6] – الزجالي: المصدر السابق، ص239.



يشتهر بشعلة النار المسماة بالعنصرة، يقيمونها في الشوارع ويقفزون فوقها ففي أمثالهم يقولون "الكبش المصوف ما يكفز العنصرة"[1]

يُغدق فيه الملوك بكرمهم على خاصتهم، مثال ذلك زرياب الذي كان يأخذ خمسمائة دينار لكل من عيدي النيروز والمهرجان، كما يتبادل الناس الهدايا، قال عبد الرحمن بن عثمان الأصم:

أرى المهرجان قد استبشرا   غداة بكى المزن واستعبرا
وسربلت الأرض أفوافها   وجللت السندس الأخضرا
وهزّ الرياح صنابيرها   فضوعت المسك والعنبرا
تهادى به الناس ألطافهم   وسامى المقل به المكثرا[2]

وللأطفال طريقتهم في الاحتفال بهذا العيد، إذ يرشون الناس بالماء في الأسواق والشوارع، لينالوا حظهم من البهجة والصخب، فالأعياد في عيون الصغار مواسم فرح لا متناهية.

- **خميس أبريل**: يشترون فيه الكعك والمجبنات والإسفنج التي رأى الطرطوشي أنها من البدع المستنكرة[3].

ويتم الاحتفال أيضا بليلة العجوز وهي آخر ليلة في السنة الميلادية.

وبلغت مشاركة المسلمين أهل الذمة أعيادهم حدّا زيارة الكنائس مثلهم، فكم من مسلمة رافقت نصرانية إلى الكنيسة غير مبالية بنداءات المحتسب المتكررة الحاثة على ضرورة منعهن من ارتياد هكذا أماكن.

إن هذه الأعياد أخذت طابع العيد الرسمي الوطني، ترسخ الاحتفال بها على المستويين الرسمي والشعبي، فلا مجال في الأندلس للتنافر والاختلاف.

إضافة إلى الأعياد الدينية احتفل الأندلسيون بالمواسم الفِلاحية المتصلة بالأرض كعيد الربيع إذ يورد الإدريسي أن مدينة المرية الواقعة جنوب الأندلس كان أهلها أيام الربيع يدخلون إليها مع نسائهم باحتفال في المطاعم والمشارب والتوسع في الإنفاق[4]، والأندلس بجمالها دعوة شهية للمتعة والتفرج فما بالك عندما يكسيها الربيع أبهى حلله الموَشاة.

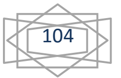
---

[1]- الزجالي: المصدر السابق، ص85.

[2]- ابن حيان: المقتبس، القسم الخاص بالمستنصر، ص85.

[3]- الطرطوشي: المصدر السابق، ص151.

[4] - أبو عبد الله الإدريسي: القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق : إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، د.ط، الجزائر، 1983، ص293.



– **عيد العصير**: الذي يُحتفل به في الخريف موسم جني العنب، فيخرج الناس مع أولادهم في كامل زينتهم إلى الحقول مصطحبين معهم أصناف المأكولات والمشروبات والآلات الموسيقية ليقضوا في الحقول أياما يسودها المرح والغناء والرقص[1].

ومن مظاهر الاحتفال بهذه الأعياد أيضا ألعاب الفروسية والمصارعة وحفلات الصيد، وألعاب الحواة في الساحات، زيادة على الموسيقى والغناء الذي صار ملازما لأعياد الأندلسيين كمظهر من مظاهر السرور والابتهاج[2].

كما يخرج الناس رجالا ونساء وأطفالا للتفرج في الساحات والشوارع فيما يسمى البُروز، يبتاعون خلاله الحلوى والألعاب لصغارهم[3].

ب–المناسبات الاحتفالية الأسرية: جمة ومتنوعة، فعلى مستوى العائلة هناك: احتفالات الزواج، الإعذار، استقبال العائد من الحج والمولود الجديد، وسواها من المناسبات.

تتم هاته الاحتفالات وسط الأسرة الميسورة بلمسة من الفخامة والتباهي؛ من خلال إكثار أصناف الطعام والمدعوين والزينة، وحتى الأسر البسيطة حاولت محاكاة احتفالات الأثرياء.

– **الزواج:** نظرا لأن الأسرة هي اللبنة الأساسية لبناء صرح المجتمع فقد أولاها الإسلام أهمية كبرى، إذ حدد حقوق وواجبات كل فرد فيها، وقبل هذا أطر العلاقة بين المرأة والرجل؛ كونهما أساس بناء الأسرة وأكسبها الشرعية من خلال الزواج، الذي وضع له فرائض ثلاث هي: الولي، الصداق، وشاهدا عدل، وسنن ثلاث: إظهاره، والوليمة والدخلة[4].

تُختار العروس إما عن طريق المشاهدة؛ أو باقتراح من الأهل والأصدقاء، فمن الممكن أن يكون الفتى قد رأى الفتاة أو شاهدها في مكان عام، أثناء شرائها الحاجيات من السوق، أو زيارة الأقارب أو الأصدقاء[5] كما أن هناك نساء مسنات يقمن بعملية الخطبة "فإنك ترى المرأة الصالحة المسنة... وأحب أعمالها إليها وأرجاها للقبول، سعيها في تزويج يتيمة وإعارة ثيابها وحليها لعروس مقبلة"[6]، وفي أحيان أخرى تتدخل الأمهات في اختيار حلائل أبنائهن، ولم يكن هذا التدخل موفقا دائما، ففي إحدى الزيجات كانت العاقبة وخيمة، إذ باعت أمٌ جارية لابنها كان كلفا بها، وذهبت إلى إنكاحه من إحدى العامريات مما كان سببا في جنونه وجدا على الجارية المَبيعة.

1– ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص138. عصمت عبد اللطيف دندش: المرجع السابق، ص328. يوسف دويدار: المرجع السابق، ص304.

2– العبادي: الأعياد في مملكة غرناطة، ص141.

3– دندش: المرجع السابق، ص329.

4 – أبو الأصبغ عسي بن سهل بن عبد الله الأسدي الجياني: ديوان الأحكام الكبرى النوازل والأعلام، تحقيق: رشيد النعيمي، ج1، شركة الصفحات الذهبية المحدودة ، الرياض، ط1، 1997، ص371.

5 – محمد عبد الوهاب خلاف: المرجع السابق، ص270.

6 – ابن حزم الأندلسي: طوق الحمامة ...، ص63.

والزواج لا يتم إلا برضى الطرفين دون أي ضغط أو إكراه من أولياء الأمور، إضافة إلى تكافؤ الزوجين ضمانا للتوافق بينهما وحسن المعاشرة، و المهر الذي يدفعه الزوج للزوجة كمنحة تقدير تحفظ عليها حياءها وكرامتها، وهو تعبير من الزوج عن تقدير زوجة المستقبل، ورغبة في إتمام العمر معها[1] وليس للصداق حد أقصى؛ بينما الأدنى ألاّ يقل عن ربع دينار ذهب، ويمكن أن يكون عقارا أو دارا شرط ضبط حدوده في عقد النكاح.

ومع أن رضى الطرفين شرط لصحة النكاح إلا أن هناك زيجات تتم غصبا لأسباب ودواعي مختلفة، مما تترتب عليها نتائج سلبية [2]، أما زواج الرقيق فيشترط فيه رضى السيد، الذي يجوز له فسخ عقد النكاح إذا تم بدون قبوله.

ومن قواعد الزواج المتعارف عليها الجهاز، فعلى الولي أو الوكيل تجهيز العروس بجملة من الأزياء والحلي والأثاث وما إلى ذلك، والملاحظ أن الجهاز كان مكلفا جدا للأولياء متوسطي الحال، خاصة مع محاولة إظهار الفخامة فيه، حتى أن الأب يعطى ابنته أحيانا أشياء تزيد عن قدرته مباهيا، ليبدو من طبقة اجتماعية ميسورة أعلى من حالته الحقيقية، وذلك إغراء وترغيبا في بناتهم بما يجهزونهن به، نظرا لرخص بنات الروم، فالحاجب المنصور بن أبي عامر كانت العامة تلقبه بالجلاب لكثرة عدد السبايا من الفتح في عهده، ولو لا ذلك لم يتزوج أحد حرة[3].

وقد كان الزوج بعد البناء يرفض إعادة الأثاث المُعار على أساس أنه ملكها، وأنه يتناسب مع الصداق المقدم، وهو ما يضطر الآباء لطرح الأمر على القضاء[4].

واحتفالات الزواج تستغرق أسبوعا، وفي اليوم المشهود تستعد العروس بالذهاب إلى الحمام رفقة صديقاتها، فتقوم الماشطة بتمشيطها وتزويقها، ثم تأتي إلى المنزل فتلبس ثوب الزفاف الغالي الثمن، وتتحلى بالحلي المصنوعة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، هذا إذا كانت العروس من طبقة اجتماعية قادرة على شراء تلك الأشياء، أما إذا كانت العروس من طبقة اجتماعية فقيرة أو يتيمة ففي هذه الحالة تستعيرها من إحدى النساء التي كانت تسعد وتسر بذلك[5].

---

1 –محمد مهنا العلي: الإدارة في الإسلام ، ديوان المطبوعات الجامعية ، د.ط ، 1991، ص189-190.

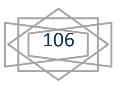
2 – يمكن تعداد بعض هذه الآثار في : حدوث الطلاق السريع؛ حتى أن بعض النساء كنا يفتضضن بكارتهن بأنفسهن كي يحدث الطلاق، أو تحين الفرص لإنكار الزواج ككل، كما فعلت إحدى البنات بعد وفاة والدها؛ إذ أنكرت أنها ابنته الوحيدة كي لا يقع الزواج.

وهناك شاب جن بعدما منعته أمه من الزواج بالجارية التي كان يحب، واختارت له ابنة عمه. للمزيد انظر: ابن سهل : المصدر السابق ص377.

3 – عبد الواحد بن علي المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب وضع حواشيه: خليل عمران منصور، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت ، 1989، ص. 29.

4 – يختلف الحكم في هذه القضايا انطلاقا من مدة الإعارة والمتاع المُعار والشهود، فقد يكون لصالح الأب أو ضده.

5 – ابن سهل: المصدر السابق، ص282.



وقد كان عقد النكاح يكتبه موثق، يصوغ فيه قيمة الصداق؛ والشروط التي يضعها الزوجان، ومن بين الشروط التي كانت تضعها المرأة عدم غياب زوجها عنها غيبة متصلة يقيم فيها أكثر من ستة أشهر إلا لأداء فريضة الحج، فإن له في ذلك مغيب ثلاثة أعوام، فإن زاد على هاذين الأجلين أو أحدهما فأمرها بيدها[1]، و ألا يتسرى عليها باتخاذ الإماء.

ورغم كل القداسة التي يكتسبها الزواج إلا أن هذا لم يعق ويمنع أشخاصا من تبني بعض الأساليب الملتوية وانتهاج الخداع كأسلوب لإتمام النكاح، إذ نجد أن الأب قد يزوج الكبيرة على أنها الصغيرة أو العكس، إذا اشتهرت إحداهما بالجمال، كما أن الزوج كان يتنكر لقيمة الصداق التي أقر بها، بل هناك من ينكر حتى نكاحه للمرأة، أو قد ينكر الولي تزويج وليته، ونماذج ذلك كثير يعددها ابن سهل في نوازله بباب النكاح[2].

والملاحظ في الأندلس أن زيجات الزواج بإسبانيات غير مسلمات كثيرة، خاصة وسط أفراد الأسرة الحاكمة، وقد بدأت هذه الظاهرة مع الفاتحين الأوائل نظرا لأنهم دخلوا جنودا دون نساء، إلا أنها استمرت رغم تزايد عدد النساء العربيات والمسلمات.

وأدت هذه المصاهرة إلى عقد علاقات قوية مع النصارى، كان لها تأثير في المجال السياسي، كخلقها لعلاقات دبلوماسية بين الطرفين، مثل تلك التي عقدتها طوطة ملكة نفار مع عبد الرحمن الناصر سنة 347هـ ، وهي عمته؛ لأنها أخت محمود والد الناصر من أمه ونقه[3].

بعد إتمام كل الترتيبات يتم تجهيز وليمة العرس، وقد كانت نفقاتها باهظة[4] ويدعى إليها الأصدقاء وكان الطباخ يقوم بعمل أصناف مختلفة من الأطعمة والحلوى[5]، واشترط عليه ألا يأخذ شيئا من الطعام إلا بإذن من صاحب العرس، أو بشرط مسبق بينهما أو هبة يهبها له[6].

تتلقى خلالها العروس الجالسة على الكرسي تحفها الجميلات التهاني والهدايا من المدعوات؛ اللواتي يرغبن إلى أزواجهن في شراء كسوة لهذه الوليمة، متزينات بالحلي التي يستعرنها من بعض صديقاتهن إن لم يكن

1- ابن سهل: المصدر السابق، ص448-449.

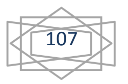
2- أنظر: نفسه، ص371 وما بعدها .

3- عبد الواحد ذنون طه : المرجع السابق، ص160.

[4]- تقول العامة في أمثالها: "ما أطيب العرس لولا النفاقة"،"زوجوه حوّجوه" أنظر: الزجالي: المصدر السابق، ص، وتقف قصة أفلح غلام الحكم دليل هي الأخرى على التكلفة الباهظة للعرس، إذ قال: "دفعت إلى مالا أطيقه من نفقة في عرس ابنتي، ولم يبق معي سوى لجام محلى، ولما ذاقت بي الأسباب قصدت محمد بن أبي عامر بدار الضرب حين كان صاحبها، والدراهم بين يديه موضوعة مطبوعة، فأعلمته ما جئت له فابتهج بما سمعه مني وأعطاني من تلك الدراهم وزن اللجام بحديده وسيوره فملأ حجري، وكنت غير مصدق بما جرى، وعملت العرس وفضلت له فضلة كبيرة." أنظر: المقري: المصدر السابق، ج4، ص230.

[5]- خلاف: المرجع السابق، ص265.

[6]- ابن عبدون وآخرون: المصدر السابق، ص52.



عندهن[1]، ويعاين المدعون الجهاز، لذا كان الأولياء يتكلفون فيه.

يُحيي هذه الحفلات التي يُنفق عليها ببذخ العازفون على الآلات المختلفة من عود ودف وغيره، والراقصات اللواتي يرقصن حاسرات الرأس[2]، وتزف العروس إلى زوجها في موكب كبير ترافقه الموسيقى، وتتبعه البغال تحمل الخزائن التي تشتمل على الجهاز[3].

ووجب على أهل العروس التي ستزف خارج المدينة الحصول على تصريح من القاضي، الذي يأمر عددا من أعوان الحراسة باصطحاب الموكب لحمايته من العربدة[4].

لكن ما يؤخذ عليها حدوث بعض المنكرات فيها، كالاختلاط بين النساء والرجال، وشرب الخمر، كما يكثر فيها الصخب والموسيقى والغناء، لذا انتقدها الفقهاء بشدة[5]، فابن عبدون يأمر بنزع سلاح الشبان في الأعراس قبل أن يشربوا لأن أفعالهم لا تؤمن عواقبها وهم في حالة عربدة[6]، وأيا كانت المنغصات يبقى للمناسبة رونقها المشع عبر الزمن.

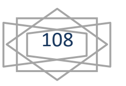
– **الإعذار**: فهو احتفال الختان، ويعد من أهم المناسبات السعيدة للأسرة، يتم خلاله تختين عدد من الأولاد، إذ يكره الأب أن يختن ولده وحيدا، وفي إعذار الناصر لأولاد ابنه مروان عبيد الله اتخذ لذلك صنيعا عظيما بقصر الزهراء، لم يتخلف أحد عنه من أهل مملكته، وأمر أن ينذر لشهوده الفقهاء المشاورون ومن يليهم من العلماء والعدول ووجوه الناس[7].

ولما كانت الأسرة تبشر بمولود جديد كانت التهاني تتساقط على الوالدين من الأهل والأصحاب فهذا الرمادي يهنئ الفقيه ابن العطار قائلا :

يهنيك مازادت الأيام في عددك   من فلذة برزت للسعد من كبدك
كأنما الدهر كان مكتئبا   من إنفرادك حتى زاد في عددك
لا خلفتك الليالي تحت ظل ردى   حتى لترى ولد قد شب من ولدك [8]

وكانت الفرحة بهذه المناسبة تبلغ أقصاها في أوساط الأسرة الحاكمة ، لأن الولد تعبير عن استمرار الحكم في الأسرة؛ فهو ولي العهد، وتأخره قد يسبب كآبة وسط الأسرة التي تظل تترقب الفرج والمنة الإلهية كالخليفة الحكم المستنصر؛ الذي كان ميلاد ابنه هشام المؤيد بالنسبة له حدثا مميزا ، ولما بشر بذلك هنأه

[1]– إبراهيم القادري بوتشيش: المغرب والأندلس...، ص30.
[2]– ابن عبدون وآخرون: المصدر السابق، ص51.
[3] – عبد الوهاب خلاف: المرجع السابق، ص265.
[4]– ابن عبدون وآخرون: المصدر السابق، ص53.
5– عبد الوهاب خلاف: المرجع السابق، ص.283.
[6]– ابن عبدون وآخرون: المصدر السابق، ص54.
[7] – المقرى: المصدر السابق، ج4، ص232.
[8] – المصدر نفسه، ج1، ص293.



وزيره المصحفي منشدا :

إطلع البدر من حجابه اطرد السيف من رقابة

وجاءنا وارث المعالي ليثبت الملك في نصابه

بشرنا سيد البرايا بنعمة الله في كتابه

لو كنت أعطي البشير نفسي لم أقض حقا لما أتى به[1]

ثم تقام له العقيقة في اليوم السابع، يُذبح فيها كبش أو أكثر باسم المولود، تقدم فيها المأكولات والحلويات والفواكه على أنواعها حسب مستطاع الأسرة، ويدعى إليها الأهل والأصدقاء،الذين يحتفون بالأم ويقدمون لها الهدايا[2].

– العودة من الحج: احتُفل بالعائد من الحج في مناسبة تمتزج فيها فرحة العودة مع فرحة أداء الفريضة، خاصة إذا عرفنا أن المدة المستغرقة لأدائه في ذلك الوقت طويلة، مع الصعوبات المصاحبة للرحلة ذهابا وإيابا، وقد يستغل الكثيرون الفرصة لزيارة عدد من البلدان المشرقية طلبا للعلم أو لمآرب أخرى.

يزين البيت لاستقبال الحاج، وتُعد الولائم، ويأتي الأهل والأصدقاء مهنئين متلهفين لسماع تفاصيل الرحلة، فكل القلوب تهفوا وقد أظناها الشوق لمعرفة التفاصيل، فتسافر –في ذلك المجلس– الروح إلى منيتها، لتنهمر على خد أحدهم فجأة دمعة يمسحها مداريا حنينه للحرم وللحبيب، آملا في أن يطول به العمر وتتاح له الفرصة ليُثلج الصدر ويُقر العين بزيارة.

كان أداء هذه الفريضة يرفع من قيمة مؤديها في مجتمعه، الذي ينظر إليه بتوقير واحترام، كون الأندلس نائية بعيدة عن الحرم، والرحلة لا تتاح للجميع، فمن يظفر بها مبجل مميز، فكأنما الحج وسام على الصدور.

ج– المناسبات الرسمية: والتي تتم على مستوى الدولة، وتكثر خاصة في العاصمة قرطبة، أهمها:

– استقبال الوفود: في زمن الخلافة تزايدت الوفود الرسمية المقبلة على الأندلس لعقد علاقات صداقة وتأكيد حسن الجوار، خاصة مع تنامي قوة الدولة التي رسخها عبد الرحمن الناصر بإعلانه الخلافة سنة 316هـ، فقد أدى تفوق الأندلس إلى أن تخطب تلك الدول بعد أن أعجزتها الحيل ودّ حكومة قرطبة، وتطلب عقد معاهدات السلام والعون والرأي في حل المشاكل[3].

ومن أهم البعثات الدبلوماسية بعثة ملك القسطنطينية "قسطنطين بن ليون" لعبد الرحمن الناصر سنة 334 هـ ، وأحتفل بقدومهم في قصر قرطبة احتفال سرى ذكره وسط العامة مدة ،حضر خلاله الشعراء والخطباء والفقهاء، لتبيين جلالة حكم الناصر، وتعديد أعماله ومنجزاته.

[1]– ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص237.

[2]– عصمت عبد اللطيف دندش: المرجع السابق، ص332.

3– المالقي: المصدر السابق، ص66.

لها بروتوكولاتها من لحظة قدوم الوفد إلى انصرافه، نستنتج مما أورده ابن حيان أن الوفد يستقبل من طرف رجال الدولة الـمُكلفين بذلك، ليوجه إلى إحدى القصور القرطبية ليرتاح مدة، ويُعلم الخليفة بأمرهم ومرادهم، ثم يقعد في مجلسه قعودا فخما كامل الترتيب، يحفه الوزراء وأهل الخدمة كل حسب مرتبته، ليؤتى بالوفد في صحبة الجند، بعدها يأذن لهم الخليفة بالدخول عليه فيقدمون هداياهم ويفصحون عن مبتغاهم وبعد انقضاء المجلس الذي يشهده الخطباء والشعراء يعود الوفد إلى موطنه محملا بالهدايا والرد المناسب[1].

ويهنئ أحمد بن إبراهيم الخازن الحكم المستنصر بما يتوالى عليه من رسل الدول وازدلافها إليه ابتغاء رضاه:

ليهنك أن لم يبق في الأرض ناكث ولا مشرك إلا أتاك بلا عهد
فهذا ابن شيخ وهو طاغية لهم رأى الرُشد في التحكيم والأمن في القصد
وألقت يدا إفرنجة وعميدها ولولا يد الإلقاء جاءك في قِدّ
وهذا لمن في الشرق والغرب مؤذن كما أن خطف البرق مؤذن بالرعد[2]

وتتشابه هذه الطقوس تقريبا مع استقبال المعلنين للطاعة اللائذين بحمى الخليفة[3].

ومن بين الاحتفالات الرسمية مجالس التهنئة التي تقام بمناسبة البيعة أو ولاية العهد، يحضر خلالها الخاصة فالعامة، لتأكيد ولائهم، لكن إبان الفتنة لم يعد الخليفة يهتم بقبول الناس له ورضاهم به، إنما صارت تؤول للمتغلب بحد السيف.

وكان لخروج الجيش غازيا وعودته ظافرا طقوس احتفالية يورد لنا ابن حيان في المقتبس نموذجا عنها من خلال الاحتفاء بقدوم القائد غالب بن عبد الرحمن ظافرا من العدوة سنة 364هـ[4].

– **الاستعراضات العسكرية:** تقام بين الفينة والأخرى، تجوب فيها القوات العسكرية شوارع قرطبة مظهرة قوة الدولة المتفاخرة بجندها.

[1]– انظر: ابن حيان: المقتبس، القسم الخاص بالمستنصر، ص 14-15.

[2]– المقتبس: المصدر السابق، القسم الخاص بالمستنصر، ص15.

[3]– يعدد ابن حيان الكثير من النماذج عن أشخاص عادوا إلى رحاب الخلافة واستجاروا بها سواء من الأندلس أو العدوة المغربية، ويبين طريقة استقبالهم وفخامة الاحتفاء بهم، والهدايا والهبات والعطايا التي يغدق الخليفة بها عليهم، ففي طيات كتابه يحدثنا بالتفصيل عن خبر جعفر ويحي ابني علي، حتى صار هذا اليوم المشهود يستشهد به في شعر الغزل، للمزيد أنظر: ابن حيان: المصدر السابق، ص ص 22-40.

[4]– المصدر نفسه، ص ص152-158.

- الآفات والانحرافات الاجتماعية:

أقام المسلمون في الأندلس حضارة راقية، متطورة تعجّ بالجمال والجاذبية، اتخذتها الشعوب المجاورة لها نموذجا ونبعا تنهل منه ما يحقق نهضتها؛ في المجال العلمي والثقافي وحتى في النواحي الأدبية والاجتماعية فزغريد هونكه تقول: "إن الحلي التي يقدمها الأوربي لحبيبته أو لزوجة صديقه أو رئيسه سواء كانت ماسا أصليا أو زجاجا مصقولا، هي عادة استوردت من الشرق.... [وتخاطب الأوربي قائلة] لو كتبت أنت للسيدة الفاضلة خطابا وأنهيته : « بالمخلص فلان» أو « بخادمك فلان» فأنت تعترف بسيادة العرب لأنك أخذت عنهم هذه الكلمات". [1]

فالحضارة ليست تقدما ماديا فقط، بل هي أيضا جملة من الأخلاق والسلوكيات، أي أن الحضارة نمط حياة راق يغمر كيان المجتمع، وبالرغم من كل هذه الجمالية إلا أننا نلحظ في عادات الأندلسيين مثلهم مثل كل المجتمعات ممارسات مشينة وتصرفات لا أخلاقية، فسمة الحياة القائمة على الازدواجية تقتضي ذلك.

ومن الظواهر والعادات المنحرفة عن الفطرة السليمة والنهج الإسلامي التي تناقلتها كتب الحقبة نجد:

التبرك بقبور الصالحين، واللجوء إليها في الأزمات والصعوبات التي تتخلل سيرورة الحياة [2]، وإن كان التبرك بالقبور لم يتسع في عهد الخلافة بالقدر الذي عرف في عهد المرابطين وما يليه، وربما يرجع ذلك إلى طبيعة تلك الدولة التي أقيمت على أسس مذهبية وأعلت من شأن مؤسسيها، بينما نجد أن الخلفاء لم يحاولوا إضفاء هالة من التقديس على حكمهم بصفتهم ورثة الله في أرضه،كما أن العلماء والفقهاء كان لهم دور بارز في نشر الوعي وتقويم سلوكات الخلفاء، أضف إلى ذلك التطور_ الحضاري والمستوى الفكري الراقي الذي يمنع الفرد من الانسياق وراء الترهات والخرافات؛ ويجعله أكثر قدرة على تمييز الحقيقة.

كما شاع في أوساط البعض فُحوشُ اللفظ، وبذاءة الهجاء فالمقري يقول عن أهل إشبيلية أنهم يتبادلون فيما بينهم قبيح السباب ورذيل الكلام وكأنه شيء عادي ولا يتحرجون من ذلك مطلقا[3]، وفي الشعر خاصة الهجاء منه تتجلى هذه الظاهرة واضحة، فمن الشعراء من يتحرى استعمال الكلام الجارح لأنه في نظره أوفى للمعنى، غير مراع في ذلك أصول اللباقة والأدب، عند البعض أجدر بالاستعمال كذلك الذي هجا رجلا فقال فيه:

أعد الوضوء إذا نطقت به ... متذكرا من قبل أن تنسى
وأحفظ ثيابك إن مررت به ... فالظل منه ينجس الشمس[4]

[1]- زيغريد هونكه: المرجع السابق، ص467.
[2] - ابراهيم القادري بوتشيش: المغرب والأندلس...، ص100.
[3]- المقري: المصدر السابق، ج1، ص158.
[4] - صلاح يوسف عبد القادر: في الأدب الأندلسي دراسات تطبيقية، دار الأمل للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1992، ص17.

إن قسوة هذه الأبيات تخرق الآذان كأنها سهم، وتخدش صميم الفؤاد كأنها سيف حاد، ولكن الأفظع أن يجعل الشاعر نفسه موضوعا لذلك، فيلقي عليها وابل السباب والشتائم كأنه متجرد متبرئ منها، فقد نظر شاعر إلى وجهه في المرآة ثم استرسل قائلا:

تأملت في المرآة وجهي فخلته كوجه عجوز قد أشارت إلى اللهو
إذا شئت أن تهجو تأمل خليقتي فإن بها ما قد أردت من الهجو
كأن على الأزرار مني عورة تنادى الورى لا تنظروا نحوي
فلو كنت مما تنبت الأرض لم أكن من الرائق الباهي ولا الطيب الحلو[1]

فلعمري لو أنه لم يخرج هذا الهجاء منه لقيل أنّ من هجاه يكرهه جدا ويحقد عليه إلى أبعد حد.

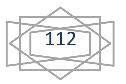
ومن العادات المستهجنة التي عرفتها الأندلس الاختلاط الحاصل بين الرجال والنساء، فمع أن الإسلام ضبط حدود هذه العلاقة مبينا الحرام فيها من الحلال، والعادات الجارية في الأسر حجب الفتاة عن الصبي متى بدأت تتفتح ورود شبابها[2]، إلا أن تجاوزات كثيرة وقعت، فقد كان من عادة النساء القرطبيات مثلا الخروج بعد كل صلاة ظهر من يوم الجمعة إلى السوق؛ عند باب العطارين لقضاء احتياجاتهن، إلا أن الرجال كانوا يتحينون الفرص لمعاكسة المارات، فالواحد منهم يتزين ويتعطر ويجلس مترقبا مفسحا المجال لشهوة قيدها الشرع بحدود تُهذبها، متأملا بدل أن يغض الطرف ويصون حرمة الغير، متلفظا بما لا يصح، وكعادة كل الأسواق فإن الاختلاط فيها و الزحام يؤدي كما قال الطرطوشي "إلى تلاصق أجساد بعضهم ببعض، حتى بلغني أن رجلا ضم امرأة من خلفها، فعبث بها في مزدحم الناسّ"[3]، وما يجري في قرطبة يسري على كل أسواق الأندلس.

ونجد من لم يقنع بالنظر بل قادته جرأته واستسلامه لهواه إلى تتبع المرأة لتحري مسكنها،كما فعل الشاعر يوسف بن هارون المعروف بالرمادي، إذ كان مجتازا عند باب العطارين بقرطبة وهذا الموضع كان مجتمع النساء فرأى جارية أخذت بمجامع قلبه وتخلل حبها جميع أعضائه ، فانحرف عن طريق الجامع وجعل يتتبعها وهي ناهضة نحو القنطرة[4]، فلما خافت أن يفضحها في حيّها إن ظلّ يتبعها بادرته بالسؤال عن غايته؛ ودار بينهما حوار انتهى بتحديد موعد للقاء جديد لم يتحقق، لأن ما فعلته من باب المدارات والتمويه، ومن خلال هذه القصة نستشف حقائق منها :

- حرية المرأة في الخروج، والأكيد أنّ زينتها لا تفارقها، والجواري منّهن سافرات لا يغطين وجوههن.
- اغتنام الرجال فرصة خروج النساء في ذلك اليوم للتفرج عليهن، فكيف تأخذ بمجامع قلبه لو لم يمعن النظر إليها ويطيل المراقبة، حتى اندفع لتغيير طريق الجامع، متخليا عن درب يقوده إلى الله؟!

---

1 - صلاح يوسف عبد القادر: المرجع السابق، ص17-18.
2 - ابن حزم: طوق الحمامة، ص137.
3 - الطرطوشي: المصدر السابق، ص133.
4 - ابن حزم: المصدر السابق، ص32.



وقد بلغت التجاوزات في العلاقة بين الرجال والنساء حدا ينم عن ضعف الأخلاق وانحلالها وتدني الذوق، ففي مجلس أنس أقامه أحد الأشراف وصلت الخسة بالضيف أن تغامز مع بنت من بنات صاحب الدار، وانفرد بها بين الفينة والأخرى، وصاحب البيت كالغائب الحاضر، أعمته الثقة عن التنبه للموقف والتفطن له، رغم أن ابن حزم الذي كان من ضيوف المجلس، نبهه مرارا لما يحصل خلف ظهره بتكريره لبيتي شعر جاء فيهما:

إن إخوانه المقيمين بالأمـ   س قد أتو للزنا لا للغناء

قطعوا أمرهم وأنت حمار   موفر من بـلادة وغباء

فما كان من صاحب المجلس إلا أن طلب منه تركهما أو إنشاد غيرهما لأنهما صارا مجلبة للملل، دون أن يحقق ابن حزم مراده من تنبيه الغافل[1].

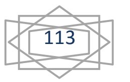
فالانحلال الأخلاقي عرف لدى الخاصة كما العامة، ولم يكن الرجل في كل المرات مبادرا، بل تجرأت النساء كذلك، وأزلن عن وجوههن ماء الحياء، فقد اشتد و جد جارية "بفتى من أبناء الرؤساء وهو لا علم عنده، وكثر غمها، وطال أسفها، إلى أن ضنيت بحبه، وهو بغرارة الصبا لا يشعر...إلى أن عيل صبرها وضاق صدرها، ولم تمسك نفسها في قعدة كانت لها معه في بعض الليالي منفردين...فلما حان قيامها عنه بدرت إليه فقبلته في فمه"[2]، فمع أنها جارية يجوز لها بحكم أنها ملك اليمين ما لا يجوز للحرة إلا أن الموقف يدل على نوع من التحرر المتفشي، الذي يجعل أنثى أيا كان توصيفها تبادر بإعلان الحب، وبذلك الأسلوب!

بل بلغ التجاوز مداه، ليصل حدّ الدعوة لارتكاب المعصية، فمما يورده ابن حزم من قصص في كتاب الطوق حكاية امرأة غاب زوجها لأداء بعض حاجياته، غير أنه تأخر عن العودة حتى مشى العسس فلم يعد بإمكانه المضي إلى بيته الذي ترك فيه صديقه، فلما تيقنت الزوجة باستحالة عودة زوجها تاقت إلى الضيف فبرزت إليه ودعته إلى نفسها، لكن تقواه وورعه مكناه من لجم كلب الشهوة العقور؛ فلم يمكنها مما ابتغت، وصان نفسه وأرضى ربه.

ولو تتبعنا كل ما تورده المصادر من إشارات في هذا المجال فسنصل لا محالة إلى محطات من الضعف البشري يتسلل منها الشيطان موسوسا تصور لك المجتمع الأندلسي أنموذجا متهالكا، تقف على تخوم الفساد فيه متحسرا متأسفا مبغضا، ولكن وجب التذكير دائما أن التعميم ظلم، وأنه مجتمع من البشر وليس الملائكة، والنفس البشرية مركبة من الخير والشر، وكما يوجد من تتحكم فيه نفسه الأمارة بالسوء فهناك أيضا من سما إلى المعالي بسلوكاته وأخلاقه.

1- ابن حزم: طوق الحمامة، ص141.

2- المصدر نفسه، ص75.



ومن الآفات الاجتماعية كذلك شرب الخمر، فرغم صراحة الإسلام في تحريمه شاعت معاقرته بين كل الطبقات الاجتماعية، فإذا كانت معاقرة الخمور من قبل الخاصة والوجهاء ترمز إلى حياة البذخ والترف والتفسخ الأخلاقي الذي وصلوا إليه، فإن طبقة العامة لم تفعل ذلك إلا لتغطية المشاكل والصعوبات التي تعترضها في حياتها اليومية[1]، وفي بطون المصادر وصف لمجالس متعددة للخلفاء والسادة كان الخمر فيها نديما دائم الحضور، بل لا يحلو الجو دونه، فهذا ابن شُهيد يصف إحدى الجواري الصغيرات في السن كانت تسقي المنصور بن أبي عامر خمرا؛ وظلت مستيقظة لوقت متأخر دون أن يداعب جفنيها النعاس حتى احتار فيها كل من بالمجلس، فعبر عن الموقف منشأ:

أفدى أسيماء من نديم   ملازم للكؤوس راتب
قد عجبوا في السهاد منها   وهي لعمري من العجائب
قالوا تجافى الرقاد عنها   فقلت لا ترقد الكواكب[2]

وحاكت الخمريات عند الأندلسيين نظيرتها في المشرق، فقد أكثروا وبرعوا في وصفها، بل هناك من أفرد شعره كاملا لهذا الغرض ولم يخرج إلى غيره كالشاعر أحمد بن مُحَّد الجيانى المعروف بتيس الجن، ومما قاله:

امزجي يامدام كأسد المدا   قد مضى وانقضى ذمام الصيام
وأبى العيد أن ندين بدين   غير دين الصبا ودين المدام
حبذا ميتة تعود حياة   بين غَض البهار والمنادم [3]

وللحد من انتشار هذه الآفة اتخذت إجراءات ردعية، منها ما قام به الحكم المستنصر الذي أمر بكسر قواريرها، وكان راغبا أيضا في قطع أشجار الكروم؛ لكنه كف عن عزمه لما علم أنها تصنع من نباتات أخرى[4].

وفي أمره بإراقة الخمور ،يقول أبو عمر يوسف بن هارون الكندي في قصيدته المشهورة متوجعا على شاربيها

بخطب الشاربين يضيق صدري   وترمضني بليتهم لعمري
وهل هم غير عشاق أصيبوا   بفقد حبائب ومنوا بهجر
أعشاق المدامة إن جزعتم   لفرقتها فليس مكان صبرى
سعى طلابكم حتى أريقت   دماء فوق وجه الأرض تجري

[1]- بوتشيش: المغرب والأندلس...، ص98.
[2]- المقري: المصدر السابق، ج4، ص231.
[3]- الحميدي: المصدر السابق، ج1، ص183.
[4]- المصدر نفسه، ص43.

والملاحظ أن عددا من الفقهاء الأندلسيين كانوا يلتمسون لشارب الخمر الأعذار والتأويلات من أجل إسقاط الحد عنه، ويرجح أن هذا يعود لكون الرسول ﷺ لم يضبط حدا لشرب الخمر؛ إنما فعل ذلك الصحابة رضوان الله عليهم[1].

وفي سير الفقهاء قصص عدة في هذا المضمار، منها ما رواه أصبغ بن عيسى عن القاضي أحمد بن بقي[2] قال:

"كنت يوما مقبلا مع القاضي أحمد بن بقي، حتى عنّ لنا رجل سكران يمشى بين يديه مخمورا فجعل أحمد يسك في عنان دابته، ويترفق في سيره؛ ويرجوا أن يعدل السكران عن طريقه أو يحبس عنه فينجو بنفسه؛ فلم يكن شيء من ذلك إلا أن توقف مستقبلا، فلم يكن للقاضي بد من الدنو منه والنظر إليه، قال أصبغ: وكنت أعرف لياذه من مثل هذا، وكراهته للانتشاب فيه، ورقة قلبه من أن يقرع أحدا بسوط، فقلت في نفسي: «ليت شعرى كيف تصنع في هذا، يا ابن بقى! وربما تتخلص منه!>> فلما دنونا من السكران، ولصقنا به مال إلي أحمد؛ فقال: «مسكين هذا الرجل! أراه مصابا في عقله» فقلت: «نعم أيها القاضي، ببلية عظيمة» فجعل يستعيذ بالله من محنته ويسأله أن يأجره على المصاب في عقله؛ ومضينا"[3].

ومن القصص كذلك ما رواه القاسم بن مُحَّد عن القاضي مُحَّد بن عبد الله بن أبي عيسى لما كان كاتبه أيام قضائه بالبيرة :

"ركبنا مع القاضي في مركب حافل، مع وجوه البلد، إذ عرض لنا فتى متأدب قد خرج لنا من بعض الأزقة يتمايد سكرا؛ فلما رأى القاضي، هابه وأراد الفرار، فخانته رجلاه، فاستند إلى الحائط وأطرق، فلما قرب منه القاضي رفع رأسه إليه، ثم أنشأ يقول:

ألا أيها القاضي الذي عمّ عدله فأضحى به في العالمين فريدا
قرأت كتاب الله ألف مرة فلم أر فيه للشراب حدودا
فإن شئت أن تجلد فدونك منكبا صبورا على ريب الخطوب جليدا
وإن شئت أن تعفو تكن منه تروح بها في العالمين حميدا
وإن كنت تختار الحدود فإن لي لسانا على هجو الرجال حديدا

قال: فلما سمع القاضي شعره، وتبين له أدبه، أعرض عنه ومضى لشأنه كأنه لم يره"[4].

وعرفت الأندلس دور البغاء، وكانت الدولة تفرض عليها ضريبة، وتسمى العاملات فيها بالخراجيات اللواتي أمرهن المحتسبون بضرورة التزام أماكن عملهن في الفنادق، وعدم الخروج كاشفات رؤوسهن متحليات بزينة[5].

---

[1]- الكبيسي: المرجع السابق، ص223.

[2]- يكني أبو عبد الله تولى قضاء قرطبة سنة 314 هـ لمدة 10 سنوات ،كان زاهدا فاضلا، كما امتاز بالرفق واللين، توفي سنة 344 هـ حسب أبي الفرضي، أما الحميدي فيقول أنه مات سنة 324 هـ وهو المرجح (ابن الفرضي: المصدر السابق، ص44) الحميدي: المصدر السابق، ج1، ص93.

[3]- الحميدي: المصدر نفسه، ص64.

[4]- نفسه، ص65.

[5]- ابن عبدون وآخرون: المصدر السابق، ص50.

وقد اتخذ النخاسون منه وسيلة للتكسب؛ إذ فرضوا على الجواري البغاء مقابل المال ويبيعون أولادهم فيما بعد، لتكون الفائدة بهذا مزدوجة[1]، غير مراعين في ذلك إنسانية الجارية.

وبمقارنة شيوع البغاء في الأندلس مع دول المشرق نجد أنه في هذه الأخيرة أكبر وأوسع، إلّا أن سؤالا يظل يدوي في الرأس لا جواب مقنع له؛ فكيف لهذه الظاهرة أن تستشري وتتفشى في مجتمع مسلم يبيح التعدد والتسري؟!

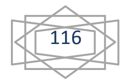
ومن العادات المستهجنة الولوع بالغلمان، وهي ظاهرة لم تنفرد بها الأندلس دون غيرها، بل نجدها تمتد عميقا في المجتمع المشرقي، فالراجح أنها خُرسانية المنشأ تسرَّبت إلى المشرق فالأندلس التي شرعت أبواها للتيارات الوافدة، فأبو نواس قال في المأمون وهو ابن الرشيد:

احمدوا لله جميعا   يا جميع المسلمين
ثم قولوا لا تملوا: ربنا أبْق الأمينا
صيَّر الخصيان حتى   صيَّر التعنين دينا
فاقتدى الناس جميعا   بـأمير المؤمنينا[2]

فقد بلغ عشق الرجل للغلام حد الجنون، وربما كان هذا الوله سببا في موته كما حصل لأحمد بن كليب النحوي؛ الذي قاده حبه لغلام اسمه أبو الحسن أسلم بن أحمد بن سعد بن قاضي الجماعة أسلم بن عبد العزيز، كان يلتقيه في حلقة علم يتدارسون فيها النحو عند احمد بن خطاب، أن تعرض له بالشعر فصار الناس يتناقلونه ويرددونه، وهو ما أحرج الفتى وخدش حياءه، فانقطع عن مجالس العلم جميعا، واكتفى بالجلوس أمام داره نهارا، إلا أن أحمد بن كليب لم يطق صبرا على أسلم، فصار شغله الشاغل المرور أمام منزله عله يظفر بنظرة، إلى أن ضاق صدر أسلم ذرعا بذلك فصار لا يخرج إلا ليلا بعد صلاة المغرب لكن هذا التصرف لم يفده أيضا، فاحتبس في منزله ولم يبارحة، وهو ما أوجع قلب ابن كليب وأطرحه وألهب نار الجوى التي صرعته عليلا طريح الفراش ، وكان حاله يزداد تدهورا، حتى لم ينفعه دواء الأطباء لأن دواءه كما كان يقول: نظرة من أسلم، وهو ما دفع شيخه أبو عبد الله أحمد بن خطاب أن يشفع له عند أسلم، ويحنن فؤاده عليه ليزوره لربما شفي، وفعلا توجه أسلم مع ابن الخطاب إلى دار أحمد بن كليب لكن في منتصفها اعتراه خجل حال دون إكمال المسير، فعاد أدراجه مسرعا بعدما خانته جرأته وحياؤه ويحكى ابن الخطاب أنه لما "دخل على أحمد بن كليب بدون أسلم تغير حاله، واشتد داؤه، وأصبح يهذي كالمجنون، ولما ثاب إلى رشده قال لأبي عبد الله: اسمع مني واحفظ عني ثم أنشأ يقول:

أسلم يا راحة العليل   رفقا على الهائم النحيل
وصلك أشهى إلى فؤادي   من رحمة الخالق الجليل

[1]- عبد الإله بنمليح: المرجع السابق، ص420.
[2]- آدم ميتز: المرجع السابق، ج2، ص158.



قال: فقلت له: اتق الله! ما هذه العظيمة! فقال لي: قد كان، قال: فخرجت عنه فو الله ما توسطت الدرب حتى سمعت الصراخ عليه وقد فارق الدنيا"[1].

ويرجع بعض الدارسين انتشار هذا الشذوذ إلى البحث عن وسائل جديدة للمتعة[2]، أما علماء النفس فيرون أن العبقرية دائما تتصف بازدواجية الجنس، ففي الأديب من صفات المرأة أكثر مما في غيره من الرجال.

ولكن هذين التفسيرين غير كافيين، ولا يستقرءان كل العوامل والحيثيات المحيطة بالمجتمع الذي كثرت فيه الجواري ورخص سعرهن، نظرا لأعداد السبي الكبيرة الناتجة عن الحملات العسكرية المتكررة على الممالك الإسبانية، وهو ما أثر أيضا على معقولية تكاليف الزواج، فما الذي يسبب حدوث هذا الميل غير الطبيعي نحو الغلمان؟ ووصول الأمر حد مضاجعتهم كما فعل الطبيب ابن أم البنين، الذي رافق الخليفة الناصر في إحدى غزواته؛ ولما دخل مضربه في القائلة "قام إلى غلام له فعلاه، فهبت عليه ريح عاصف فاقتلعت المضارب فانقلع مضربه وسقط، وبقي بارزا للناس وهو على الغلام"[3].

وقد بلغ الشذوذ بالبعض مبلغا لا يتصوره العقل ولا يخطر على بال، ففي أحد المرات جاء إلى الطيب يحي بن إسحاق مريضا ليعالجه، ولما انتهى قال: "أنت رجل عائث، واقعت بهيمة في دبرها فصادفت شعيرة من علفها، لحجت في عين الإحليل فورم لها، وقد خرجت في الصديد، فقال له الرجل: قد فعلت هذا، وأقر بذلك"[4].

وإبان الفتنة التي اعترت الأندلس وتمخضت عن ميلاد دويلات الطوائف حدثت ممارسات توحي بقسوة الفترة، وعمق الكره والغضب الذي يعتصر القلوب ، فقد أقدم أهل قرطبة عام 402هـ على قتل القائد البربري حباسة بن ماكسن "وقطعوه قطعا، وتهادوا لحمه فأكلوه، لمّا كان أكثر من قتلهم وما جربوه من شجاعته وشدة نكايته"[5]، وهي حادثة نادرة أوجدتها الظروف الطارئة غير الاعتيادية.

ومع هذا لا يمكن قطعا تجاهل الإيجابيات، والمساهمات الحضارية الفعالة التي أغرق الأندلسيون البشر في محاسنها، كما لا يمكننا إغفال الدور الإصلاحي الذي مارسه رجال الدولة والفقهاء والشعراء، فالشعر الاجتماعي لون من الألوان الأدبية التي تعمل على تقويم اعوجاج المجتمع، كما أن شعر الزهد يدعو إلى ترك ملذات الدنيا ومجانبة اللهو، وحتى الهجاء يهدف إلى محاربة ظواهر الانحراف وإن اتخذ من شخص محدد

---

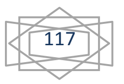
[1] - الحميدي : المصدر السابق، ج1، ص 226.

[2] - ابراهيم القادري بوتشيش: المغرب والأندلس...، ص100.

[3] - ابن جلجل: المصدر السابق، ص103-104.

[4] - موفق الدين أبو العباس بن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق: نزار رضا، مكتبة الحياة، د.ط، بيروت، د.ت، ص488.

[5] - ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص112.



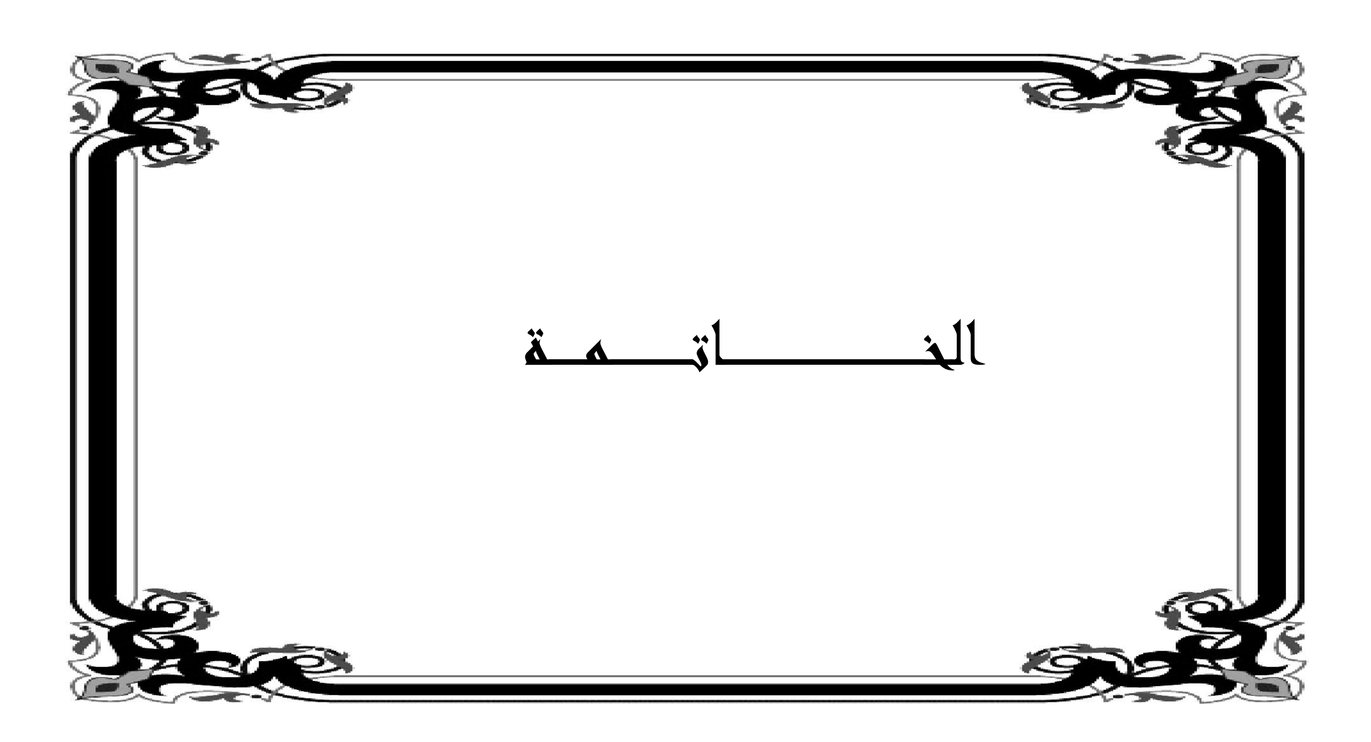
موضوعا له[1]، ولا يهم إن لم تكلل كل تلك المحاولات بالنجاح، الأهم أن روح النقد وعدم الرضى بالوضيع من الظواهر موجود، وهو دليل على اليقظة وبذور الخير المغروسة في النفوس، ولنبدد سوداوية الصورة نذكر نموذجا مغايرا يفوح بشذى التعفف وحسن الخلق، فهذا الأديب أبو عمر بن أحمد بن مُحَّد بن فرج الجياني(ت 365هـ/975م) يقول في إحدى قصائده:

بأيهما أنا في الشكر بادي   بشكر الطيف أم شكر الرقاد
سرى فأراده أملي ولكن   عففت فلم أنل منه مرادي
وما في النوم من حرج ولكن   جريت من العفاف على اعتيادي[2]

فرُقي نفسه جعله يلجم شهوتها حتى في موضع لا حرج فيه، لأن القلم مرفوع عن النائم حتى يستيقظ وليس هذا إلا مثال يختصر الشرح الطويل، ويبين بوضوح جلي حقيقة أن بذور الخير باقية لا تنفذ، وستظل غراسها متجذرة في الصميم مهما عصفت بها ريح الفتن الهوجاء.

إن الوقائع تثبت استحالة وجود مجتمع فاضل يرفل كل أفراده في سدول التقى، ويتحلون بكريم بكريم الأخلاق ومحامدها، فسنة الحياة تقتضي الاختلاف والتباين والتناقض، الأصح ألّا يتحول الانحلال والانحراف إلى ظاهرة عامة مستشرية بين الجميع، لا يستهجنها أحد، فهذا خروج عن الفطرة والنهج القويم.

[1] – عبد القادر هني: مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي قبل سقوط قرطبة، دار الأمل للطباعة والنشر، الجزائر، د.ط، 1998، ص243.
[2]– ابن دحية: المصدر السابق، ص21.



الخـــــــاتـــمـــة

انطلاقا من دراسة عادات وتقاليد المجتمع الأندلسي إبان العهد الأموي تم الخروج بجملة من النتائج أهمها:

– كان المجتمع مزيجا من الأجناس والأعراق من عرب وبربر وإيبيريين وصقالبة وسودانيين وغير ذلك، تجاورت أول الأمر، ثم تفاعلت فيما بينها حدّ الانصهار الذي يتجلى في مظاهر عدة أبرزها: الزواج، الحياة اليومية المشتركة، الطباع والعادات والتقاليد الواحدة، فالزمن استطاع أن يكون منهم خليطا متجانسا تذوب فيه الفوارق على تنوعها؛ ليصبح الولاء الأول للأرض.

– اتخذ عدد من المؤرخين سيرورة استقرار العرب والبربر في الأندلس شماعة علقوا عليها الكثير من التهم التي تدين العرب بالتعصب، وتصورهم كمغتصبين حرموا البربر من ثمار الفتح ليستأثروا به وحدهم، من خلال تخيرهم أخصب الراضي مستقرا وموطنا لهم؛ دون البربر الذين نفوهم إلى البقاع الوعرة الجدباء. لكن الوقائع والإنصاف يؤكد أن عملية الاستقرار كانت موافقة لمزاج كل فئة، ومتناسبة مع الطريق التي سلكتها أثناء الفتح.

– عرف المجتمع ظاهرة التمايز الطبقي التي كانت سمة بارزة لذلك العصر، إلا أنها في الأندلس تراتبية غير تحاجزية، فبالإمكان التحرك فيها صعودا ونزولا حسب مقتضى الظروف، خلافا لما عرفه المجتمع القوطي الذي كان متعنتا ظالما.

على رأسها طبقة الأعيان التي امتازت بمستواها المعيشي الجيد، إذ جمعت بين الثروة والنفوذ، وهو ما ضمن لها الاستقرار وعدم التأثر بالأزمات كغيرها، تأتي بعدها الطبقة الوسطى من تجار وأصحاب المهن الحرة وصغار الملاك والموظفين الحكوميين، بذلت جهدها للحفاظ على مكانتها، خاصة من خلال تزلفها للأعيان، أما العامة فيأتون في نهاية السلم الاجتماعي، تذبذبت أوضاعهم بين الحسن والسيئ حسب لظرف العام في البلاد، كانوا شديدي النقمة على ذوي الجاه والنفوذ، واعتقادا منهم أنهم سبب شقائهم وتعاستهم، لذا كثرت ثوراتهم المطالبة بالتغيير.

– ضربت الأندلس أروع الأمثلة على التسامح والتعايش الديني، فعلى ثراها عاش المسلمون جنبا إلى جنب مع أهل الذمة في وفاق وانسجام، فتخالهم كبساط ورد تتعدد فيه الألوان التي تزيد بذلك التنوع من جماليته، إذ فتحت أبواب الحياة على مصراعيها أمام أهل الذمة من مسيحيين ويهود، يجاورون المسلمين في السكن، ويقاسمونهم يومياتهم دون إقصاء أو تهميش، بل منهم من ارتقى في سلم الوظائف حتى نال أعلاها، إذ نجد طبيب البلاط، والسفير والكاتب وغيرها، فمؤهلاتهم تأخذهم بعيدا حيث يستحقون بغض النظر عن اعتقاداتهم الدينية.

ورغم هذا فهناك دائما من يعمى عن رؤية الشمس رغم نورها الساطع، كذلك هم المتعصبون؛ أنكروا كل فضائل الإسلام، ولم يعد يعني لهم أكثر من عدو يجب محاربته، لأنه يشكل تهديدا على استمرارية وجودهم

العقائدي، وهذا الوهم الزائف قادهم إلى الانتحار فيما أسموه بالاستشهاد المسيحي، الذي كان في أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط، قاده بعض القساوسة المتطرفين الذين أغرروا بشبان سذج، وقادوهم نحو الموت ولكن هذه الحركة التي استنكرها المسيحيون أنفسهم كان مصيرها الفشل الذريع.

– حفلت المائدة الأندلسية بصنوف الطعام المتناسبة مع الحالة الاجتماعية للأسرة، هذه الأطباق منها المشرقي والمغربي وحتى اليهودي، فالطعام هو الآخر كان مزيجا ثقافيا، يتجلى من خلاله التأثير الحضاري للشعوب في بعضها البعض، وقد كان للحلوى فيها مكانتها المحفوظة.

إلى جانب دوره في التغذية أستعمل كدواء، وكانت للأسرة عاداتها في إعداد الربوب والمري وتخزين ما يمكن تخزينه للاستعمال اللاحق، ليتحول المطبخ بهذا إلى ورشة عمل تضج بالنشاط.

أُعد الطعام في الأسواق، وشدد المحتسبون الرقابة على كل مراحل تحضيره، مشترطين النظافة وجودة المواد المستعملة، حرصا منهم على صحة المستهلك، الذي كان بإمكانه تناول الطعام المبتاع في الدكان بما يشبه المطاعم اليوم.

– تنوعت ألبسة الأندلسيين من حيث الخامات والألوان والأشكال، إذ امتازت بالفخامة في وسط الأعيان، بينما اشتهرت ملابس العامة ببساطتها وعمليتها، وإن كان الجمال وحب التأنق والنظافة سمة بارزة يتشارك فيها الجميع.

تخيروا ألبستهم حسب الفصول، وخصصوا لكل فصل ما يناسبه من خامات وألوان، وكان هذا بتأثير من زرياب، الذي ترك بصماته في عدة جوانب حياتية، حتى صار بين الأندلسيين مرادفا للأناقة، فاتخذوه أنموذجا يقتدون به.

وبقدر حب الأندلسيين للألوان ولبسهم المصبوغ من الثياب فإن الأبيض كان مفضلا عندهم، يلبسونه أيام الجمع خاصة وفي الصيف، كما جعلوه شعارا للحزن والحداد، مخالفين بذلك العباسيين.

بالغت النساء في ارتداء الحلي على اختلافها، كما كان لأدوات الزينة حضورها اللافت بينهن، وقد غطت الحرائر منهن وجوههن عند البروز من المنزل على خلاف الجواري اللاتي كن يخرجن سافرات.

– شهد الطب في الأندلس مثلها مثل كل الأقطار الإسلامية نقلة نوعية في مستوى العلاج، ويكفينا الزهراوي شاهدا يقف بكل ابتكاراته دليلا على ذلك، زد على ذلك البيمارستانات ومستوى ونوعية العلاج الذي كانت تقدمه، ومع ذلك لجأ السكان إلى طرق علاجية بدائية تعتمد أساسا على الطبيعة، وأحيانا على العلاج الروحي، كل حسب ثقافته وقناعاته.

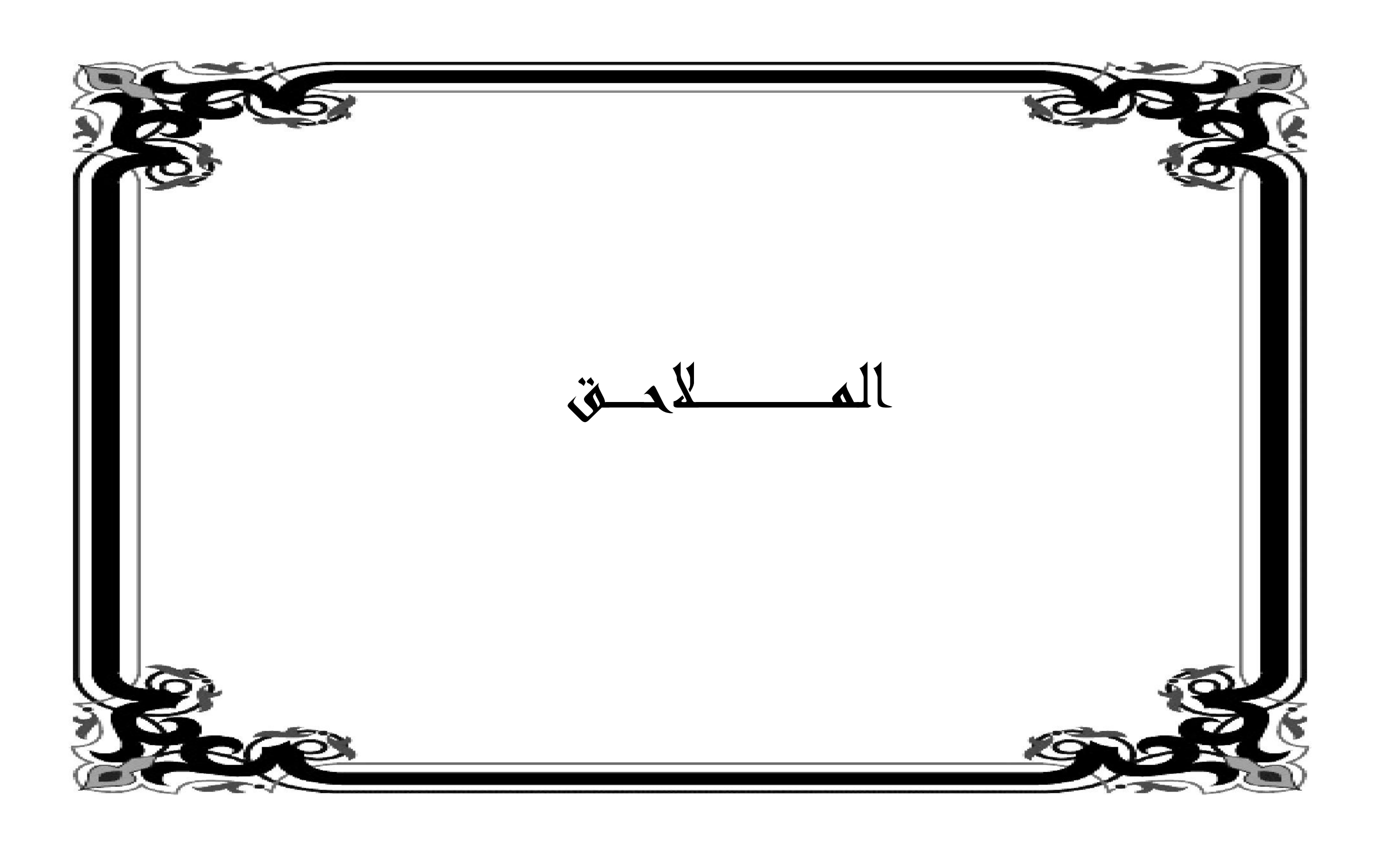
– تنوعت الأعياد التي احتفل بها الأندلسيون، فهناك الدينية الخاصة بالمسلمين وبأهل الذمة، والموسمية المتصلة بالأرض، ولكنها تتقاطع في بساطة الاحتفال وجماليته، وجو السعادة الذي تشيعه مثل هذه المناسبات.

إلى جانب الأعياد وجدت الاحتفالات العائلية باختلاف مناسباتها من زواج وختان واحتفاء بالمولود والعائد من الحج وما إلى ذلك، تساهم كلها في تقوية الروابط الاجتماعية وتعزيزها.

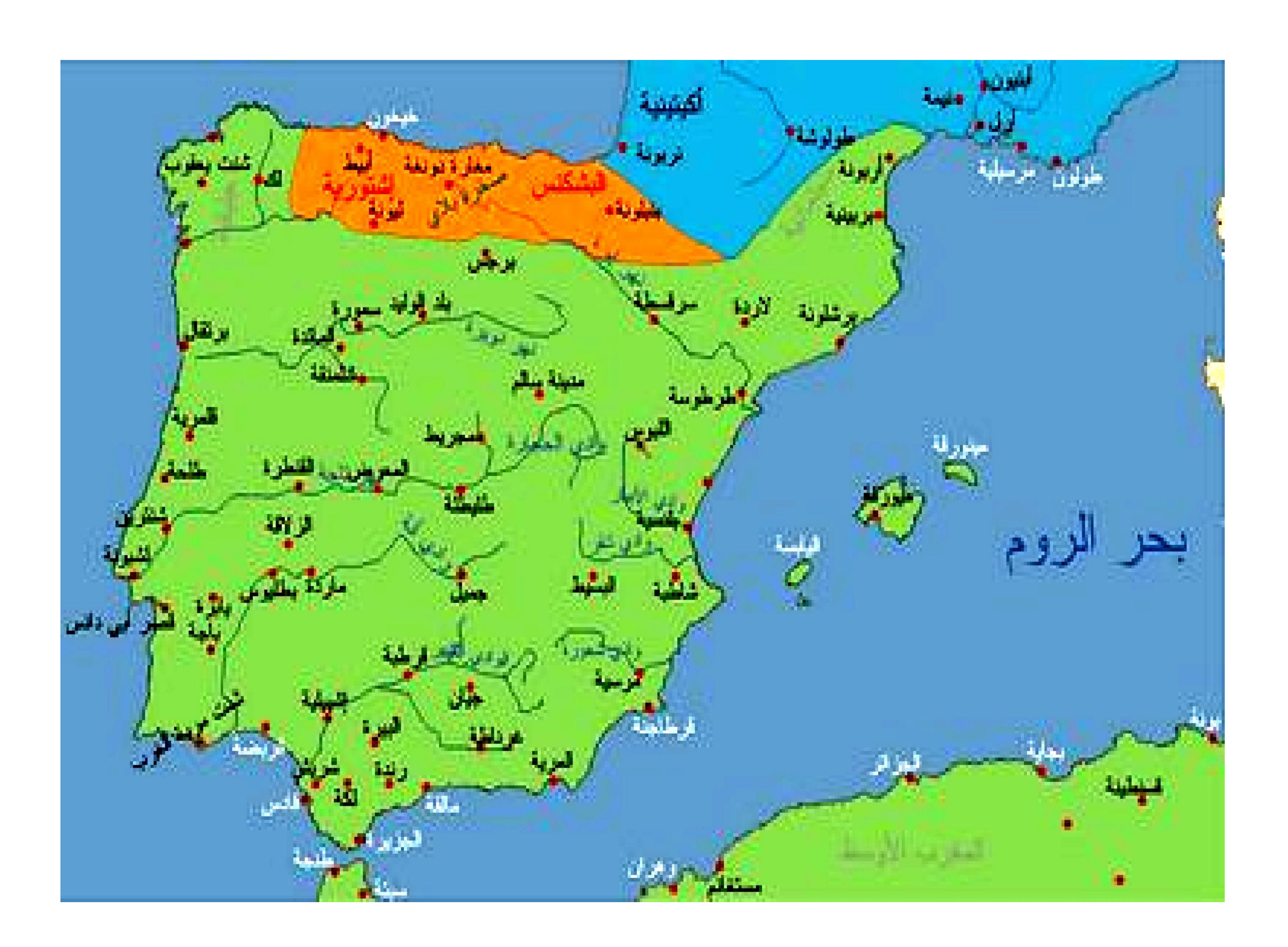
وعلى مستوى الدولة وجدت الاحتفالات التي كانت تتم في قرطبة العاصمة خاصة، مثال ذلك استقبال الوفود، أو عقد اللواء للغزو، أو عودة الجيش مكللا بالنصر.

وما يجب التنويه إليه مشاركة المسلمين لأهل الذمة في احتفالاتهم، التي اكتسبت طابعا وطنيا بغض النظر عن عقيدة كل فئة، فالأندلس جنة التسامح بلا منازع، هذه الجنة التي سيحولها المتعصبون للأسف إلى جحيم بعد سقوط غرناطة سنة 1492م.

- إن المجتمع الأندلسي لم يكن فاضلا، بل عرف كغيره أفات وانحرافات أتى بها بعض أفراده كتعاطي الخمر والبغاء، والولوع بالغلمان...وما إلى ذلك، ورغم هذا لا يجب أن نجحد الفضائل السارية فيه، فحتى القمر له وجهان مضيء ومظلم، ومع ذلك لا ينكر مبصر جماله.

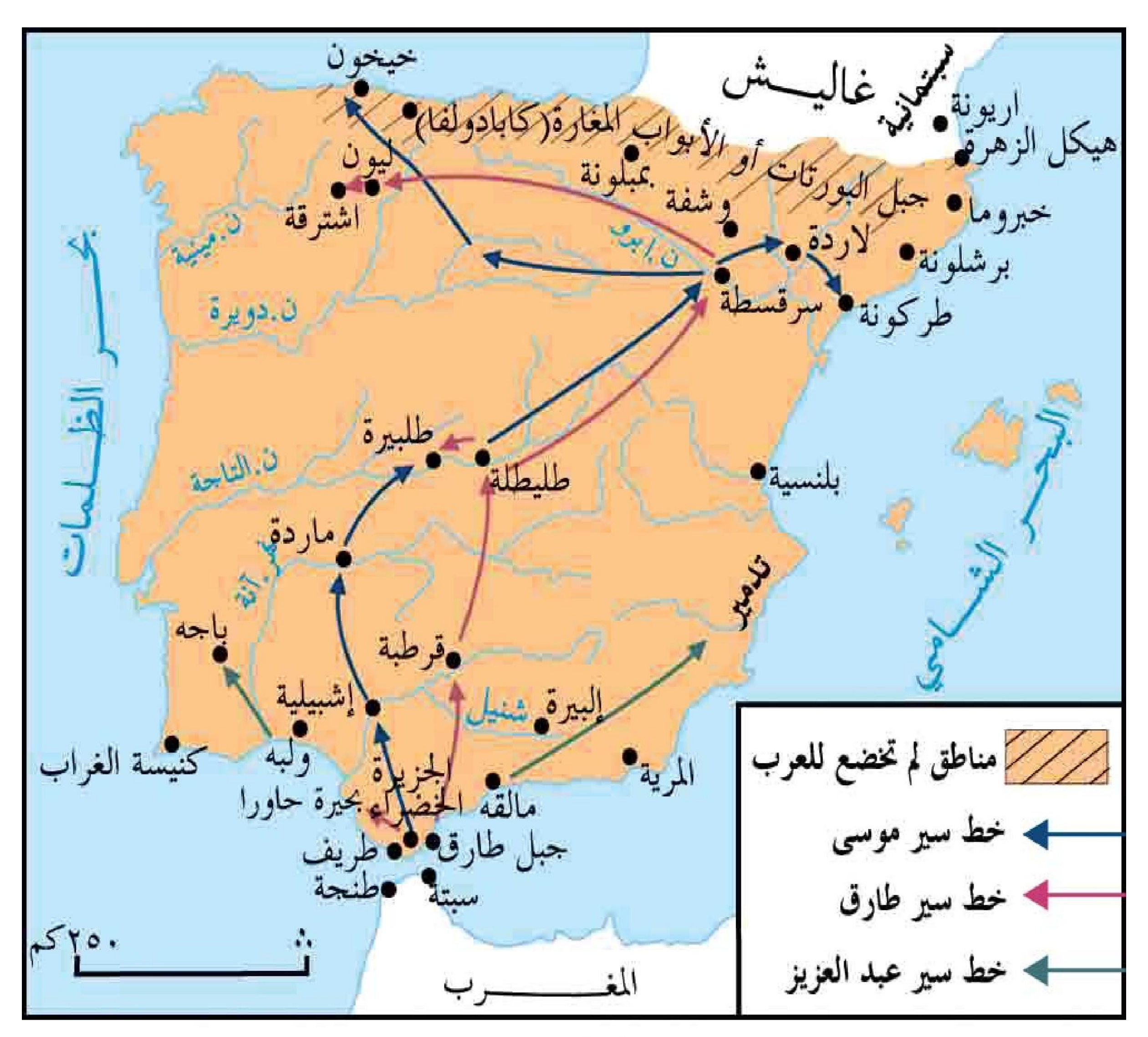

الملاحق

الملحق رقم: 01



الأندلس في أقصى اتساعها

الملحق رقم: 02



فتح الأندلس

الملحق رقم: 03

القبائل العربية في الأندلس وأماكن استقرارها

(مستخرجة من كتاب " جمهرة الأنساب " لابن حزم)

المدينة أو القرية	القبائل العربية المقيمة فيها
شذونة	بنو كنانة، بنو عرمرم، بنو خثعم، بنو جدام ، بنو زيد اللخميون
سرقسطة	بنو عبد الدار، بنو كعب التجيبيون، بنو فوارتش
طبيرة	بنو بعدلة
قلعة رباح ولاية دروقة قلعة أيوب قرمونة قبرة قرية اختبانة بقبرة	بنو حارثة بنو عذرة التجيبيون (فرع آخر) التجيبيون (فرع آخر) قبائل نمارة بنو عمر بن أد بنو قطنين
البيرة	بنو أسد، بنو مرة، بنو قشير آل عطيف دار همذان بنو خولان بنو خشين
مرسية مودور وادي الحجارة وادي آش بجانة بلبة	بنو ملكان دار بلي بنو قتيبة بنو خويلد (فرع من بني سعد) جرش الزهريون ، بنو منذر

	آل حفص بن أحمد بن عمار
تدمير	بنو افصى، بنو منهب بنو جدام
بسطة بلنسية بطليوس قرمونة	دار طيء آل جحاف الزهريون من بني مرة بنو نجبلة
الجزيرة الخضراء	بنو كنانة، بنو جذام، بنو لخم
جيان	فرع من بني ثعلبة، بنو عبد الخالق، بنو الضباب، بنو قسير، بنو خويلد، بنو منحل بنو عذرة، بنو خشين
إشبيلية	بنو عائشة وبنو سعيد (فرع من بني غطفان) دار بني مرة، بنو مالك، بنو بشتغير وبنو يريم بنو مازن
قلعة يحسب مالقة لبلبة	بنو عنس بن مذجح الشعبانيون بنو زيان (من أعقاب عمر بن عبد العزيز) بنو سلول
قرطبة	أعقاب العباس بن الوليد (أحد حفدة الوليد بن عبد الملك الأموي بنو سعيد الخير (من أعقاب عبد الرحمن بن معاوية) بنو زيان (من أعقاب عمر عبد العزيز) ولد عمارة، بنو الحسبن الطبنيون
قرطبة	بنو عكب بن عدنان، بنو ربيع، بنو هارون بنو خولان، دار بلي
أونبة (لبلة)	بنو سلول، بنو مطروح قبائل نمارة، بنو حراز، بنو خشن
رية	أعقاب العباس بن الوليد (احد حفدة الوليد بن عبد

	الملك الأموي) بنو النمر، بنو عشيم بنو الأشمر، أعقاب زيد بن يشحب بنو زياد ذي رعين بنو شهيد، بنو قين

عن: إبراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي...ص248-249.

الملحق رقم: 04

القبائل العربية في الأندلس وأماكن استقرارها (مستخرجة من " فرحة الأنفس " لابن غالب برواية المقري)

المدينة أو القرية	القبائل العربية وبطونها المقيمة فيها
إشبيلية	البلويون، الخضرميون، بنو لخم، بنو الباجيينو زهرة، بنو الوافد، بنو إياد، بنو هوازن.
غرناطة	الحضرميون، بنو المنتصر، بنو القليعي، بنو سماك، بنو عبد السلام، بنو هوازن،الهمذانيون نمير بن عمر، بنو عطية، بنو عبد البر
شقورة	بنو غافق
قلعة بني سعيد	بنو سعيد اليحصبيون
حصن المدور	المخزوميون
مرسية وادي آش بلنسية تدمير منطقة بين الجزيرة الخضراء وإشبيلية قلعة رباح قرية صالحة (قرب مالقة)	الحضرميون، منزل طيء ربيعة بن نزار بنو هوازن بنو هذيل، بنو عذرة بنو خولان بنو حرام، بنو تجيب بنو القليعي
قرطبة	بنو سراج، بنو كلب بن وبرة، الحضرميون الأصبحيون، بنو حمديس، بنو جهينة
أونبة (لبلة) بطليوس	البكريون الحضرميون

عن: إبراهيم القادري بوتشيش : مباحث في التاريخ الاجتماعي...ص250.



ملحق رقم: 05

القبائل البربرية في الأندلس وأماكن استقرارها (مستخرجة من كتاب " جمهرة الأنساب " لابن حزم)

القبيلة	بطونها	منطقة الاستيطان
	أوربة	أليشة
	زواوة	شقندة، ألبيرة، البونت
مصمودة	بنو طريف	أشونة
	بنو يحي	قرطبة (استنتاجا)
	بنو دانس	قلنبريه
	بنو سالم	مدينة سالم
صنهاجية	بنو الغليظ	بلكونة
	بنو عبد الوهاب	أشبونة
هوارة	بنو ذي النون	أقليش، وبذة
	بنو رزين	السهلة
	بنو جهور المرنايون	قرطبة
زناتة	زوزة، بنو الليث	شنت برية
	بنو عرون، بنو هذيل	شنت برية
	بنو الجزولي	لقنت
زناتة	بنو الزجالي	قرطبة
	بنو الحليع	تاكرنا
	بنو عميرة	شاطبة
	وزداجة	؟
	مغليلة بن الياس	؟
	بنو زروال	؟
	مكانسة	؟
	بني ونوس	؟

الملحق رقم :06

ولاة الأندلس:

1- عبد العزيز بن موسى بن نصير (95-97 هـ)

2- أيوب بن حبيب اللخمي (97هـ)

3- الحر بن عبد الرحمن الثقفي (ذي الحجة 97 - رمضان 100هـ)

4- السمح بن مالك الخولاني (رمضان 100- ذي الحجة 102هـ)

5- عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (ذي الحجة 102- صفر 103هـ)

6- عنبسة بن سحيم الكلبي (من صفر 103 – شعبان 107 هـ)

7- عذرة بن عبد الله الفهري (شعبان – شوال 107هـ)

8- يحي بن سلم الكلبي (شوال 107 – ربيع الأول 110هـ)

9- حذيفة بن الأحوص القيسي (ربيع الأول – شعبان 110 هـ)

10- عثمان الخثعمي (شعبان 110 – محرم 111هـ)

11- الهيثم بن عبيد الكيلابي (محرم – ذي القعدة 111 هـ)

12- مُحَّد بن عبد الله الأشجعي (ذي القعدة 111- صفر 112هـ)

13- عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (ولايته الثانية)(صفر 112- رمضان 114هـ)

14- عبد الملك بن قطن الفهري (رمضان 114 – شوال 116 هـ)

15- عقبة بن الحجاج السلولي (شوال 116 – صفر123هـ)

16- عبد الملك بن قطن الفهري (ولايته الثانية) (صفر-ذي القعدة 123هـ)

17- بلج بن بشر القشري (ذي القعدة123-شوال 124هـ)

18- ثعلبة بن سلامة الجذامي (شوال 124-رجب 125هـ)

19- أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي (رجب125-رجب 127هـ)

20- ثوابة بن سلامة الجذامي (رجب 127هـ)

21- يوسف بن عبد الرحمن الفهري مع الصميل (ربيع الثاني 129-ذي الحجة 138هـ)

مستخرج من: ابن عذارى: البيان المغرب. مجهول: أخبار مجموعة.



الملحق رقم: 07

أمراء بني أمية :

1- الأمير عبد الرحمن الداخل (138 – 172 هـ)

2- الأمير هشام بن عبد الرحمن الرضا (172-180هـ)

3- الحكم الأول ابن هشام (180-206هـ)

4- عبد الرحمن الثاني (206-238هـ)

5- مُحَمَّد بن عبد الرحمن (238-273هـ)

6- المنذر بن مُحَمَّد (273-275هـ)

7- عبد الله بن مُحَمَّد (275-300هـ)

مستخرج من: ابن عذارى: البيان المغرب. المقري: نفح الطيب

الملحق:08

خلفاء بني أمية :

1- عبد الرحمن الناصر (300-350هـ)

2- الحكم المستنصر (350-366هـ)

3- هشام المؤيد (366-399هـ)

4- محمّد بن هشام المهدي (17 جمادي الآخرة – شوال 399هـ)

5- سلميان المستعين بالله (399-400هـ)

6- هشام المؤيد بالله (ولاية ثانية) (400-403هـ)

7- سليمان المستعين بالله (ولايته الثانية) (403-406هـ)

8- علي بن حمود الناصر لدين الله (406-408هـ) ذ

9- القاسم بن حمود المأمون (408-412هـ)

10- يحي بن علي المعتلي بالله (412-414هـ)

11- عبد الرحمن بن هشام المستظهر بالله (رمضان – ذي القعدة 414هـ)

12- محّمد بن عبد الرحمن المستكفي بالله (414-417هـ)

13- يحي بن علي المعتني بالله (ولايته الثانية) (417-420هـ)

14- هشام بن محّمد المعتد بالله (420-422هـ)

مستخرج من: ابن عذارى: البيان المغرب. المقري: نفح الطيب.

أ- المصادر:

1- القرآن الكريم.

2- ابن الأبّار (أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، ت.658هـ/1260م): كتاب الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، دار المعارف،ط2،القاهرة، 1985م.

3- ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم، ت.630هـ/1232م): الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، ط4،بيروت، 1983م.

4- الإدريسي (أبو عبد الله الشريف، ت.560هـ/1166م): القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، د.ط، الجزائر، 1983م.

5- بن أبي أصيبعة (موفق الدين أبو العباس، ت.668هـ/1269م): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق: نزار رضا، مكتبة الحياة، د.ط، بيروت، د.ت.

6- ابن بسام (أبو الحسن عليالشنتريني، ت542هـ/1148م): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، د.ط، بيروت، 1997م.

7- ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك، ت578هـ/1183م): كتاب الصلة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، د.ط،مصر، 1996م.

8- ابن تيمية (تقي الدين أبو العباس أحمد بن شهاب الدين، ت728هـ/1327م): حكم الإسلام في النرد والشطرنج، تحقيق: عمرو عبد المنعم سليم وحسن زكريا فليفل، دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع د.ط، الإسكندرية، د.ت.

9- ابن جلجل (أبو داود سليمان بن حسان، ت384هـ/994م): طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق: فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة، ط2،بيروت،1985م.

10- ابن حزم الأندلسي (علي بن أحمد بن سعيد، ت.456هـ/1064م): طوق الحمامة في الألفة والألّاف، تحقيق: مُحَمَّد يوسف الشيخ مُحَمَّد وغريد يوسف الشيخ مُحَمَّد، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، 2004م.

11- جمهرة أنساب العرب، تحقيق: ليفي بروفنسال، دار المعارف، د.ط، القاهرة، 1948م.

12- ابن الحكم (يحي البكري الجياني الغزال، ت.250هـ/864م)، تحقيق: مُحَمَّد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دار الفكر،ط1، بيروت، دمشق، 1993م.

13- الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله، ت.626هـ/1228م): معجم البلدان، دار صادر، د.ط، بيروت، 1977م.

14- الحميدي (أبو عبد الله مُحَمَّد بن أبي نصر بن فتوح بن عبد الله الأزدي، ت.488هـ/1095م):جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ،د.ط، مصر، 1966م.

15- الحميري (ابو عبد الله محمد بن عبد المنعم، ت.727هـ/1326م): صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: ليفي بروفنسال، دار الجيل، ط2،بيروت، 1988م.

16- ابن حوقل (أبو القاسم، ت.367هـ/977م): صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، د.ط، بيروت، 1992م.

17- ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف، ت.469هـ/1076م): المقتبس في أخبار بلد الأندلس، شرحه: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، ط1،بيروت، 2006م.

18- الخشني (محمد بن حارث، ت.366هـ/976م): أخبار الفقهاء والمحدثين، تحقيق: ماريا لويسا أبيلا ولويس مولينا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية معهد التعاون مع العالم العربي، د.ط، مدريد، 1991م.

19-ابن الخطيب (لسان الدين السليماني، ت.776هـ/1374م): الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان،مكتبة الخانجي،ط1، القاهرة، 1974م.

20- أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المكشوف، ط2،لبنان، 1956م.

21- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن أبي زيد، ت.808هـ/1405م): المقدمة، دار الكتب العلمية، د.ط،بيروت، د.ت.

22- ابن دحية (أبو الخطاب عمر، ت.633هـ/1235م): المطرب من أشعار أهل المغرب، المكتبة العصرية، ط1، بيروت، 2008م.

23- الرازي (أبو بكر كحمد بن زكريا، ت.311هـ/923م): أخلاق الطبيب، تحقيق: عبد اللطيف محمد العبد، مكتبة دار التراث، ط1،القاهرة، 1977م.

24- الزبيدي (محمد مرتضى، ت.379هـ/991م): لحن العوام، تحقيق: رمضانعبد التواب، المطبعة الكمالية، ط1، القاهرة، 1964.

25- الزجالي (يحي عبيد الله بن احمد، ت.694هـ/1294م): أمثال العوام في الأندلس، تحقيق: محمد بن شريفة، القسم2، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي،د.ط، المغرب، د.ت

26- الزهراوي: (عباس بن خلف، ت.بعد400هـ/1009م): كتاب الزهراوي في الطب لعمل الجراحين، المقالة الثلاثون من التصريف لمن عجز عن التأليف(العمل باليد)، تحقيق: محمد ياسر زكور، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ط1،دمشق، 2009م.

27- الزهري (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، ت.كان حيا سنة541هـ/1154م): كتاب الجغرافية وما ذكرته الحكماء فيها من العمارة وما في كل جزء من الغرائب والعجائب تحتوي على الأقاليم السبعة وما في الأرض من الأميال والفراسخ، تحقيق: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، د.ط، مصر، د.ت.

28- ابن سعيد المغربي (علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك، ت.685هـ/ 1286م): المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، ط4، القاهرة، 2009م.

29- السقطي (ابن عبد الله مُحَّد المالقي، عاش في أواخر ق6وأوائل ق7هـ): كتاب في آداب الحسبة، تحقيق: ج.س. كولان وليفي بروفينسال، مكتبة أرنيستلورو،د.ط، باريس، د.ت.
30- ابن سهل (أبو الأصبغ عيسى الأندلسي، ت.486هـ/1093م): ديوان الأحكام الكبرى النوازل والأعلام، تحقيق: رشيد النعيمي، شركة الصفحات الذهبية المحدودة، ط1، الرياض، 1997م.
31- ابن سيدة (أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي، ت.458هـ/1066م): المخصص، المطبعة الكبرى الأميرية، ط1،بولاق مصر، 1317هـ.
32- ابن شُهيد (أبو عامر أحمد بن عبد الملك، ت. 325هـ/1043م) : ديوان بن شُهيد الأندلسي ورسائله، جمعه وحققه وشرحه: محي الدين ديب، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، د.ط، بيروت، 2002.
33- ابن صاعد الأندلسي (أبو القاسم صاعد بن أحمد، ت.462هـ/1069م): طبقات الأمم، تحقيق: لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، د.ط، بيروت، 1912م.
34- الضبي (أحمد يحي بن عميرة، ت599هـ/1202م): بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ج2، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، ط1،بيروت، 1989م
35- الطرطوشي (أبو بكر، ت.530هـ/1229م): الحوادث والبدع، تحقيق: علي بن حسن بن علي الحلبي، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط1، 1990.
36- ابن طولون (شمس الدين مُحَّد بن علي، ت.): فصّ الخواتم فيما قيل في الولائم، تحقيق: نزار أباضه، دار الفكر، ط1،دمشق، 1983م.
37- ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد، ت.328هـ/939م): ديوان ابن عبد ربه، تحقيق: رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، ط1،بيروت، 1979م.
38- ابن عبدون (أبو عبد الله مُحَّد بن أحمد التجيبي الإشبيلي، عاش في ق6هـ/12م) وابن عبد الرؤوف والجرسيفي: ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق: ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، د.ط، القاهرة، 1955.
39- عبد الواحدالمراكشي (محي الدين أبو مُحَّد بن علي، ت.647هـ/1250م): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: رينهرتدوزي، مطبعة بريل،د.ط، ليدن، 1881م.
40- ابن عذارى (أبو العباس احمد بن مُحَّد المراكشي، ت.695هـ/1295م): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق:ج.س.كولان وليفي بروفنسال، الدار العربية للكتاب، ط4،القاهرة،1983م.
41- العذري (أحمد بن عمر بن أنس، ت): نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق: عبد العزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، د.ط، مدريد، د.ت.
42- ابن القوطية(أبو بكر، ت.367هـ/977م): تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، ط2،بيروت، 1989م.

43- ابن الكتاني (أبو عبد الله محمّد، ت.قريبا من 420هـ/1029م): كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة،د.ط، بيروت، د.ت.

44- الكندي (يعقوب بن إسحاق، ت.256هـ/873م): الترفق في العطر، تحقيق: سيف بن شاهين بن خلف المريخي، وزارة الثقافة والفنون والتراث، الدوحة، ط1، 2010م.

45- مجهول (من أهل ق4أو5هـ/10أو11م): أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها-رحمهم الله- والحرب الواقعة بها بينهم، تحقيق : إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني،ط1، بيروت، 1981م.

46- مجهول:ذكر بلاد الأندلس، تحقيق: لويس مولينا، ج1، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية معهد ميغيل أسين، د.ط، مدريد، 1983م.

47- المقري (شهاب الدين أحمد بن محمّد، ت.1041هـ/1631م): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، مج، تحقيق: مريم قاسم الطويل ويوسف علي الطويل، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، د.ط، الجزائر، 2011م

48-مقيدش (محمود، ت): نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق: علي الزواري ومحمّد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1988م.

49- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمّد بن بكر، ت.711هـ/1211م):لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير ومحمّد احمد حسب الله وهاشم محمّد الشاذلي، مج5، دار المعارف، القاهرة،د.ط، د.ت.

50- النباهي (أبو الحسن بن عبد الله المالقي الأندلسي، ت.792هـ/1390م):تاريخ قضاة الأندلس "المرقبة العليا في من يستحق القضاء والفتيا"، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الأفاق الجديدة، ط5،بيروت، 1983م.

ب- المراجع:

1-إبراهيم (عبد الجواد): المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث، دار الآفاق العربية، ط1، القاهرة، 2002م.

2- أبو مصطفى (كمال السيد): جوانب من حضارة المغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي، مؤسسة شباب الجامعة، د.ط، الإسكندرية، 1997م.

3- أرسلان (شكيب): تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وجزائر البحر المتوسط، كلمات عربية للترجمة والنشر، د.ط، القاهرة، د.ت .

4- أمين (أحمد): ظهر الإسلام (1- 4)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004.5- بنمليح (عبد الإله): الرق في بلاد المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع- الذهنيات- الأولياء، دار الطليعة للنشر، ط2، بيروت، 1993، ص27.

6- بوتشيش (إبراهيم القادري): مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، د.ط، بيروت، د.ت.7- أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي من منتصف القرن 3هـ حتى ظهور الخلافة (250هـ- 316هـ) دار عكاظ، الرباط، د.ط، ط.ت.8–المغرب والأندلس في عصر المرابطين، المجتمع–الذهنيات–الأولياء،دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1993.9–بيضون (إبراهيم): الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة(92–466هـ/ 711–1031م)، دار النهضة العربية، ط3، بيروت، 1986م.10- تيمور (أحمد): لعب العرب، مطبعة دار التأليف، ط1، القاهرة، 1948م.

11- الجبالي (خالد حسن حمد): الزواج المختلط بين المسلمين والإسبان من الفتح الإسلامي للأندلس وحتى سقوط الخلافة (92–422هـ) مكتبة الآداب، د.ط، القاهرة، د.ت.

12- الجبوري (يحي): الملابس العربية في الشعر الجاهلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د.ط، 1989م.

13- الحايك (سيمون): عبد الرحمن الأوسط، المطبعة البولسية، د.ط، بيروت، د.ت.

14- حسن (إبراهيم حسن): تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج2، دار الجيل، بيروت، مكتبة النهضة المصرية، ط14،مصر، 1996م.

15- الحسيني (سليم): ألف اختراع واختراع، التراث الإسلامي في عالمنا، مؤسسة العلوم والتكنولوجيا وناشيونال جيوغرافيك، د.ط،لندن، 2011م.

16- الخربوطي (علي حسين): الإسلام وأهل الذمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية،د.ط، القاهرة، 1969م.

17- الدغلي (مُحَمَّد سعيد): الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي وفي الأدب الأندلسي، منشورات دار أسامة، ط1، مصر، 1984م.

18- دندش (عصمت عبد اللطيف): الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني (510هـ-546هـ/ 1116م- 1151م) تاريخ سياسي وحضاري، دار الغرب الإسلامي، ط1،بيروت، 1988م.

19- دويدار (حسين يوسف): المجتمع الأندلسي في العصر الأموي (138-422هـ/755-1030م)، مطبعة الحسين الإسلامية، ط1،القاهرة، 1994م.

20- الزين (حسن): أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي أضواء على الأوضاع الاجتماعية والقانونية، دار الفكر الحديثة للطباعة والنشر، ط1،بيروت، 1982م.

21- سالم (السيد عبد العزيز): تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، المكتبة الإنجلو مصرية، ط2،مصر، 1986م.

22- المساجد والقصور في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، د.ط، 1986.

23-قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس (دراسات تاريخية ، عمرانية ، اثرية في العصر الإسلامي) ، النهضة العربية، د.ط، بيروت، 1972م.

24- السامرائي (إبراهيم خليل) وطه عبد الواحد ذنون و مطلوب مصلح ناصف: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1،بيروت، 2000م.

25- سحر (السيد عبد العزيز سالم): بنو الخطاب بن عبد الجبار التدميري أسرة من المولدين بمرسية في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، الإسكندرية، 1989.

26- الشطشاط (حسن): تاريخ الإسلام في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة، قباء للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، القاهرة، 2001.

27- الشيخ (محمد محمد مرسي):دولة الفرنجة وعلاقاتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي، مؤسسة الثقافة الجامعية، د.ط، القاهرة، 1981م.

28- طه (ذنون عبد الواحد): دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، المدار الإسلامي، ط1، بيروت، 2004م.

29- الطويل (مريم قاسم): مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر(403-483هـ/1012-1090م)، مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، دار الكتب العلمية، ط1،بيروت، 1994م.

30- العبادي (أحمد مختار): في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د.ط، بيروت، د.ت.

31- صور من حياة الحربوالجهاد في الأندلس، منشأة المعارف، ط1،الإسكندرية، 2000م.

32- ابن عبد الستار (أبو طلحة يونس): : لباس الرسول ﷺ والصحابة والصحابيات رضى الله عنهم أجمعين، مطابع الوحيد، ط1،مكة المكرمة، 2003م.

33- عبد العليم (رجب مجيد): رجب مجيد عبد العليم: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف، دار الكتاب المصري القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، د.ط، بيروت، د.ت.

34- عبد القادر (صلاح يوسف): في الأدب الأندلسي دراسات تطبيقية، دار الأمل للنشر والتوزيع، ط2،الجزائر، 1992م.

35- عبد الوهاب (خلاف): قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر للميلاد/ الخامس هجري، الحياة الاقتصادية والاجتماعية، الدار التونسية للنشر والتوزيع، ط1، د.ت.

36- العلي (صالح أحمد): المنسوجات والألبسة العربية في العهود الإسلامية الأولى، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط1، بيروت، 2003م.

37- العلي (محمَّد مهنا): الإدارة في الإسلام ، ديوان المطبوعات الجامعية ، د.ط، الجزائر، 1991م.

38- عنان (محمَّد عبد الله):دولة الإسلام في الأندلس،ج1، مكتبة الخانجي، ط4،القاهرة، 1997م.

39- عناني (محمَّد زكريا): تاريخ الأدب الأندلسي، دار المعرفة الجامعية،د.ط، مصر، 1999م.

40- غربال (شفيق):الموسوعة العربية الميسرة ، دار الجيل والجمعية المصرية لنشر الثقافة والمعرفة العالمية ، بيروت، د.ط، القاهرة ، 1995.

41- فكري (أحمد): قرطبة في العصر الإسلامي تاريخ وحضارة، د.ط، مؤسسة شباب الجامعة، د.ط، الإسكندرية، 1983.

42- قاسم (عبد قاسم): أهل الذمة في مصر العصور الوسطى، دار المعارف، مصر،د.ط، 1977م.

43- الكبيسي (إبراهيم خليل): دور الفقهاء في الحياة السياسية والاجتماعية بالأندلس في عهد الإمارة والخلافة، دار البشائر الإسلامية، ط1،بيروت، 2001.

44- كحيلة (عبادة هبد الرحمن رضا): الخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1،القاهرة، 1995م.

45- العقد الثمين في تاريخ المسلمين، دار الكتاب الحديث، د.ط، الكويت، 1996م.

46- كواتي (مسعود): اليهود في المغرب الإسلامي، دار هومة للنشر والتوزيع، د.ط، الجزائر، د.ت.

47- اللحيدان (عبد الله بن فهد): التسامح في الإسلام، دار الحضارة للنشر والتوزيع، ط1، الرياض، 2010م.

48- مسعد (سامية مصطفى): التكوين العنصري للشعب الأندلسي وأثره على سقوط الأندلس (93-422هـ)، عين للدراسات الإنسانيةوالبحوث الاجتماعية، د.ط، القاهرة، 2004م.

49- مصطفى (شاكر): الأندلس في التاريخ، دار إشبيلية، د.ط، سوريا، 1990م.

50- مؤنس (حسين): فجر الأندلس دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية (711-756م)، دار المناهل، ط1،بيروت، 2002م.

51- عالم الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، د.ط، القاهرة، د.ت.
52- شيوخ العصر في الأندلس، عربية للطباعة والنشر، د.ط، القاهرة، د.ت.
53-النعنعي (عبد المجيد): تاريخ الدولة الأموية في الأندلس التاريخ السياسي، دار النهضة العربية، د.ط، بيروت، 1986م.
54- هني (عبد القادر): مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي قبل سقوط قرطبة، دار الأمل للطباعة والنشر، د.ط، الجزائر، 1998م.
55- هويدي (فهمي): مواطنون لا ذميون موقع غير المسلمين في المجتمع المسلم، دار الشروق، ط3، القاهرة، 1999م.
56- هيكل (أحمد): الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف،د.ط، القاهرة، 1985.
57- يوسف (جوزيف نسيم): تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، دار المعرفة الجامعية، د.ط، مصر، د.ت.

د- المراجع المترجمة:

1- بالنثيا (أنخل جونثالث):تارخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، د.ط، القاهرة، 1955م.

2- بروفنسال (ليفي): الحضارة العربية في إسبانبا، ترجمة: الطاهر أحمد مكي، دار العالم العربي،ط1، القاهرة،2010م.

3- بول (ستانلي لين): قصة العرب في إسبانيا، ترجم: علي الجارم بك، كلمات عربية للترجمة والنشر، د.ط،القاهرة، د.ت.

4- قصة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، دار العالم العربي، ط1،القاهرة، 2009م.

5- دوزي (رينهرت): المسلمون في الأندلس، ترجمة: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، القاهرة، 1994م.

6- المعجمالمفصل لأسماء الملابس عند العرب، ترجمة: أكرم فاضل، مجلة اللسان العربي، المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي، د.ط، الرباط، د.ت.

7- كونستبل (أوليفيا ريمي): التجارة والتجار في الأندلس، ترجمة: فيصل عبد الله، مكتبة العبيكان، ط1،الرياض، 2002م.

8- كولان (ج.س):الأندلس، ترجمة: إبراهيم خورشيد، عبد الحميد يونس، حسن عثمان، ط1، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري،بيروت، القاهرة، 1980م.

9- كيب (جوزيف ماك): مدنية المسلمين في إسبانيا، ترجمة: محمد تقي الدين الهلالي، مكتبة المعرف للنشر والتوزيع، ط2،الرباط، 1985.

10- لودر (دورثي):إسبانيا شعبها وأرضها، ترجمة: طارق فودة، مكتبة النهضة المصرية، د.ط، القاهرة، 1965م.

11- لبون (غوستاف):حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، دار العالم العربي، ط1،القاهرة، 2009م.

12- منيوكال (ماريا روزا): الأندلس العربية إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ترجمة: عبد المجيد جحفة ومصطفى جباري، دار توبقال للنشر، ط1،الدار البيضاء، 2006م.

13- ميتز (آدم):الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي،ط5، بيروت، د.ت.

14- هونكه (زيغريد): شمس العرب تستطع على الغرب أثر الحضارة العربية في أوربا، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الجيل ودار الآفاق الجديدة، ط8،بيروت، 1998م.

ج – المجلات والندوات:

1- الجمل (محمد بن فارس): الأطعمة والأشربة في عصر الرسول ﷺ، حوليات كلية الآداب، مجلس النشر العلمي لجامعة الكويت، الكويت، الحولية السابعة عشر، 1996-1997م.

2- الحسن (ثريا محمود علي): أزياء المجتمع الأندلسي من سنة 92هـ-625هـ، مجلة كلية الآداب، بغداد، العدد 102، السنة: 2012م.

3- الخالدي (خالد يونس): طلب اليهود من المسلمين فتح الأندلس حقيقة أم ادعاء؟..، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 97، السنة الرابعة والعشرون، 2005.

4- الراوي (إقبال حسن أحمد): إقبال حسن أحمد الراوي: منيات (منى) الأندلس، مجلة التراث العلمي العربي، مركز إحياء التراث العلمي العربي، العدد الرابع، 2011.

5- زقزوق (محمود حمدي): التسامح في الإسلام، مجلة التسامح، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عُمان، العدد1، 2003م.

6- ساعي (أحمد بسام): الوجه الآخر للموشحات من خلال الكشف الجديد لكتاب "عدة الجليس"، مجلة آفاق الثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، العدد3، ديسمبر 1993م.

7- سحر (عبد العزيز سالم):ملابس الرجال في الأندلس في العصر الإسلامي، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مج27، مدريد 1995م.

8- شحلان (أحمد): مكونات المجتمع الأندلسي ومكانة أهل الذمة فيه، مجلة التاريخ العربي، العدد1، 1996م.

9- العبادي (أحمد مختار): الأعياد في مملكة غرناطة، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، العدد 1و2، 1954.

10- مقامة العيد أبي محمد عبد الله الأزدي (ت 750هـ/1350م) صورة من صور الحياة الشعبية في غرناطة، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، العدد 1و2، 1954م.

11- العمد (إحسان صدقي): الخبز في الحضارة العربية الإسلامية، حوليات كلية الآداب، مجلس النشر العلمي، الكويت، الحولية الثانية عشرة 1992م.

12- غيشار (بيير): التاريخ الاجتماعي لإسبانيا الإسلامية من الفتح إلى نهاية حكم الموحدين (من بداية القرن الثامن إلى بداية القرن الثالث عشر) (دراسة شاملة)، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير: سلمى خضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط1، 1998.

13- مكي (محمد علي): التسامح الإسلامي: الأندلس نموذجا، مجلة الأندلس؛ مجلة رقمية تصدر عن مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، العدد1، 2002م.

14- وينز (دايفد): فنون الطبخ في الأندلس، من كتاب: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير: سلمى خضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1998م
15- مجهول: كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، تحقيق: أمبروزيوأويثي ميراندا، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، العدد9، 1961-1962م.

د- الرسائل والأطروحات الجامعية:

1- بولعراس (خميسي): الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس في عهد ملوك الطوائف (400-479هـ/1009-1086م)، مذكرة مقدمة لنيل رسالة الماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2006-2007م.

2- الحميداوي (صباح خابط سعيد): الأحوال الاجتماعية والاقتصادية لأعيان الأندلس في عهدي الإمارة والخلافة (138-422هـ/755-1030م)، مذكرة لنيل درجة الدكتوراه فلسفة في التاريخ الإسلامي، جامعة بغداد، بغداد، 2007.

3- زيارة (نادر فرج): الترف في المجتمع الإسلامي (92هـ/711م=668هـ/1269م)، رسالة مقدمة للحصول على درجة الماجستير،في قسم التاريخ والآثار، الجامعة الإسلامية، غزة، 2010م.

4- عباسي (يحي أبو المعاطي محمد): الملكيات الزراعية،وآثارها في المغرب والأندلس (238-488هـ/852-1095م) دراسة تاريخية مقارنة رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، كلية دار العلوم قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، القاهرة، 2000م.

5- الغزي (بثينة جبار زاجي): الحياة الاجتماعية في مؤلفات ابن الخطيب (ت776هـ - 1374م)، رسالة دكتوراه، كلية التربية بالجامعة المستنصرية، بغداد، 2006م.

هـ- المراجع الأجنبية:

1- Calmette (Joseph): Histoire de L' Espagne, flemmions editor, Paris, 1947.

2 -Dozy (R.P.A) : Nom de vêtements chez les arabes, l'institue royal des pays-pas, Amsterdam, 1845.

3- Dufourcq (Charles-Emmanue)l: La vie quotidienne dans L europemedievale sous domination arabe, l'imprimerie cinodeldnca, ISBN, 1981.

4- Provençal(ÉvaristeLév): Histoire de L'Espagne musulmane le siècle du califat de Cordoue, t3, édition G- Pmaisonneure, Paris, 1953.

